A M J A D N A S S E R

# أمجد ناصر

# الخروج من ليوا
# يليه في ديار الشحوح

ABU ABDO ALBAGL

**الخروج من ليوا ، يليه في ديار الشحوح / رحلات**
أمجد ناصر / مؤلّف من الأردنّ
**الطبعة الأولى ، 2010**
حقوق الطبع محفوظة

**المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
**المركز الرئيسي :**
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :11-5460 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
**التوزيع في الأردن :**
**دار الفارس للنشر والتوزيع**
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :

خطوط الغلاف : **زهير أبو شايب**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **دمو برس / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.
ISBN 978-9953-36-102-9

TRAVELS

أمجد ناصر

# الخروج من ليوا
# يليه في ديار الشحوح

# الرحلة الأولى

# 2003

# تغـــرودة

دَعْكَ من الآثاريين الذين مرّوا من هنا ،
بأزاميلَ معقّمة تتعقّبُ المفاصلَ والفقرات ،
فتَحْتَ قبّعاتهم العريضة الحوافِّ
مخططاتٌ لفقاريات أكبر حجماً من بهائم البدو وقرفصاتهم
تنزُّ زيتاً ثقيلاً .
اكشط الرملَ قليلاً
ستجدُ طبعاتٍ متحجّرةً لأخفافِ نوقِ «الباطنة»
وكِسَراً من نجومٍ هجرت مدارها .
تلك السِّن المنخورة لم تسقط من ملوحة الهواء
بل من الصفير الذي يستدرج
ذئباً أوحشته العزلة .
قفْ بين تلتين ستصيران عمّا قليلٍ
خصراً وسُرّةً
ستسمعُ صدى تغرودةٍ شطرتها الرِّيحُ نصفين :
«ونّيتْ من قلبٍ بداه الهايس
كَنّه على نار الغضا يصْلونه» .

## «العولمة»، الأشجار، الأبراج

عندما خرجت من الطائرة التي حطّت في المطار وجدت نفسي في «السوق الحرّة» . كانت هناك قبة كبيرة تنضوي تحتها محال الأدوات الكهربائية والعطور والسجائر والمشروبات الروحية والثياب تجد مثلها في معظم مطارات العالم . بدت لي تلك القبة ، مرة ، على هيئة ذيل طاووس ، ومرة أخرى على شكل نافورة من المخمّسات الذهبية والزرقاء : ألوان سمرقند وبخارى والذهب الكابي في أحلام الباحثين عن الكنوز . الفراغات البيض بين المخمّسات (وهي ، أيضاً ، خماسية الأضلاع) أعطت انطباعاً بقوة الضوء الخارجي . لكن لم يكن ثمة ضوء خارجي . فقد كان الوقت ليلاً . إنها ، إذن ، مجرد خدعة بصرية . لم أشتر شيئاً من «السوق الحرة» ، بل توجهت ، كمدخّن عتيد استبدَّ به النيكوتين ، إلى مقهى صغير وطلبت فنجان قهوة ورحت أدخّن بنهم ، بعد نحو تسع ساعات من الامتناع القسري عن التدخين . تلك الآفة التي لم أستطع التخلص منها رغم أنني أقيم في بلاد تتعامل مع المدخنين كالمصابين بالجذام .

فكّرت بتقدم «السوق» على ختم السيادة ، وقلت إنه ليس بلا

دلالة . أليس هذا وجهاً من وجوه «العولمة» التي نعيش ، اليوم ، في ظل رنين نقودها ومعادنها وهواتفها النقالة وتدفق سلعها وماركاتها وذبذباتها وجادات معلوماتها التي يصعب التحكم فيها أو ضبطها؟

حدث ذلك في العام الماضي . كنت مدعواً لحضور فعاليات معرض الكتاب الذي يقيمه «المجمع الثقافي» ، سنوياً ، في أبوظبي ويدعى إليه حشد من المثقفين العرب . هذه المرة أجيء إلى أبو ظبي لغرض آخر : الكتابة عن المكان وأهله والتغيرات التي طرأت عليهما بعد نحو نصف قرن من اكتشاف النفط ، وكانت القبَّة التي تتشابك فيها مخمَّسات تستلهم شكلها من الزخرفة العربية الإسلامية ترخي ألوانها الهادئة على السلالم الكهربائية المتحركة ، محال السوق الحرة ، المسافرين الذين يتبضعون ، أو يقتلون الوقت انتظاراً لطائرات تقلهم إلى وجهات سفرهم .

***

الشركة التي صمّمت «مطار شارل ديغول» في باريس هي نفسها التي صمَّمت «مطار أبوظبي» . فقد عهدت حكومة أبوظبي ، عندما لمست ضغطاً متزايداً على مطارها القديم في منطقة «البطين» وتوسعاً في العمران ، إلى شركة فرنسية وضع تصميم لمطار جديد خارج جزيرة أبوظبي . فوقع الاختيار على مكانه الحالي ، في البرّ الرئيسي ، على بعد نحو 30 كيلو متراً من قلب المدينة وبالقرب من الطريق الدولية التي تربط بين أبوظبي ودبي . هذا ما تقوله المعلومات الرسمية الإماراتية عن مطار العاصمة ، لكن هذه المعلومات لا تخبرنا لِمَ يدخل القادم إلى أبوظبي ، جواً ، للسوق

الحرة قبل منفذ الهجرة والجوازات؟ وبصرف النظر عمن فكّر في هذا التدبير فقد وضعه ، بقصد أو من دون قصد ، في قلب ما يسمى «العولمة» التي تدشّن طوراً جديداً من أطوار رأسمالية لم تنفع تنظيرات فلاديمير إليتش لينين القائلة إن الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية ، في التكهن بمصائرها المتحولة . هذه الرأسمالية الحرباء!

فما إن تغادر طائرتَك التي تحطُّ في مطار أبوظبي وتدلف إلى ممرٍ صغيرٍ حتى تجد نفسَك في «السوق الحرّة» . ليس رجل الأمن المتجهم ولا النسور العربية الكهلة أول من تراهما في المطار ، بل القبَّة الكبيرة المزخرفة بألوان عربية أثيرة تنضوي تحتها محال «السوق الحرّة» . ولعل مزاوجة القبَّة المزخرفة (بصفتها رمزاً عربياً وإسلامياً) بالسوق هو الجدل الوحيد الممكن ملاحظته ، هنا ، بين «الخصوصية» و«العولمة» .

يمكنك أن تأكل وتشرب وتتبضع ، ثم تمتطي لساناً متحركاً يقودك ، بعدئذٍ ، إلى منافذ الهجرة والجوازات حيث تطالعك الدولة بزيّها الوطني : «الكندورة» (الدشداشة) والحطة البيضاء والعقال . . واللحية الخفيفة التي صارت ، عندي ، سمة مميزة لسحنة «الإماراتي» .

«الهوية» الوحيدة الظاهرة ، هنا ، هي زيّ رجال الهجرة والجوازات الذي لولاه ، ربما ، ما عرفت أنك هبطت في الإمارات وليس في أي مكان آخر في العالم .

فالماركات التجارية التي تحملها السلع هي نفسها التي تراها في أيّ سوق أخرى في العالم ، والإنكليزية التي ينطقها الباعة ،

بلكنات هندية وفلبينية ، أصبحت لغة العصر وتُرجُمان أحواله . المميّز في هذه «السوق الحرّة» قليل ولكنه ذو دلالة محلية : التمور التي تتفنن مصانعها في الإمارات بحشوها بالمكسرات ، فهذه البلاد تتوافر على بعض أفضل أنواع التمور التي لا يكاد يخلو منها «مجلس» إماراتي أو دائرة عمومية .

كانت «السوق الحرّة» تضج ، هذه المرة ، بالمتبضعين القادمين من الخارج ، ومعظم هؤلاء من شبه القارة الهندية . كانت هناك طائرتان أو ثلاث قد حطت تباعاً في المطار الصغير . ولم يكن الأمر كذلك في زيارتي السابقة حيث كانت طائرتنا القادمة من لندن الوحيدة التي وصلت قرابة منتصف الليل إلى مطار يكاد يخلو من الحركة .

ستعتقد ، إن كنت تزور أبوظبي ، أول مرة ، وخصوصاً إذا كنت قادماً من لندن ، مثلي ، أن كثرة الباكستانيين والهنود ، قياساً إلى غيرهم من الجنسيات الأخرى ، له علاقة بوجهة السفر ، فأبوظبي ودبي هما محطتا ترانزيت أساسيتان للذاهبين إلى شبه القارة الهندية والقادمين منها ، ولكنك سرعان ما تتبين خطأك ما إن تخرج إلى باحة المطار لتجد أعداداً كبيرة منهم تنتظر ، بلهفة مَنْ لم يثق بعدُ بالسفر جواً ، طائرات قادمةً من الهند وباكستان .

خطر لي ، في غضون هذه الرحلة أن خط الطيران الحالي الذي يربط بين لندن وباكستان والهند ، وربما الشرق الأقصى وأستراليا ، هو نفسه الذي قامت بريطانيا باستحداثه عام 1929 ليربط بين عاصمة الإمبراطورية (المتروبول) ومستعمراتها في الشرق . خط بدأ

عسكرياً ، وربما تعرَّض لانحرافات قليلة على مدار العقود اللاحقة ، لكنه صار ، الآن ، طريقاً جوياً لنقل الأحلام والمسافرين والبضائع بين هاتين الوجهتين . وإذا ذهبنا أبعد في التاريخ سنجد أنه يَتَرسّمُ ، إلى هذا الحد أو ذاك ، طريق التجارة القديم ، فالآثار التي اكتشفت في هذه البلاد تشير إلى أن ما تسمى ، اليوم ، «دولة الإمارات العربية المتحدة» كانت محطة أساسية على طريق التجارة الذي ربط ، قديماً ، بين الشرق الأوسط وشبه القارة الهندية من جهة ، واليونان وروما من جهة ثانية ، حاملاً على متن مراكبه توابل الشرق وعطوره القوية إلى معابد الغرب وقصور حكامه وأثريائه .

***

كانت العاشرة ليلاً عندما خرجت بصحبة موظف من «المجمع الثقافي» في أبوظبي تولى تدبير معاملة الدخول ، فلم أقف عند منفذ الشرطة أو الجمارك أسوة برفاق رحلتي من الإنكليز والآسيويين . وهذه ميزة أن تكون ضيفاً رسمياً في مطارات العالم العربي ، وإلاَّ فإنك داخلٌ ، كعربي ، في مارثون طويل من السين والجيم . . إن لم يكن من «البهدلة» ، حتى وإن كنت تحمل ، مثلي ، جواز سفر دولة عظمى .

رطوبة خفيفة هبّتْ ما إن خرجت من صالة المطار المكيّفة ذكَّرتني أنني صرت في جهة بحر دافئ ، أما درجة الحرارة فكانت ، على ما أخبرنا كابتن الطائرة ونحن نستعد للهبوط ، 25 درجة مئوية .

إنها درجة حرارة مثالية بالنسبة لي أنا القادم من لندن .

لكن هذه الحرارة المثالية لم تكن كذلك بالنسبة لسائق السيارة التي أقلتني إلى فندقي في المدينة ، فقد كانت سيارته المرسيدس ، حديثة الطراز ، مكيّفة إلى درجة شعرت بالبرد .

سألت السائق ، الذي عرفت أنه يتحدَّر من أصول يمنية ، عن الطقس في أبوظبي هذه الأيام ، فقال إنه ممتاز .

فنحن في الربيع .

الربيع والشتاء هما أجمل فصلين هنا ، أضاف .

فقلت له : لماذا ، إذن ، تشغل مكيّف السيارة؟

فأجاب : تعودنا على ذلك . حتى في البيت صرنا لا نستطيع النوم من دون هدير المكيّف!

ولأنني ضيف فقد اقتنع ، ظاهرياً في الأقل ، أن يطفئ المكيّف ويفتح نوافذ السيارة لاستقبال هواء المكان نفسه حتى وإن كان مشبعا ببعض الرطوبة ، لا هواء المكيّف البارد الذي كاد أن ينفذ إلى عظامي ، سيما ، وأنني لم أكن أرتدي سوى سترة خفيفة .

مذ خرجنا من المطار إلى أن وصلنا المدينة كان هناك صفان من أشجار النخيل يحفّان بنا من دون انقطاع . منظر يجعلك تشعر أنك في كاليفورنيا وليس في هذه الإمارة التي لم تعرف الماء والخضرة إلاَّ في الواحات النادرة التي تمحورت حولها بؤر الحياة المستقرة الوحيدة في الصحراء .

ظن السائق ذو الأصل اليمني أنني أزور أبوظبي للمرة الأولى . لم أخيّب ظنه بالقول إنها ليست الأولى ، فتركته يتحدث ، بحماسة ، عن هذه الخضرة الكثيفة ، الراسخة ، الممتدة مسافةً

تقاربُ ثلاثين كيلومتراً ، عن العناية البالغة التي تتلقاها من رئيس الدولة ، عن تخصيص عامل زراعي ، تقريباً ، لكل شجرة . قال السائق ذو الأصل اليمني وهو ينظر إليَّ من مرآته الأمامية : إن الفضل في هذه الخضرة يعود إلى الشيخ زايد .

وأضاف : إنها أشجاره . هو الذي أمر بغرسها ، وهو الذي يتفقد نموها ، شخصياً ، بين حين وآخر .

فقلت له مازحاً : هل يعني هذا أنها ملكه؟

ضحك وقال : بالطبع لا ، إنها ملكية عامة ، ولكنه يهتم كثيراً بالمشاريع التي يأمر بتنفيذها إلى حد قيامه بجولات مفاجئة لتفقدها .

تفسيري الوحيد لاهتمام رئيس دولة هذه البلاد الشخصيِّ بالخضرة التي يفاجأ بها كل من يزور أبوظبي ، أن الرجل أراد تغيير وجه دياره القاسي الذي عرفه ، وعاشه ، قبل أن تقذف هذه الرمال من أحشائها العميقة أنهاراً من الذهب الأسود لتنقلب حياة الناس هنا ، بعد ذلك ، رأساً على عقب . ففي «أدبياته» التي يوفرها لك الإعلام الرسمي كلام عن الخضرة والأشجار والماء أكثر مما فيها عن النفط والحجر والإسمنت . كأن الإنجاز الذي يفخر به ابن الصحراء هو هذا الشيء الذي لم يكن موجوداً في بحر من الرمل المتقلب : الخضرة .

سيخبرني إبراهيم العابد ، الباحث الفلسطيني ومدير الإعلام الخارجي في الإمارات ، حكاية ذات دلالة عن علاقة الشيخ زايد بالأشجار . فقد سألته طفلة في إحدى جولاته التفقّدية (وكان قد

شرع في حملة التشّجير الشاملة في أبوظبي) قائلة :

لماذا تزرعُ الأشجار؟

فأجابها : كي تتمكني من رسمها عندما تطلب المُعلّمة منك ذلك!

***

استمر السائق في مهمة تعريف ضيفه على المواقع التي تعبرها السيارة في شارع عريض ، قليل الحركة في هذا الوقت المتأخر ، نسبياً ، من الليل . كان يبدو فخوراً ، هو أيضاً ، بما تعرفه هذه البلاد من نظافة وتنظيم وعمران ، أكثر من فخره ببلاده الأصلية : اليمن . فقد أسفَ عندما قلت له : ولكنكم أصل الحضارة في شبه الجزيرة العربية ، فأجاب : ليس الآن . بلادنا حلوة ولكن تعمها الفوضى والفساد والفقر!

أشار السائق في الاتجاه الذي يحاذي البحر إلى بيوت عدة محاطة بأسوار تبرز من ورائها الأشجار تخص رجالاً معروفين في الدولة ، أو في أسرة الشيخ زايد الكبيرة ، لكنه كان قد أشار في الاتجاه المعاكس إلى جامع كبير الحجم لم يكتمل بعد . جامع له تصميم يُذكِّر بآيا صوفيا ، قال إنه جامع الشيخ زايد .

سأعرف ، لاحقاً ، من الصحافي الفلسطيني جمال المجايدة ، المقيم في أبوظبي ، أن هذا الجامع ، الذي يطمح الشيخ زايد أن يكون من بين أكبر الجوامع في الشرق الأوسط ، تعرَّض لـ «سوء أمانة» من قبل شركات تنافست على مناقصات بنائه ، فاستنزفت الميزانية المخصصة له ، ما أدى إلى توقف العمل فيه أكثر من مرة ،

ولكن الحركة عادت ، هذه الأيام ، إلى موقعه مجدداً!

لعل الشيخ زايد أراد أن يترك وراءه ، إلى جانب الوجه الأخضر لعاصمة دولته ، صرحاً معمارياً يرتبط باسمه على غرار صنيع الملك الحسن الثاني في المسجد المسمى باسمه في الدار البيضاء . لكنَّ رئيس دولة الإمارات الذي تعتبر بلاده ، بثروتها البترولية الضخمة وعدد سكانها الضئيل ، واحدة من أغنى دول العالم ، لم يكن يحتاج ، مثل العاهل المغربي ، إلى جمع أموال البناء عبر ضريبة رسمية خاصة بالمسجد الفخم .

الشيخ زايد لا يحتاج إلى جباية مفروضة ولا لتبرّع المحسنين ، لأن المال عنده وفير على نحو لم يخطر في باله ، على الأغلب ، عندما كان «نائب الحاكم» في مدينة «العين» وكانت بلاده تتوافر على سيارتي «لاند روفر» اثنتين ، واحدة له والثانية لأخيه حاكم الإمارة الشيخ شخبوط!

اللافت في الأمر أن الزعماء العرب الذين يريدون تخليد ذكرهم يأمرون ببناء مساجد عملاقة قد لا تكون هناك حاجة عبادية ماسّة بها . . بل إن بعضهم ، مثل صدام حسين ، «علماني»! وبناء المساجد ، على هذا النحو التنافسي ، «تقليعة» جديدة تواكبت ، كما هو واضح ، مع صعود الموجة الإسلاموية في العالم العربي .

شاهدت ذات جمعة في الدار البيضاء مصلين مغاربة بالعشرات يقصدون جامعا ذا بناء إسمنتي متواضع يقع بالقرب من «مسجد الحسن الثاني» فغصَّ بهم الجامع الصغير ، فصلى ، من لم

يجد مكانا داخله ، على حُصرٍ من القش في فنائه الخارجي ، فيما كانت مَعْلَمَة الدار البيضاء المعمارية الفريدة (الفريدة حقاً) شبه فارغة . تلك صلاة احتجاجية كما قال لي الكاتب الصحافي المغربي الطاهر الطويل ونحن نشاهد المصلين المغاربة يقبلون على ذلك الجامع المتواضع متجنبين أحد أضخم الجوامع العربية وأكثرها تفنّناً في معمار انخرط في صوغ «هويته الفنية» معظم مُعلّمي الحرف التقليدية في المغرب .

سألت السائق : ولكن هذا المسجد بعيد عن المدينة ، أليس كذلك؟

فقال : بعد بضع سنين سيكون في داخل المدينة!

سألته : ماذا تقصد؟

فقال إن المدينة تتوسع كثيراً إلى درجة أن هناك رداً متواصلاً للبحر للحصول على أرض في أبوظبي . . فكيف لا تمتد المدينة إلى هذا الصوب؟

ورغم كثرة المساجد في أبوظبي ، التي يتبارى علية القوم في بنائها ، إلاّ أنها لا تعرف فوضى الأذان العارمة التي يلاحظها المرء في البلاد العربية ، حيث يُرفع نداء الصلاة من عشرات المساجد مجتمعة مرةً ومتفرقةً مرة أخرى ، مؤادةً ، في أغلب الأحيان ، بأصوات مُنفِّرة . يلفت نظر المرء ، خصوصاً الذي يتنقل في عواصم عربية كبرى شهدت مجاذبات بين القوى الأصولية والسلطة ، غياب البعد الأمني الظاهر في الشوارع هنا . هذا لا يعني أن الأمن غير موجود . الأمن موجود ولكنه ليس ظاهراً بفظاظة ، ولا بدَّ أنه

أمن فعّال ذلك الذي يستطيع ضبط مجتمع مكوّن من عشرات الجنسيات الأجنبية (البعض يقول إن «الوافدين» يتوزعون على مئتي جنسية!) القادمة من أربعة أركان العالم .

أبديت للسائق إعجابي بانضباط السيارات في المسارات المحددة في الطريق وكذلك عند إشارات المرور ، فقال إن مخالفات السير باهظة وقد تتسبب ، إن كانت خطرة ، بتجريد صاحبها من الرخصة أو حتى تسفيره فوراً خارج البلاد . يلفت نظر المرء ، كذلك ، السيارات التي تُترك مفتوحة الشبابيك وأمتعة أصحابها في داخلها . هذا مستحيل في لندن التي أقيم فيها ، وشبه مستحيل في معظم العواصم العربية .

لم أر مظهرا أمنياً ، استثنائياً ، بالقرب من «المناطق الحساسة» ، فعندما وصلنا إلى مفترق يتفرع منه شارع عريض يذهب في اتجاه البحر ، قال السائق إن هذا الشارع يؤدي إلى قصر الشيخ زايد ، ولكن لم يكن هناك مظهر أمني يوحي بذلك . تذكّرت ، لحظتها ، قصر الرئيس حسني مبارك في «مصر الجديدة» الذي تمرّ بالقرب منه طريق صلاح سالم . إنه محاط بالحرس المدججين بالسلاح من كل جانب . فبعد أن بلغ الصراع ذروته بين قوات الأمن المصرية والجماعات الإسلامية المسلحة ، تم تحويل الطريق المؤدية الى مطار القاهرة لتفادي اقتراب السيارات من سور القصر ، رغم أن الرئيس ، كما قيل لي ، لا يستخدمه كثيراً ، بل لا يمكث في القاهرة نفسها بالقدر الذي يمكث فيه في «شرم الشيخ» البعيدة مئات الأميال عن التجمعات المصرية الكبرى!

ليست هناك الآن ، على ما يبدو ، قوى سياسية في الإمارات . . وإن كانت هناك اعتراضات لا تسمع بقوة من قبل الناشطين في قضايا الحريات وحقوق الإنسان ، والمطالبين بانتخابات ديموقراطية ، فضلا عن تركز خطاب التيار الإسلامي ، حتى اللحظة ، على الجوانب الاجتماعية والتربوية وتجنّبه الخوض ، مباشرة ، في الشأن السياسي العام . قد يكون «الكمون» الإسلامي في الإمارات «هدنة» بين تياره الرئيسي «المعتدل» والدولة ، ممثلة بالحكومات المحلية ، قبل أن يكشف عن تشدده ، وقد لا يكون . فالأمر ليس واضحاً ، تماماً ، بسبب ضعف الشفافية السياسية والإعلامية في البلاد .

لا توجد في الإمارات أحزاب ، وليست هناك معارضة منظمة ، فالمجتمع الإماراتي أقرب إلى شكل القبيلة منه إلى المجتمع المدني . النسب وعلاقات الدم ، وليس الفرز الاجتماعي أو الاقتصادي ، هما اللذان يشكلان بنية هذا المجتمع البسيط رغم اتصاله بأحدث منتجات العصر التكنولوجية وتدجّجه بها ، فقبيلة «بني ياس» وحلفاؤها الذين أسسوا هذه الإمارة ما زالوا يشكلون العصب الأساس في مجتمع «المواطنين» الإماراتيين ، والحكام ظلوا يحتفظون بكنيتهم القديمة : «شيخ» .

وهم يفضلون ، على ما يبدو ، الحلول القبلية القائمة على «المونة» و تطييب الخاطر و«الكلمة» التي تضمنهما عهود الرجال ، على أية حلول ومواثيق قانونية .

وهذا قانون أيضاً ، ولكن من نوع آخر .

إنه قانون الصحراء .

كانت «حركة القوميين العرب» التي قادها الزعيم الفلسطيني الدكتور جورج حبش نشطة في بعض الإمارات أثناء الانتداب البريطاني ، وقد عرفت «الساحة الخليجية» الانشقاقات والتحولات نفسها التي شهدتها «الحركة» بعد هزيمة الخامس من حزيران عام 1967 .

كان الاتجاه السياسي القومي ، الذي تحول إلى الماركسية وتكونت نواته الصلبة من عُمانيين وبحرينيين ومواطنين من إمارة رأس الخمية ، يناضل على أساس وحدة الخليج والجزيرة العربية ، أو في أضعف الإيمان وحدة شبه الجزيرة العُمانية . لكن فكرة الوحدة هذه ، شأنها في ذلك شأن معظم مشاريع الوحدة العربية ، لم تتمكن من الصمود أمام معطيات الواقع ، فانتهى الأمر إلى قيام تنظيم في الساحل (الإمارات لاحقاً) يدعى «حزب العمل الاشتراكي» ، فيما صار الاتجاه الرئيسي فيه يسمى «الجبهة الشعبية لتحرير عُمان» .

عمانيو الجبهة كانوا يرون ، على ما يبدو ، في فكرة استقلال الإمارات وقيام اتحاد يجمع بين الإمارات السبع بعد الجلاء البريطاني ، مشروعاً تجزيئياً جديداً في المنطقة . وعند قيام الدولة الاتحادية في الإمارات تم القبض على عدة خلايا من «حزب العمل» وسَجْنِها لفترة قصيرة ، ثم استيعابها ، في ما بعد ، من خلال تعيين بعض أعضائها في الإدارات الحكومية .

هذا في ما يخص الإماراتيين ، أما أعضاء التنظيم من العُمانيين والبحرينيين فقد طردوا خارج البلاد . وفي بداية

الثمانينات حاولت مجلة «الأزمنة الجديدة» ، التي رعاها الراحل غانم غباش ، أحد الشخصيات الإماراتية التقدمية ، استعادة أنفاس تلك المرحلة ولكنها أغلقت بعد نشرها غلافاً مثيراً لمصرع الرئيس المصري أنور السادات في تشرين الأول (أكتوبر) من العام 1981 . أتذكر ذلك الغلاف ، فقد رأيته في بيروت . كانت فكرته مخيفة : صورة أنور السادات في برواز زجاجي مخترق بما يشبه الرصاصة!

كانت الماركسية ، في الستينات والسبعينات ، الفكرة الأكثر رواجاً بين المثقفين العرب ، وكان يمكن أن تكون هذه الفكرة معقولة (ومفهومة) في مجتمعات كبيرة ذات تركيب طبقي واضح مثل مصر ، العراق ، سورية ، بلدان شمال إفريقيا ، لكنها تبدو غريبة في بلدان الخليج العربي ، وعلى الأخص ، في الإمارات التي لم يكن عدد سكانها يتجاوز مئة ألف مواطن .

وكما أشرت سابقا فقد هبّت رياح الاشتراكية على الخليج العربي مع تحوّل «حركة القوميين العرب» إلى الماركسية التي كان لها تأثير سياسي ملحوظ في المنطقة ، أواخر الستينات . كان ثقل هذه الحركة يتركز في أربع بؤر خليجية أساسية : عدن ، البحرين وعُمان والكويت .

وهذه بلدان ذات ثقل سكاني أكبر من الإمارات .

أنهت عُمان الثورة الماركسية المسلحة التي تركزت في «جبال ظفار» ، بمعونة بريطانية ـ إيرانية في السبعينات ، وتوحّدت اليمن الجنوبية مع الشمال بعد سلسلة من الحروب داخل الحزب الاشتراكي الحاكم وأفول «المعسكر الاشتراكي» ، وتمكّنت البحرين

من إطلاق تجربة ديمقراطية ، تعتبر الأحدث في الخليج ، أدخلت ، من خلالها ، القوى المعارضة الماركسية والدينية في «اللعبة الديمقراطية» ، واندثر التيار القومي واليساري في الكويت بعد الاحتلال العراقي ، وظلت الإمارات ، التي استوعبت عناصرها اليسارية قليلة العدد ، بمنأى ، إلى حد كبير ، عن هذه العواصف السياسية .

ولا يبدو أن رياح التطرف الديني قد وصلت إلى الإمارات . هذا ما يلوح ، أقله ، على السطح ، رغم أن «مروان الشحّي» ، أحد المنفذين المفترضين لاعتداءات الحادي عشر من سبتمبر ، إماراتي الجنسية .

قد يكون «الشحّي» حالة معزولة .

فليس في الإمارات وجود قوي للسلفية ، ذات الطابع الوهابي ، كما هو شأن السعودية ، رغم أن معظم قبائلها «حنبلية» المذهب ، ولا تعرف ، على ما ظهر لي ، حالة غضب مكبوت بين «المواطنين» .

لعل صلة القربى التي جمعت «مروان الشحّي» بـ «محمد عطا» ، القائد المفترض لـ «غزوة منهاتن» ، من جهة الأم ، هي التي جذبته إلى «القاعدة» ، وربما ، بسبب انتمائه إلى قبيلة «الشّحوح» التي يصفها الرحالة والسياسي البريطاني برترام توماس أنها «غريبة الأطوار» ، ولكن المؤكد أن هذ القبيلة تتمترس في واحدة من أنأى مناطق الساحل وأكثرها وعورة هي «رؤوس الجبال» التي تقع في أقصى إمارة «رأس الخيمة» وتعتنق المذهب «الحنبلي» بتأثير من

«الوهابية» التي أخضعت العديد من قبائل المنطقة في القرن التاسع عشر .

هل هذا سبب كاف كي يكون «مروان الشحّي» واحداً من قادة غزوة أسامة بن لادن الأمريكية؟

بالطبع لا .

وهل يعني مجرد كونه إماراتياً أن له امتدادات في البلاد؟

ليس ذلك مؤكداً .

اسم «الشّحوح» ، الذين احتارت الكتابات الغربية التي أرّخت للقبائل العربية في الخليج ، في ردّهم إلى أصل محدد ، فتضاربت بشأنهم الآراء ، سيظل في ذهني . . فهم ، على ما يبدو ، حالة مميزة في تلك المنطقة ، وسأرى إن كنت سأتمكن من زيارة ديارهم في هذه الرحلة .

وأياً يكن الأمر فإنه من قبيل الوصف الموضوعي القول إن الإمارات هي الأكثر استقراراً سياسياً ، حتى الآن ، في الخليج العربي . وهو استقرار قائم على الوضع المعيشي الجيد لعامة «المواطنين» ، ليس قياسا بالدول العربية الأخرى وإنما بمحيطها الخليجي ، وكذلك على حاجة الإمارات الصغيرة (الشمالية) للأموال التي يوفرها لها الاتحاد بقيادة أبوظبي ، الأكثر ثروة وسكاناً ، فضلاً عن الموقع الأبوي الذي يمثله الشيخ زايد لمشايخ الإمارات الأخرى ، أما خارجياً فيقوم هذا الاستقرار على ما يمكن وصفه بـ «الحياد الإيجابي» في أزمات المنطقة . فتدخّل الإمارات ، من خلال شخصية الشيخ زايد ، يكون ، عادة ، لفضّ النزاعات وتقريب

وجهات النظر المتباينة . . فإن تعذر ذلك نأت بنفسها عن الاصطفاف والتخندق في موقع ضد آخر . ولهذه السياسة ، كما سنرى لاحقاً ، أصل قديم .

وباستثناء دبي التي تمكنت من إحداث طفرة اقتصادية كبيرة قائمة على التجارة والاستثمار فإن الإمارات الباقية (الشارقة ، عجمان ، أم القيوين ، رأس الخيمة ، الفجيرة) لا تملك موارد ، يعتدّ بها . ولكن ، مع ذلك ، فإن الفقر لا يعض بنابه ، هنا ، ولا يتكوم غضب مكتوم في النفوس .

***

كانت العاشرة والنصف ، تقريبا ، عندما أوصلني السائق إلى فندق «ملينيوم» (الألفية) الذي سيكون عليّ العودة إليه طيلة أيام رحلتي إلى أبوظبي ، في أولى ساعات الصباح ، فليل أبوظبي لا يفوّت في هذا الفصل الرحيم من السنة .

إنه ليل سهر وسمر ، ولكن بلا صخب .

قلت لموظف الاستقبال السوري ، العربي الوحيد بين موظفي وموظفات الفندق ذوي الغالبية الفلبينية والهندية : «إنني أريد غرفة تطل علي البحر» ، فقال : «إن جميع الغرف في هذه الجهة محجوزة» ، فنزلت في غرفة تطلُّ على «شارع خليفة» الذي يقع فيه الفندق .

كل ما في الفندق يدل على أنه جديد . ليس فقط اسمه الذي يضمر حسن نية ببقاء لن يطول كثيراً (بحسب الأعمار الافتراضية للأبنية هنا) ، وإنما البناء والأثاث ، المصاعد ، المرافق الخدمية . . .

إلخ . كان أول ما فعلته بعد أن أوصلني أحد العاملين بالفندق إلى غرفتي في الطابق الثالث هو إطفاء المكيّف . وسأفعل هذا الأمر ، كل يوم تقريباً ، وفي كل مكان أتمكن فيه من فرض رغبتي ، التي لم تكن تروق كثيراً مدمني المكيِّفات ، متصرفاً بالقول المأثور للسيد المسيح : قليل من الحرارة ينعش قلب الإنسان!

وإذا كان أول ما يلفت نظر الزائر ، وهو يدخل أبوظبي ، الخضرة وأشجار النخيل ، فإن العمائر الزجاجية التي تشبه ناطحات سحاب صغيرة هي ما يطالعه ثانياً .

الزائر الذي يتوقع أن تكون أبوظبي مدينة شرقية سيخيب ظنه على الفور .

فلا شيء من ذلك اللَّهمَّ سوى أشجار النخيل وبعض الزخرفة العربية المنقوش على الزجاج . إنها مدينة حديثة بكل المقاييس : زمناً وطرازاً . مدينة تتنافس عمائرها على الفضاء ، العلو ، وليس الانبساط ، لدرجة يحلو للبعض أن يرى فيها «منهاتن» صغيرة . إنها مدينة نظيفة ، هادئة ، مرتبة ، غارقة في الأضواء ليلاً . الشرقي فيها هو نخيلها ، حرارتها ، وربما الذوق البدوي الذي يفرض ، أحياناً ، ألوانه الصارخة على الأبراج الزجاجية ، وبهذا فهي لا تشبه أي عاصمة عربية أخرى . فرغم التحديث العشوائي الذي طال العواصم العربية إلاَّ أنها لا تزال تنطوي على شيء من هويتها التي يبرزها المعمار ، خصوصاً ، القديم منه .

لا شيء يبدو قديماً هنا سوى البحر المحاصر بالأبراج ، سوى الصحراء التي تقف ، عنيدة ، في الخلف . . غير ذلك

هناك هدم وبناء دائمان .

فهذه مدينة تغير جلدها ، تقريباً ، مرة كل عشر سنين ، ليس فقط بسبب الرغبة في التغيير التي تستبد بالناس ، هنا ، تحت وطأة الملل الذي لا تشبعه حمى الاستهلاك ، بل ، أيضاً ، بسبب الحرارة والرطوبة العاليتين اللتين تعيثان فساداً في أبنية لا مادتها ابنة البيئة ولا طرزها من تراث أهلها .

من لا يحب «الحداثة» العمرانية قد لا تعجبه المدينة ، لكنها ، بالتأكيد ، ستدهشه ، خصوصاً ، في الليل ، عندما تنعكس أضواء الأبراج الزجاجية الملوّنة على صفحة مياه البحر : ألوان خضراء ، حمراء ، برتقالية ، تعكس صوراً متراقصة لهذه الأنصاب الزجاجية الضخمة التي لا ترى فيها شرفة مفتوحة ولا وجهاً يطلّ أو يداً تلوّح . أبراج من كونكريت وحديد وزجاج ومكيّفات تهدر على مدار الساعة ، يرفع بعضها أسماء أصحابها أو الشركات العابرة للحدود والجنسيات التي تستقر في أقفاصها المستطيلة .

هذه هوية ، أيضاً ، تتشكل ، ولكنها هوية قد تكون لأي مكان في طور «العولمة» الراهن . «هوية» في زمن تفتت الهويات وتداخلها بعضها ببعض ، تأخذ ملامح سريعة ، إن لم تكن فولوكلورية ، من ميراث المكان وتكتفي بها كبيان انتساب . لن تشك ، بالطبع ، للحظة واحدة ، أنك في مدينة غنية ، فالوفرة المالية واضحة ، والتنافس على ما يعكس هذه الوفرة أوضح ما يكون في البناء .

هناك ملمح واضح يحيل إلى الهوية «الأصلية» : إنه الزيّ شبه الموحد الذي يرتديه «المواطنون» . وهذه خصيصة تكاد تقتصر على

شبه الجزيرة العربية ، حيث لا يزال السكان يتشبثون بأزيائهم المحلية في الشارع والعمل ، بل إنها ترقى في بعض البلدان ، كعُمان ، درجة القرار الحكومي الذي يلزم الموظفين بارتداء الزي العُماني الكامل أثناء العمل .

وفي أبوظبي ، سألاحظ أن الزيّ المحلي ممنوع في مكان واحد : مرابع السهر الليلية . فليس مسموحاً لـ «المواطن» أن يدخل حانة أو ملهي ليلياً بزيّه المحلي . ولما سألت بعض أصدقائي الإماراتيين عن السبب قيل لي إن الأمر يتعلق بـ «احترام الزي»!

بدا لي أن الزيّ ، هنا ، شارة ونسب . لهذا وجب احترامه . فإن فعلت ما هو غير محترم ، في نظر الثقافة السائدة ، عليك أن تخلع عنك شارة نسبك : الثياب!

هكذا تتحرر من إكراهات الهوية التي يفرضها عليك الزي وتصبح مثلك مثل الآخرين فاقداً للهوية . كأن الثياب ، هنا ، هي وضوحك ، فما إن تخلعها حتى تتسربل بالغموض . . تختفي بين جموع الذين لا يحملون شارة تدل عليهم!

خطر لي أن الأمر عكس القناع .

فثيابك المحلية هي سفورك (وضوح هويتك وشخصيتك) ، أما الثياب الإفرنجية فهي قناعك .

هكذا يصعب ردك إلى جهة وصوب .

أتساءل : هل هذا تناقض تعكسه حالة الانتقال السريع من أنماط حياة البداوة وقيمها إلى ما تجلبه حياة «الحداثة» من «آفات» و«شرور» ، أم هو ، ببساطة ، مجرد نفاق اجتماعي؟

# تفكيك العاديّ

هذه ، كما أشرت من قبل ، زيارتي الثانية ، على التوالي ، لأبوظبي . . لكنها قد تكون الثالثة إذا احتسبت تلك الليلة التي قضيتها ، هنا ، في ضيافة أقرباء لي قبل نحو ثمانية عشر عاماً . . وتركت ، في ذهني ، صورة رجراجة للمدينة .

ليس الغرض من زيارتي الحالية المشاركة في ندوة أدبية ، كما حصل في الزيارة السابقة ، ولا حتى حضور معرض الكتاب الذي تشهده المدينة سنوياً في هذا الوقت من العام ، بل القصد منها ، كما أسلفت ، الكتابة عن البلد الذي لم يحظ مني ، قبلاً ، سوى بنظرة عابرة .

هناك أماكن إن لم يكتب عنها المرء في زيارته الأولى فربما لن يكتب عنها قط . فالدهشة التي قد تثيرها فيك أول الأمر ما تني تستنفد . والاستثارة التي يبعثها ملمح هنا أو ملمح هناك تتضاءل تاركة الحيّز لشيء من العادية البليدة التي ما تني تتعاظم ، في الزيارات اللاحقة ، حتى تصبح شعوراً غالباً يصعب تبديده . إنه شعور يشبه وصف المُنظّر الروسي الشكلاني شكلوفسكي لـ «التعود» الذي يلتهم ، على حد تعبيره ، الأعمال والملابس والأثاث

والزوجة! ولا تمكن إعادة «اكتشاف» الأشياء ، بشكلها المحسوس ، إلاّ بـ«نزع الألفة عنها» . نزع الألفة! هذه استعارة منقولة من المعاينة التي يصنعها النثر والشعر لعالم المدركات ، ولا أدري كم هي ناجحة في السياق الذي زججتها فيه . وفي ظني أن «الألفة» خادعة أصلاً . لأن هناك دائماً ما هو «غير أليف» في الأمكنة حتى تلك التي أنهكها التكرار والمراودة . الألفة سطح خادع . اكشط ذلك السطح . اخدشه قليلاً ، ستجد ما لم يلفت نظرك من قبل . ما لم يستوقفك . هذا ، تقريباً ، يحصل أينما وقفت الألفة ، ببداهتها أو بلادتها ، بينك وبين الأشياء .

ربما كان عليَّ أن أمسك بأعنّة اللقاء الأول مع أبوظبي .

ولكني ، لأمر ما ، لم أفعل .

ربما لأنني كنت أتوقع شيئاً «مختلفاً» عما رأيت ، وربما لأنني ظللت حبيس الغرف المكيّفة وجلسات «المثقفين» المكتظة بدخان السجائر والنميمة والشكوى التي أصبحت مذهباً في ظل عطالة ، متنامية ، عن الفعل والتأثير في المصائر العامة .

لقد طرح عليّ المكان أسئلة في خصوص «الهوية» التي ظهرت لي مهددة بفيض غامر من المهاجرين الذين يبلغ عددهم نحو أربعة أضعاف عدد سكانه الأصليين ، كما طرح أسئلة عن ضعف (إن لم يكن انعدام) مشاركة هؤلاء القادمين ، من كل فج عميق ، في صنع حراك اجتماعي وثقافي يغني المكان ويجعل لحياتهم معنى يتجاوز ورطة العيش المؤقت .

بدا لي المكان ، أول وهلة ، مجرد مخيم عمل كبير . بل أكبر

«مخيم» عمل في العالم .

هذا ما أثار انتباهي أكثر مما عداه ، وجعلني أكتب بضع مقالات متفرقة لم تشكل ، في مجملها ، سياقا لفهم المكان وقاطنيه .

أهذا ما جعلني أمرّ بأبو ظبي مرور الكرام؟

أم لأنني جئت إلى المكان محملاً بتصورات غير محايدة حياله ، تصورات مسبقة نسجها الخطاب الثقافي العربي الشائع حيال منطقة الخليج المتراوح بين حديّن قاطعين : النفط والاستهلاك ، بحيث بدا المكان وأهله مجردين من أي بعد ثقافي . فالخليجي ، يتراءى في هذا الخطاب المتعالي ، مجرد جيبة منتفخة بالنقود! حتى هذا الاسم الذي نخلعه عليه (خليجي) يبدو فاقداً للأصل والهوية حيناً وذا نبرة فوقية حيناً آخر . لا نفرق كثيراً ، على ما يبدو ، بين النفط وبين الناس ، بين النخب العائلية الحاكمة وبين المحكومين . ليست كل جيوب «الخليجيين» منتفخة . هذا «تنميط» ساذج ، أو ماكر ، نحاربه عند «الآخر» ونتداوله ، بسهولة ، بيننا . فمن نافل القول إن أموال النفط لا تصب في جيوب جميع «الخليجيين» .

أتساءل ، هنا ، لماذا لم يكن لقائي بالمكان العُماني ، وهو مكان «خليجي» أيضاً ، مماثلاً بلقائي أبوظبي؟

بلى . . كان .

خصوصاً في «مسقط» الحديثة .

ولم يتغير هذا الانطباع إلاّ عندما رحت أضرب في داخلة

عُمان ، في «نزوى» ، «الجبل الأخضر» ، تحت أنظار سلسلة «جبال الحجر» التي تحلق في قممها الكواسر . عندها ، فقط ، استطعت أن أرى وجه المكان العُماني ، طبيعته التي تستعصي على يد القبح والعبث ، وأن أستمع إلى أصواته غير المختلطة بهجنة ورطانة لا يمكن أن يكونا في عداد الكوزموبوليتية ، لأن الأخيرة لحظةٌ لتقاطع الأصوات ، لتجاورها ، لا لكتمها أو تراكبها صوتاً فوق صوت ، كما هي حال الحواضر الخليجية اليوم .

فهنود وباكستانيو لندن (على سبيل المثال) الذين أقيم بين ظهرانيهم في حي «هانسلو» بالقرب من مطار «هيثرو» ، لا يشبهون هنود وباكستانيي معظم البلدان الخليجية الذين يشكلون قوة العمل العضلية الرئيسية فيها .

فهم في لندن يكادون أن يسيطروا ، بعد طول عمل وتراكم ، على قطاع الأعمال الصغيرة ، كما أنهم ارتقوا في السلم الطبقي درجة قريبة من الطبقة الوسطى ، بينما يحتل معظم أبناء جلدتهم في الخليج العربي أدنى درجة في هذا السلم .

إنهم نوع من البروليتاريا الرثّة على حد التوصيف الماركسي للتركيب الطبقي .

قد يكون الجيل الأول من مهاجري شبه القارة الهندية شكلوا مثل هذه الشريحة الاجتماعية في بريطانيا ، ولكن الجيل الثاني والثالث منهم لم يعودوا كذلك .

فبينهم ، اليوم ، التاجر والمحامي والمحاسب والإعلامي والنائب البرلماني والممثل ، بل إن فيهم من الكتّاب من يشكل رافداً أساسياً

في المدونة الأدبية المكتوبة بالإنكليزية مثل سلمان رشدي وحنيف قريشي وطارق علي ونديم أسلم ومونيكا علي وعامر حسين وميرا صايل . . إلخ .

إنهم شريحة اجتماعية واقتصادية يحسب لها حساب انخرطت ، بصعوبة بادىء الأمر ، في المجتمع البريطاني . تعلمت لغته وتدرجت في نُظمه وحازت حقوقاً تحاول توسيع رقعتها باستمرار .

مدينة عملاقة ، فقط ، كوزموبوليتية ، حقاً ، مثل لندن ، تسمح بمثل هذا التعدد والترقي في السلم الاجتماعي ، وهذا مثال ينطبق ، بدرجة أو أخرى ، على المهاجرين من الكاريبي أو إفريقيا أو الصين .

والأمر لا يتعلق بالترقي الطبقي ، أو الحضور الاقتصادي الملموس للمتحدّرين من شبه القارة الهندية في بريطانيا ، بل بالحضور الثقافي أيضاً ، ولم ألمس مثل هذه الكوزموبوليتية في الخليج العربي رغم أن عمر الجاليات الأجنبية فيه ، خصوصاً الآسيوية ، يرجع إلى أواخر القرن التاسع عشر . فمن النادر ، مثلاً ، أن تجد «آسيوياً» ، في بلدان الخليج ، يتحدث العربية بطلاقة وإفهام ، ناهيك ، بالطبع ، عن انخراطه في الحياة الثقافية أو السياسية لتلك البلدان . . أو الكتابة باللغة العربية .

كوزموبوليتية الخليج العربي هي كوزموبوليتية وجوه مغلقة وأصوات تنكفئ إلى داخلها . أصوات لا تكاد تُسمع ؛ ووجوه لا تكاد تُلمح رغم أنها الكثرة الكاثرة .

ولكن هل سيبقى هذا الوجود الآسيوي ، الذي يشكل أكثر من ٦٠ في المئة من عدد السكان ، صامتاً ، بلا قول أو استحقاقات اقتصادية وسياسية وقانونية؟

أشك في ذلك ، خصوصاً ، إذا عرفنا أن العالم يعيش ، حقاً أو باطلاً ، عصر حقوق الإنسان ، حيث جرت ، وستجري ، تدخلات مباشرة في حدود سيادة الدولة تحت هذا الشعار البراق .

وهذه نقطة سأعود إليها ، لاحقاً ، مسلحاً بأرقام ومعطيات مؤرقة ، على هذا الصعيد ، أنجزها باحثون خليجيون .

# شاهد على المدينة القديمة

ثمة ذكرى قديمة ، غائمة ، لأبوظبي ظلت تراودني وأنا أتجول بين الأبراج الحديثة المتطاولة في الفضاء . . إنها صورة لمدينة صغيرة ذات كورنيش طويل يطل على بحر وأشجار نخيل متفرقة وأعشاب ذات خضرة عليلة بين حارات الشوارع . . وفي قلب هذه الذكرى القديمة صورة لمطعم ـ مركب في البحر تناولت فيه سمك «سلطان إبراهيم» و«تبولة» وبطاطا مقلية . . أعادت إليَّ ذكرى مطاعم البحر البيروتية : «الغلايني» ، «دبيبو» ، «الروضة» . . و«مطعم السلطان إبراهيم» ذاته على شاطئ الأوزاعي .

تلك الذكرى الشاحبة تعود إلى ثماني عشرة سنة خلت ، عندما زرت ، مصحوبا بأبي وأمي ، قريبا لنا يعمل في أبو ظبي . كنت وقتها أقيم في قبرص وجئت في زيارة لأهلي المقيمين في إمارة «أم القوين» الشمالية الفقيرة . أمضينا يوماً وليلة في ضيافة أقاربنا الذين أخذونا للتنزه ، مساء ، على الكورنيش حديث البناء ، ثم تعشيت مع الصديق الكاتب أحمد كلش في مطعم «أبو طافش» الذي يتخذ من قارب قديم مقراً له على البحر .

قليلة هي الشواهد المادية التي تدل على مدينة أبوظبي

الحديثة . . أي المدينة التي نشأت مع بدايات تدفق النفط والتحولات الاجتماعية والاقتصادية التي نقلتها مما يشبه القرية إلى الحداثة العمرانية المطردة . الهدم والبناء هما من آفات الأمكنة الخليجية حديثة النشأة ومن ضمنها أبو ظبي . لكن هناك مطعماً يمكن اعتباره شاهداً مادياً ومعنوياً على المدينة . تغيرت المدينة كثيراً ولم تتغير «صيغة» هذا المطعم . فقد ظل يتخذ من قارب راسٍ على الشاطئ مقراً له . تغير القارب ، أيضاً ، أكثر من مرة ، وتغير موقعه على الشاطئ بسبب العمران الذي زحف عليه بشدة ولكنه ظل يحتفظ بالصيغة الأولى التي عرفها رواده القدامى .

الكاتب والمترجم الفلسطيني صلاح صلاح الذي يقيم في الإمارات منذ نحو خمس وعشرين سنة عرف التغيرات التي طرأت عليه . أخبرني صلاح ، في زيارتي السابقة لأبوظبي ، طرفاً من حكايته . قال إنه مملوك لرجل فلسطيني حطَّ رحاله في أبو ظبي في أواخر ستينات القرن الماضي ، ولم يكن في «المدينة» مطاعم كما هي عليه الآن ، فتفتق ذهن الرجل عن هذه الفكرة المبتكرة : مطعم عائم! وقد اتخذ ، لهذا الغرض ، من مركب قديم مطعماً على الشاطئ قبل أن تكون هناك منشآت ، يعتد بها ، على إطلالة أبوظبي على المياه . ويبدو أن الفكرة المبتكرة في بلدة صغيرة مثل أبوظبي ، قبل نيلها الاستقلال وتدفق النفط بهذه الغزارة ، اجتذبت أنظار العائلة الحاكمة ونخبة المال والسياسة في الإمارة ، فصاروا يترددون إلى المطعم العائم المختص بالمأكولات البحرية والمازة اللبنانية . يروي صلاح صلاح : هناك من يقول إن صاحب المطعم

لم يكن يسمى «أبو طافش» وإن الاسم خلعه عليه الشيخ زايد شخصياً عندما جاء أكثر من مرة إلى المطعم ولم يجد صاحبه . . فقد كان الرجل «طافشاً» من المطعم لأمر ما ، فسماه «أبو طافش»!

لم أتمكن من المطابقة بين موقع المطعم في ذاكرتي وموقعه الحالي . أتذكر أنه كان بالقرب من ميناء . ويبدو أن المطعم غيَّر موقعه ، فعلاً ، أكثر من مرة . وهذا ما أكده لي جمال المجايدة الذي تغديت معه في المطعم - المركب في زيارتي الحالية . لم يكن «أبو طافش» موجوداً في المطعم . كان «طافشاً» ، أيضاً ، ولكن على جدران المركب كانت هناك صور لشخصيات سياسية مرت به : صور قديمة للشيخ زايد ، لأفراد من العائلة الحاكمة ، لياسر عرفات إلخ . .

قال جمال : معك حق . موقع المطعم - المركب تغير مرتين على الأقل ، فقد كان أساساً في منطقة «الخالدية» ، ثم انتقل إلى منطقة «البطين» . . بالقرب من ميناء الصيادين . وهذا التغير يعكس تمدد العمران وانتشاره على الشاطئ ، بحيث لم تعد هناك بقعة خالية لمطعم عائم . فهذه الإطلالة على المياه ثمينة جدا وكثير من المستثمرين يتنافسون عليها .

أخبرني جمال المجايدة أن صاحب المطعم رجل من مدينة الخليل الفلسطينية حط رحاله في أبوظبي في أواخر الستينات وأنشأ هذا المطعم . وهو فعلا يدعى «أبو طافش» . أخبرته حكاية الاسم التي سمعتها من صلاح صلاح فضحك جمال ، الذي فوجئ بأصل التسمية ، وقال : للرجل ابن يدعى «طافش» ، وأنا

أعرفه . . ولكن مهلاً ، يستدرك جمال المجايدة ، ثم يقول : ربما سمَّى الرجل ابنه «طافش» بسبب اللقب الذي خلعه عليه الشيخ زايد . ربما اعتبر هذه التسمية ، رغم أن قلة يسمون أبناءهم بهذا الاسم الغريب ، فألاً حسناً . سآتيك بالخبر اليقين من «أبو طافش» نفسه . لكن جمال لم يرجع إليّ بالخبر ، لكي تظل «خبرية» الاسم جزءاً من «أساطير» تنشأ ، على هذا النحو ، وتتداولها الألسن من دون التيقن من حقيقتها . سأكتشف ، لاحقاً ، أن اسم «أبوظبي» نفسه لا يقل «أسطورية» ، في مرويات الناس هنا ، عن اسم «أبو طافش» .

وأياً كان اسم الرجل ، وأصل هذه التسمية ، فهو بالتأكيد لم يكن قادراً على مواصلة نقل مركبه من مكان إلى آخر على شاطئ أبو ظبي ، لولا أنه حظي بدعم من الشيخ زايد . وقد علمت من جمال المجايدة ، الذي يعرف بعض أسرار المدينة بسبب عمله مع إبراهيم العابد الرجل المقرّب من العائلة الحاكمة ، أن الشيخ زايد هو الذي منحه ترخيص المطعم ، ففي أواخر الستينات ، لم تكن هناك تراخيص بكل معنى الكلمة . ولعل أمر «رخصة» استثمار موقع على الشاطئ لفظي ، مجرد كلمة من شيخ الإمارة . فالشاطئ الذي يرسو فيه المركب هو أرض حكومية . لكن جمال ، الذي رافق التغيرات التي عرفتها أبو ظبي في العقدين الأخيرين ، يشك بقدرة «أبو طافش» على البقاء ، في صيغته الحالية ، بسبب اندفاعة الاستثمار القوية صوب كل شبر من شاطئ الجزيرة ، فقال لي : هناك ، الآن ، مشاريع عقارية وترفيهية كبيرة ، مثلما هو حاصل في دبي ، ستنفذ على الشاطئ بحيث ستتغير صورته الحالية نهائياً ،

ولن يكون بمقدور أعمال صغيرة ، كمطعم «أبو طافش» ، الصمود أمام استثمارات بعشرات المليارات من الدراهم تتنافس للاستحواذ على ما تبقى من مساحات خالية على الشط .

# قصر الحصن

من أين يمكن للمرء ، اليوم ، أن يعرف أبو ظبي؟

قلت لنفسي : من أقدم بناء في المدينة .

أي من «قصر الحصن» .

وهذا ما سأفعله فور وصولي إلى أبوظبي .

سأترك ، الآن ، كل ما هو حديث في المدينة ، وأتوقف عند «قصر الحصن» الذي لولا كونه مقر الشيوخ الذين تعاقبوا على حكم أبوظبي لربما ابتلعته آلة التحديث ، تجارية الطابع ، التي لا تتوقف عن القضم والهضم واللفظ .

عكس معظم مقرات الملوك والسلاطين العرب القدامى والحديثين ، المأهول منها أو الذي تحول متحفاً لآثار الماضي ، لا يكتسب «قصر الحصن» ، على ما يبدو ، أهمية رمزية كبرى في سردية بناء الإمارة ولا في نظر أولي الأمر في أبوظبي اليوم .

ليس هناك تعظيم من شأنه .

ولا تباهٍ بأمجاده .

ليس مردّ ذلك ، في ظني ، كونه لا يملك أمجاداً ذائعة الصيت ، بل لعل الأمر يتعلق بفكرة التعظيم التي لا تقاليد لها

هنا . لا تراكم . لا جذور . فالحكم ، في أبوظبي ، ما زال قريباً من نشأته الأولى . وآية ذلك أن الحاكم لم يبرح كنيته القديمة : الشيخ .

وهذه كنية تحيل إلى القبيلة ، كشكل تنظيمي أول ، أكثر مما تحيل إلى المُلك بالمعنى الذي يجمع أشتاتاً من الطبقات والشرائح الاجتماعية ، التي تتكون منها النظم ملكية كانت أم جمهورية ، ويصهرها في بوتقته .

ثم إن الزوال جزء من فلسفة الصحراء التي لم تعرف أثراً باقياً ، غير ما يتركه المترحلون من آثار تعصف بها الريح أو تطمرها الرمال .

الزوال ، وليس البقاء ، هو فلسفة الصحراء .

والصحراء قوية ، حاضرة ، وجاثمة في خلفية المشهد هنا ، رغم الأبراج الزجاجية ، رغم الأشجار المزروعة بالقوة ، رغم مياه البحر المحلاة ، ورغم محولات الكهرباء التي تضخ حركة في العمائر والمحال والفنادق الكبرى .

ولأن الحصن لا يملك هذه الرمزية الكبرى ، ولأن البلد لا يتوافر على سردية متماسكة ، فلم يخلق حوله مجالاً من الحرمة يمنع الاقتراب منه أو التطاول عليه ، مثلما هو الحال في قصور وأوابد الأسرة المالكة في المغرب ، مثلاً .

هذا ما يبديه موقعه الذي حاصره البناء الحديث من كل جانب وتطاول عليه كل تطاول .

كان هذا القصر تقريباً ، هو البناء الحجري الوحيد في أبوظبي حتى فترة الخمسينات من القرن الماضي ، وكانت تمكن مشاهدته

من أي وجهة قصد الزائر تلك البلدة الصغيرة ، خصوصاً ، من البحر .

لكنه اليوم يكاد لا يُرى . . إلا إذا بحثت عنه .

نقطة واحدة تجعل لموقعه اليوم معنى خاصاً ، آمل أن يكون مقصوداً ومتواصلاً : اقترانه في المجال بـ «المجمع الثقافي» الذي هو بؤرة النشاط الثقافي في البلاد ، والمتنفس الروحي الوحيد في المدينة خارج اللهاث المتسارع لحركة العمل والمال والاستهلاك ورفع الأبراج الزجاجية في فضاء مشبع بالرطوبة الخانقة .

***

لم أنتبه وأنا أدخل «المجمع الثقافي» إلى وجود الحصن ، فهو يحتل ركناً منزوياً في المكان لا يدخل منه زائر «المجمع» . كان علي أن أخطو خطوات قليلة خارج الحركة التي تدب في «المجمع» في فترتي الصباح والمساء . . لأجد نفسي أمام حصن أبيض لا حركة داخله أو حوله . نقلني طراز البناء ، فوراً ، إلى معمار الحصون العربية التقليدية . وهو ، بذلك ، يتميز تماماً عن «المجمع الثقافي» الكونكريتي القريب منه ، وكذلك عن العمائر المحيطة التي تسدّ عليه الفضاء .

ليس أمام الحصن لافتة ترفع اسمه ولا لوحة مكتوب عليها نبذة من تاريخه ، بل قرأت اسماً آخر على بناء ملاصق له تماماً ، ولا أظن أنه من أصله : «المجلس الوطني الاستشاري» .

ثمة أمام الحصن مدفع قديم منصوب على قاعدة ، يبدو أنه من مخلفات الفترة التي كان فيها الحصن قصر المشيخة . وعندما

خطوت إلى الداخل رأيت مدفعاً آخر أصغر حجماً يعلوه الصدأ .

واضح أن الحصن تعرض إلى ترميم شامل .

حُسن هيئته وجدة صباغات أبوابه تشيران إلى ذلك .

إنه يبدو في حالة جيدة ، كأنه بني اليوم وتُرك في رعاية الصمت الذي يعزز مهابته وغموضه . بوابته الخشبية السميكة ذات المزلاج الأسود الثقيل والنتوءات الفولاذية الحادة كرؤوس الرماح هي التي تعطي ، رغم صبغها بأدهنة مقاومة لعوامل الاهتراء ، الانطباع بالزمن الذي بني فيه ، كذلك عِظَم جدرانه ونوافذه الخشبية ومساقط الضوء ومساحات الظلال المنتزعة من قبضة شمس شرسة .

أخيراً ، قلت ، هذا بناء قديم في أبوظبي .

هذا شيء من الماضي ظل موجوداً .

ولأني قرأت شيئاً عن تاريخ الحصن قبل زيارتي إليه ، عرفت أنه تعرض إلى أكثر من عملية توسيع وترميم ، لعل آخرها كان أيام الشيخ «شخبوط بن سلطان» شقيق الشيخ زايد والحاكم السابق عليه ، وذلك عندما بدأ ينعم بأول هِبَات النفط .

تذكرت الرحالة الإنكليزي الشهير «ويلفرد ثيسغر» الذي زار الشيخ «شخبوط» في الأربعينات وسجل انطباعات إيجابية عن ذلك اللقاء ، تتناقض مع التقارير الرسمية البريطانية عن الشيخ «شخبوط بن سلطان» التي تصوره شخصاً متزمتاً و كارهاً للأجانب .

فقد احتفى شخبوط بـ «المسيحي» ثيسغر احتفاءً حقيقيا ،

حيث أسكنه ، مع رفاقه من «الراوشد» ، في بيت كبير يقع بالقرب من السوق ، وأفرد له خدماً يقومون بما تتطلبه أصول الضيافة البدوية ، وكان يزوره مع بعض إخوته وأقاربه من الشيوخ في هذا البيت لتجاذب أطراف الحديث .

وصْفُ «ثيسغر» للشيخ شخبوط ينطوي على الود أكثر من انطوائه على المجاملة ، فالرحالة الإنكليزي لم يكتم مشاعره السلبية تجاه أشخاص لم يشعر معهم بالراحة في أبوظبي أو غيرها من الأمكنة التي زارها . والواضح ، من هذا الوصف ، أن «شخبوط» ترك انطباعاً إيجابياً عند «ثيسغر» .

لافت للنظر أن «شخبوط» كان متصلاً بالأحداث التي كانت تجري في المنطقة العربية ومتابعاً لها ، ورغم كره «ثيسغر» لحديث السياسة ، شأنه في ذلك شأن العديد من الرحالة الغربيين ، إلاَّ أنه أشار ، على نحو عابر ، إلى تطرق الحديث بينه وحاكم أبوظبي ، إلى الحرب في فلسطين والنقد العنيف الذي وجهه «شخبوط» لليهود .

لا يتوسع «ثيسغر» في هذا الجانب ، فهو لم يول الحرب التي كانت تدور رحاها في فلسطين سوى سطر واحد ، لا أدري كيف نجا من الحذف التلقائي الذي كانت تمارسه ذاكرته تجاه ما يرتبط بشؤون الحاضر وشجونه . . فكل ما ليس له علاقة برحلته المستهامة بالصحراء لم يهدر عليه قطرة حبر واحدة!

الصورة القلمية المقتضبة التي يقدمها «ثيسغر» للشيخ شخبوط بن سلطان ليست ، بالضرورة ، الوجه الوحيد لشخبوط ، فليس مستبعداً أن يكون لـ«كرهه» الأجانب علاقة بالنفوذ البريطاني

المتزايد في شؤون إمارته . وهذا أيضاً لا يثير قلم الرحالة الإنكليزي «الممسوس» بالصحراء . فهو لا يتطرق كثيراً إلى «الدور» البريطاني في تلك المنطقة رغم أنه كان «مبعوثاً» رسمياً لـ «مكافحة الجراد»!

فما أعرفه عن «شخبوط» ، من القراءات والأحاديث مع بعض «الإماراتيين» ، أنه كان يرتاب من الرسميين الإنكليز ، الذين لم يمحضهم ثقته ذات يوم . فقد كان يتطير منهم ، ومن حضورهم المتعاظم في بلاده ، خصوصاً ، بعد اكتشاف النفط ، حتى إنه قال لهم (على ذمة كتاب «قصر الحصن» الذي يؤرخ لإمارة أبوظبي ، انطلاقاً من الوثائق والكتابات البريطانية والغربية) ذات يوم : خذوا نصف النفط واتركوا نصفه تحت الأرض وارحلوا!

ويبدو أن «شخبوط» كان يتمتع بـ «مواهب» بدوية في التسويف مع شركات النفط البريطانية كادت أن تفقدها أعصابها ، رغم برودة أعصاب الانكليز . فقد ظل يماطل في توقيع اتفاق نفطي بعيد المدى مع شركات البترول البريطانية (إما لرفع المبلغ المعروض أو لتأجيله) ما أمكنه ذلك . لكنه «اقتنع» عام 1939 بتوقيع عرض للتنقيب عن البترول واستخراجه لمدة خمس وسبعين سنة . ولم يكن ذلك بلا ضغوط كبيرة مارسها عليه البريطانيون الذين كانوا يهيمنون على ساحل الخليج . ومع بداية التنقيب عن النفط ظهرت ، كما يقول «كتاب الحصن» ، حقيقة لم تكن في الحسبان ، تتمثل في «تداخل» الحدود بين إمارة أبوظبي وجوارها ، وبالأخص ، السعودية ، الجارة الأكبر والأقوى في المنطقة . ويبدو أن الخلاف تمحور ، تحديداً ، حول «سبخة مطي» و«خور العديد» . . .

ستؤجل الحرب العالمية الثانية التي كانت قد اندلعت هذه الخلافات إلى حين ولكنها ستثور مع انتهاء الحرب ، وسيكون على أخيه الشيخ زايد مواجهة استحقاقاتها الصعبة .

مشكلة «شخبوط» مع شركات النفط ، التي أخذت تنتشر في إمارته وتثير ضده قوى قبلية رأت فيها تهديداً لسيادتها وأنماط حياتها ، لم تكن ، أغلب الظن ، في عروضها المالية المتدنية ، بل في التأثيرات التي راحت تحدثها في قلب حياة بسيطة .

كان العالم الذي عرفه «شخبوط» ، وألفه ، قد بدأ يتغير سريعاً .

لعله رأى المال ، بهذه الوفرة ، بهذا التدفق ، مَفْسَدة .

بهذا كان يتوافق ، ربما من دون أن يدري ، مع «ثيسغر» الكاره ، بدوره ، لأي تحديث أو تغيير في الصحراء وأساليب حياة أهلها .

تذكرت صورة فوتوغرافية لـ «شخبوط» رأيتها في كتاب «وجوه من الإمارات» لرونالد كودراي صاحب سلسلة «الألبوم العربي» ، يظهر فيها رجلاً بسيطاً ، بل قل بدوياً ، يرتدي كوفية ملونة وعقالاً وعباءة تحتها سترة ، أو صدرية ، فوق دشداشة بيضاء تظهر ، لقصرها ، جواربه الداكنة وحذاءه المغبرّ القديم ، يتزنر بخنجر معقوف ، على الطريقة اليمنية والعُمانية ، يصل إلى صدره ويحمل بيده ما يشبه العصا .

هذه صورة شهيرة لشخبوط ، التقطت في مناسبة مهمة : تدشين حقل نفطي في «رأس الصدر» في 16 شباط (فبراير) عام 1950 .

أستطيع أن أرى في خافية الصورة برجاً حديدياً لعله على علاقة بالحقل النفطي الذي سيكون فاتحة لسلسلة من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ستعصف بـ«شخبوط» نفسه بعد حين ، وتنقل الإمارة البسيطة من حال إلى حال .

إذا كنت ممن زاروا عُمان ، مثلي ، سيذكرك «قصر الحصن» بحصون «مسقط» و«نزوى» ، وذلك لتشابه طراز البناء ، ولكن الحصون العُمانية أكثر ضخامة ومهابة وتعكس صورة لدولة تاريخية قوية . ولعل هذا الفارق يعكس ، أيضاً ، نشأتين مختلفين للمُلك ، إحداهما ذات فاعلية تجاوزت المكان وأثرت في المحيط ، كما هو حال عُمان في لحظتها الإمبراطورية ، فيما لا تخفي الثانية تواضع الدور والإمكانات .

لم تكن نشأة السلطة في أبوظبي ، مماثلة أصلاً لنشأتها في عُمان ، ولا طبيعة البلدين متشابهة تماماً . رغم وجود العديد من القواسم المشتركة بينهما ، فالسلطة في عُمان قامت على عصبية دينية متمايزة عن محيطها هي «الإباضية» بينما قامت في أبوظبي على عصبية قبلية . كذلك تزخر عُمان ، بتنوع بيئي وجغرافي وتتوافر على مصادر حياة لا تقاس بصحراء أبوظبي التي لم تكن تعرف سوى عدد محدود من الواحات المتنازع عليها بين القبائل .

استمرار الحياة وانبثاق شكل سلطوي في أبوظبي قاما على أساس مزيج من القوة التي يوفرها تحالف قَبليٌّ متماسك ، والتوازن بين أربع قوى أساسية في المنطقة هي : إمام عُمان ، القواسم ،

الوهابيـة الطالعـة بقـوة من نجـد ، والإنكليـز الذين يسـيطرون على الساحل .

ولكن رغم هذه الفوارق فإن التداخل بين ما هو عُماني وما هو إماراتي أكبـر من أن يُحصر في بناء الحصون ، يكفي أن نعـرف أن هذا الساحل كان يسمى يوماً «ساحل عُمان» .

قـبل هذا اليـوم المؤرخ على الصورة بثمـاني سنين قـام الشـيخ «شخبوط» ، عندما تسلم من الشركات البريطانية التي كانت تنقب عن البتـرول ولقاء تأجير مطار للإنكليـز ، مبلغ ١١٥,٠٠٠ روبيـة ، ببناء حصـن ضـخم خـارج الحـصن الأصلي وأضـاف إليـه أجنحـة سكنية لعائلته ، بينما ترك المباني القديمة للتخزين والمؤن والخدم . . رغم أن «عاصمته» راحت تخلو ، تدريجاً ، من سكانها تحت ضغط الضائقة الاقتصادية التي شهدتها الإمارة ، حيث هاجر عدد كبير منهم إلى قطر التي كانت أكثر ازدهاراً ، آنذاك ، من أبوظبي .

إذن هذا هو الحصـن الجديد الذي بناه شخبوط عام 1942 .

# إلى «ليوا» بحثا عن الأصول

قلت لمحمد السويدي الذي يعرف رغبتي في الكتابة عن نشأة المكان الظبياني وتطوره : لقد وجدت النقطة التي أبدأ منها كتابتي عن أبوظبي . . إنها «قصر الحصن» .

فقال السويدي : الحصن مهم ولكن «ليوا» أهم .

قلت له : لماذا «ليوا» ؟

فقال : لأنها البداية . . فمن هناك انطلقت خطى الرواد الأوائل الذين أسسوا أبو ظبي .

اقترح السويدي ، لهذا السبب بالذات ، أن نقوم برحلة إلى «ليوا» .

غادرنا أبو ظبي بثلاث سيارات ذوات دفع رباعي إلى مركب قرب «سوق السمك» حيث تناولنا غداءنا بصحبة ضيوف معرض الكتاب العرب .

لكن عجلة المغادرة لا تعني سرعة الانطلاق إلى «ليوا» التي كنت متلهفاً للوصول إليها . فللحياة ، في أبوظبي ، إيقاع خاص يبدو أنني لم أعتده من قبل . . تصورت أن الغداء سيكون على الماشي . . غير أنه لم يكن كذلك . . كان غداء كامل الأوصاف .

كان المركب الذي سنتناول فيه غداءنا مطعماً لبنانياً .

فمعظم المطاعم العربية في أبوظبي لبناني .

إما أن أصحابها لبنانيون مع شركاء إماراتيين ، حيث ينص القانون في الإمارات على أن يكون للمستثمر الأجنبي كفيل أو شريك محلي ، أو إماراتيون .

والمطبخ اللبناني هو المفضل ، ليس في الإمارات وحدها ، بل في عموم المشرق العربي وذلك بسبب تنوعه من جهة وقدرة اللبنانيين الفائقة على تسويق منتجاتهم وخدماتهم وتقديمهما بصورة براقة ، فهم يأتون من بلاد لا تزال تبتكر ، رغم توالي الحروب فيها ، أفكاراً خلاقة وتعرف تراكماً طويلاً في عالم الخدمات .

كان البحر صافياً .

الشمس تعكس فيضاً من الأشعة والوهج على صفحته الزرقاء .

بحر بدا نظيفاً وشفافاً إلى درجة يمكنك معها رؤية أعماقه ، رغم أن الخليج العربي يعتبر واحداً من أكثر بحار العالم تلوثاً بسبب الآبار ، والأنابيب ، والمصافي والناقلات التي تسحب من أعماقه ، وبواسطة مياهه ، نحو نصف الإنتاج العالمي من البترول ، إضافة ، بطبيعة الحال ، إلى حربي الخليج الأولى والثانية اللتين تركتا عشرات السفن والناقلات المدمرة غارقة في مياهه الضحلة . فالخليج العربي بحيرة داخلية أكثر من كونه بحراً مفتوحاً ، حيث تتجدد مياهه ، حسب التقديرات العلمية ، مرة كل خمس وعشرين سنة . . ولكن رغم ذلك فإن شواطئ أبوظبي نظيفة ، بسبب كفاءة

العمل البلدي . فنادراً ما ترى في شوارع المدينة وكورنيشها الطويل نفايات ، فالعمال الآسيويون لها بالمرصاد .

البحر هادئ تماماً إلى درجة لا تشعر فيها أنك في مركب .

أمامنا جانب من أبوظبي .

ناطحات السحاب الصغيرة بواجهاتها الزجاجية تعطيك انطباعاً بأنك أمام ديكور نيويوركي .

ناطحات سحاب ذات واجهات متعددة الألوان .

وبحر أزرق بلا موجة واحدة .

وسماء عميقة كأنها امتداد لا نهائي للبحر .

وصحراء .

بدا لي الأمر ، كله ، سلسلة من اللقطات في فيلم صامت .

حتى حركة الندل وهم يصعدون إلى سطح المركب حاملين معهم أطباقاً شتى من المازات اللبنانية ثم يتوارون في جوف المركب لم تهزّ هذه اللقطات الثابتة . كان سطح المركب مصمماً على شكل مجلس إماراتي : أرائك طويلة منجّدة بقماش ملوّن سميك . الإماراتيون خلعوا صنادلهم وشمروا دشداشاتهم واعتلوا الأرائك كأنهم في بيوتهم تماماً . كان معنا ثلاث نساء عربيات من ضيوف معرض الكتاب بدا وجودهن ، بين هذه الجمهرة الرجالية ، غريباً . فالنساء الإماراتيات لا يختلطن بالرجال إلا في نطاق محدود ، كما تحرص العربيات المقيمات في هذا البلد على أن يكون اختلاطهن بالرجال ، خارج العمل ، محسوباً ، كيلا يعطين انطباعاً مغلوطاً عن أنفسهن ، خصوصا ، في ظل الانفتاح المتسارع الذي تشهده البلاد

على سياح وسائحات يأتون من كل فج عميق . بعض هؤلاء يأتي للسياحة التي يوفرها البحر والمناخ الحار وفنتازيا الصحراء والطعام المتنوع والبضائع المعفاة من الرسوم الجمركية ، والبعض الآخر يهبط ، بحجة «السياحة» ، تحت الأرض ليمارس أقدم مهنة في التاريخ . . وهذا مظهر صار بالإمكان ملاحظته بوضوح في ردهات الفنادق والنوادي الليلية .

مضى وقت طويل على إقامتي في أمكنة لا تعرف هذه الحواجز بين الجنسين . . حتى في الأردن ذي القيم البدوية والفلاحية الغالبة على سكانه ، ليس هناك فصل حاد بين الرجل والمرأة . الفصل الاجتماعي هنا موجود بحكم طبيعة الثقافة المحافظة ، ولكنه ليس فصلاً قانونياً . ففي الإمارات ، على سبيل المثال ، اتحاد نسائي يشارك في الأنشطة النسائية العربية والدولية . وهذا الشكل من العمل النقابي غير موجود في الكتلة السكانية والجغرافية والسياسية الأكبر في شبه الجزيرة العربية : السعودية ، بل دونه خرط القتاد .

فوجئت ، في الواقع ، بمستوى حقوق المرأة في نصوص دستور الإمارات ، فمن بين حقوق المرأة التي يكفلها الدستور : حق العمل ، والضمان الاجتماعي ، والتملك وإدارة الأعمال ، والتمتع بخدمات التعليم في جميع مراحله ، والرعاية الصحية والمساواة في الأجر مع الرجل .

كما أن المرأة في الإمارات تستطيع قيادة السيارة!

***

استغرقت الرحلة من أبوظبي إلى «ليوا» نحو ساعتين ونصف الساعة على طريق إسفلتية عريضة محاطة بسياج من الأشجار (أبرزها النخيل) على الجانبين .

خضرة بدت لي مستنبطة ، بالقوة ، من رحم الصحراء .

فهي تسقى بالمياه بطريقة التنقيط ، ويمكن للمرء أن يلمح من شباك السيارة خراطيم المياه السود تتمدد ، كأفاع كسولة ، بين الأشجار .

سألت محمد السويدي الذي كان يقودنا بسيارة «ليكزس» طحينية اللون ذات دفع رباعي : بأي مياه تُسقى هذه الأشجار البعيدة عن أي تجمع بشري؟ فقال إنها تسقى ، على الأغلب ، بمياه البحر المُحلاة . لم يكن متأكداً تماماً . لم تكن الرحلة إلى «ليوا» اكتشافاً لنا فحسب ، بل هي ، إلى حد ما ، اكتشاف ، للسويدي نفسه الذي لم يزرها ، كما أخبرنا ، منذ نحو عشرين سنة . سأل محمد السويدي مرافقه الصامت «شعيب» ليتأكد متى كانت آخر مرة زاروا فيها «ليوا» ، فأكد له أنها عشرون عاماً .

لا يحتاج الزائر وقتاً طويلاً ، بعد أن يغادر أبوظبي ، ليجد نفسه محاطاً على مدى النظر بالصحراء ذات الكثبان الصفراء ، المائلة إلى الحمرة ، أحياناً ، بسبب أكاسيد الحديد . عرفت أمر حمرة الرمال المحير من فيلم وثائقي عن صحراء «كاليهاري» في ناميبيا ، أقدم صحراء في العالم . كانت كثبان الرمل تتموج أمامنا كما لو أنها أمواج بحر . ولكنها أمواج كامنة ستحركها يد الريح غداً أو بعد غد . لم تصادفنا ، طول الطريق ، تجمعات بشرية يعتد بها . السيادة

للرمل والفراغ ، لكن أعمدة الكهرباء والهاتف ظلت تتواصل في قلب هذا الفراغ ، مؤكدة أن الصحراء ، تلك المتاهة الكبرى ، لم تفلت من آليات ربط وتحكّم تديرها الدولة الحديثة من مكاتبها البعيدة المكيّفة .

كذلك كانت حركة مرور السيارات ، في الاتجاهين ، محدودة . الوقت عصراً .

الشمس لا تزال راسخة في السماء تواصل تسخين كل شيء . . لكن حرارتها في هذا الفصل بالذات محتملة ، بل مرغوبة ، في الأقل ، بالنسبة لي .

المكيّف في سيارة محمد السويدي «اللكزس» يعمل في صمت بفضل التكنولوجيا اليابانية المتطورة .

طلبت منه أن يوقفه لنستمتع بالهواء الذي يهبُّ من البرِّ .

كان لدي سبب آخر لوقف المكيف وفتح الشبابيك : التدخين!

التجمع البشري الوحيد الذي مررنا به قبل وصولنا إلى «ليوا» هو «مدينة زايد» ، عاصمة المنطقة الغربية ، التي تبدو كأنها مشروع إسكان حكومي ، لا مدينة نشأت ، كما تنشأ المدن بالتدريج والتراكم .

البيوت متشابهة .

لا ناطحات سحاب على غرار أبو ظبي ، ولا بنايات بواجهات زجاجية .

واضح أن المدينة لم يكن لها وجود من قبل ، فهي بمثابة مشروع سكني لتوطين البدو الذين ، كانوا يتخذون من محيط «ليوا»

مجالا لسكنهم وحركتهم .

الاسم : «مدينة زايد» يوضح حقيقة النشأة .

تبدو المدينة ، والحال ، هبة الحاكم أكثر من كونها ثمرة اجتماع وعمران متراكمين . لكن عدم وجود تجمعات بشرية بين أبوظبي و«ليوا» لا يمنعك من رؤية لافتات على الطريق تنبّه السائقين إلى الجِمال التي قد تعبر الطريق في أي لحظة . فهذه ، بعد كل شيء ، منطقة بدو صحراء «الظفرة» . وبالفعل رأينا ، أكثر من مرة ، قطعاناً من الجمال تقف أو تسير في هذا الفضاء الرملي القاحل ، وكان إلى جانبها آسيويون .

إنهم رعاتها ، الآن ، لا البدو . فالبدو استوطنوا بيوت الإسمنت وتركوا الجِمال ، التي لم تعد تؤدي الأغراض السابقة نفسها ، بعهدة عمالهم الآسيويين .

الجمال في الإمارات ، اليوم ، صناعة مزدهرة . . ولكن لأسباب بعضها نوستالجي بحت ، أو حتى فولوكلوري ، وبعضها الآخر ، الأهم ، لأنها أصبحت كنزاً ثميناً لسباقات الهجن التي ازدهرت في هذه البلاد طوال العقدين الماضيين ، ولكنها صارت ، الآن ، إلى شيء من الأفول ، بعد رحيل مؤسسي الكيان الإماراتي الأوائل وصعود أبنائهم الذين لم يعيشوا الحياة البدوية ، أو حياة ما قبل النفط ، إلى الواجهة ، ولم تعد الجمال تعني لهم ما كانت تعنيه لأسلافهم .

خطر لي هذا الخاطر : بأي لغة يتحدث الرعاة الآسيويون إلى إبل مخدوميهم؟

فالبدو ، عادة ، يسمون دوابهم بأسماء لها دلالات خاصة عندهم وينهرونها بصيحات حادة مقتضبة ، خصوصاً ، إن حادت عن الطريق . فبأي لغة يفعل ذلك الرعاة الآسيويون؟

على الأغلب بالطريقة نفسها التي يتكلمون فيها مع عرب الإمارات : أي تلك اللغة الهجين التي لا هي عربية ولا إنكليزية ، لا «أردو» ولا «بنجابية» . لغة سأحاول التوقف عندها في إطار هذه الرحلة بوصفها مظهراً اجتماعياً لافتاً للنظر ، مظهراً لا يتكرر في أي مكان عربي غير خليجي ، وربما ، لا وجود له في أي مكان آخر من العالم .

شاهدت بالقرب من أحد قطعان الجمال في «الجناعي» ، على طريق «ليوا» ، دراجة ضخمة بأربع عجلات يقودها شاب هندي (أو باكستاني) وراء القطيع . الدراجة المصنوعة ، خصيصاً ، لهذه المهمة تصعد وتهبط المنعرجات الرميلة بكل سهولة .

تذكرت ويلفرد ثيسغر مرة أخرى : ماذا سيقول لو أنه رأى هذا المنظر ، هو الذي أصابه الغمُّ لرؤية الحداثة العمرانية والتكنولوجية (يسميها الحضارة!) تزحف على الصحراء وشعبها؟

راع يسوق جماله بدراجة نارية ذات عجلات أربع!

سأتذكر «ثيسغر» كثيراً في غضون هذه الرحلة ، بل سيخطر لي ، في ختامها ، أن أعود ، مرة أخرى ، إلى هذه المناطق لتتبع خطاه . سأترك هذه الخطة إلى أن يحين حينها وأتبع ، الآن ، خطة مضيفنا محمد السويدي الذي يقودنا إلى «ليوا» بمزيج من الحماسة والنوستالجيا .

# ليت الغضا

هناك نباتات قليلة (غير النخيل) مزروعة على جانبي الطريق إلى «ليوا» ، وأخرى مما يتمكن من مجالدة هذا المناخ الضاري ، فيطلع في الربيع بقليل من أمطار الشتاء ، أو يواصل حياته الشاقة ماداً جذوره إلى ما تبقى من مياه الشتاءات السابقة تحت الرمال .

لكن أشجار «الغضا» هي التي يراها ، عن بعد ، سعيد محمد كزار المهيري ، ابن الصحراء ورفيق رحلتنا المحتشد بالشعر والحكايات والطرائف ، فيوقف الركب .

يسأل السويدي من منا يحفظ شعراً فيه ذكر لـ «الغضا» فيهيج السؤال حافظة الشاعر السوري نوري الجراح الذي ترك لندن منذ أربع سنين واستقر ، مؤقتاً ، في أبوظبي ، فيأخذ بقراءة أبيات من «يتيمة» مالك ابن الريب :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً
بوادي الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا

مزارٌ ولكن الغضا ليس دانيا .

يحفل الشعر العربي الكلاسيكي بذكر «الغضا» ، فهو يأتي ، غالباً ، في مقام ذكر الديار والحنين إليها ، كما هو الحال عند مالك بن الريب الذي قُتل بعيداً عن دياره وناشد ، في لحظة احتضاره ، خليليه المفترضين البعيدين أن يجراه ، من ثيابه الملطخة بدمه ، إليهما .

إنه شجر البيئة شحيحة النبات والأشجار ، بل لعله أن يكون أشهر أشجار الصحراء ، وقد التصق ذكره بـ «نجد» إلى درجة إن قلت «أهل الغضا» (كما يذكر ابن الريب في أحد الأبيات السابقة) عَرفَ السامعُ أنك تقصد أهل «نجد» ، وذلك لكثرته هناك . وإلى «نجد» يُرَدُّ معظم شعراء العرب الكبار ، خصوصاً ، أصحاب «المعلقات» .

و«الغضا» شجر من فصيلة «الأثل» شامل المنافع ، فأوراقه طعام للإبل ، وخشبه يدخل في بناء البيوت وأثاثها ، ويابسه حطب جيد يترك جماراً تتقد طويلاً .

ولا يقتصر نمو «الغضا» على «نجد» بل يوجد في عموم شبه الجزيرة العربية ، وقد رأيته منتشراً في غير مكان ذهبت إليه في أرض الإمارات ، وله في شعر أهلها النبطي ذكر ملحوظ .

ليس «الغضا» ، وحده ، ما نتوقف عنده في هذه الرحلة إلى «ليوا» التي صارت تمتد وتمتد حتى شعرت أننا لن نصل ، بل كذلك ، نبتة «الزهرة» المسماة ، علمياً ، «تريبيلوس» ، وهي شجرة صغيرة لها عند بدو هذه البلاد حرمة النخلة نفسها ، ليس لأنها

تعطي ثمراً ، ولا لرائحتها الذكية الخفيفة التي لا تُشم إلاَّ إذا قربتها من أنفك ، بل لكونها طعاماً مقبولاً لإبلهم .

يقول «ثيسغر» في كتابه «الرمال العربية» إن رفاقه البدو ما كانوا ليُقدموا على استعمالها كوقود لنارهم إلاَّ إذا يئسوا من وجود حطب آخر . فليس كل نبات الصحراء ، على قلته ، تأكله الإبل ، رواحلهم ومصدر عيشهم ، ولكن ما تأكله الإبل لا يجوز أن يكون طُعماً للنيران .

أخيرا . . تطل علينا «ليوا» . . من قلب الصفرة المتلألئة ، من بين الكثبان المتماوجة التي تتخذ ، أحياناً ، تشكيلات جسد أنثوي نائم في سرير الرغبات : انثناء ، فتكوّر ، فامتداد . بطن ، سرّة ، وركٌ وجِيد .

فكَّرت ونحن نقبل على «ليوا» والصحراء تحفنا من كل جنب : لِمَ لا يوجد ملمح ذكوري في رمال الصحراء القاسية؟ لِمَ تعكس تضاريس الصحراء وتقلبات رملها جسد امرأة في حلم؟ لم أستطع التوصل إلى جواب .

هكذا ، في قلب هذا الفراغ العظيم ، هذه المتاهة من الرمل تنفث الطبيعة القاسية ، أخيراً ، نفثة خضراء . إنها أشجار النخيل التي عاش على ثمرها وتحت ظلالها ، وتقاتل للاستحواذ بها بدو الصحراء .

ورغم الثراء الذي فاضت به أرض الصحراء ، لاحقاً ، على القبائل التي عاشت بالقليل من الماء والتمر والحليب ، لا يزال لهذا النخيل منزلة خاصة في نفوس أهل المكان . إنه الوفاء للشجرة

المباركة التي جعلت الحياة ممكنة في هذا القفر البلقع . . أو لعلها النوستالجيا لزمن البراءة الأولى : زمن الرجال الضامرين الأشداء ، ونوق «الباطنة» الشهيرة ، والمدى الذي لم يكن يعرف حداً ، والحكايات التي تؤنس وحشة الليل .

إنه الزمن الذي فتن ويلفرد ثيسغر (المسمى من قبل رفاقه البدو «مبارك بن لندن») عندما جال في هذا المدى المترامي على ظهر ناقة وأراد أن يكون أول غربي يدخل «ليوا» . . غير أنه لم يسجل ، في مدونة الرحلة الأجنبية المفتونة بالصحراء ، هذا السبق ، فقد أطلَّ عليها من بعيد ونكص عائداً يبحث عن طريق إلى بعض مناطق عُمان لم يدخلها ، قبله ، أيضاً ، أجنبي!

ولكننا لم ندخل «ليوا» على ظهر ناقة .

بل على متن «ليكزس» طحينية اللون سميتها مع رفاق رحلتي «الدلوعة»!

***

كان محمد السويدي قد اتصل ، قبل مجيئنا ، لترتيب إقامتنا القصيرة في فندق «ليوا» الذي وصلناه مع الغروب . كان الفندق المقام على رابية صغيرة يغوص في الصمت . أمامه حديقة مشذبة جيداً ، يطوف فيها بستاني آسيوي يرتدي وزرة ، ويبدو من إطلالته شبه الوداعية على ثمرة يديه ، أنه في نهاية دوامه . كان الفندق الكبير ذو الصالة الواسعة خالياً ، تماماً ، من أي حركة ، باستثناء موظفين اثنين خفّا لملاقاتنا ، أحدهما سوادني والثاني مصري ، لكنني عندما نظرت إلى مسبحه الخلفي رأيت أجساداً أوروبية

تستلقي ، بدعةٍ ، على جوانبه . رجال ونساء وأطفال يتلقون قسطاً من أشعة الشمس بعد أن خفَّت حدتها ومالت إلى الانكسار . شعرت ، لأول مرة ، بغرابة تلك الأجساد الأوروبية في قلب واحة صحراوية لم تعرف ، من قبل ، جسداً مكشوفاً ومبذولاً على هذا النحو . . ناهيك عن أن يكون أبيض!

أودعنا أمتعتنا الخفيفة في الغرف التي وزِعتْ علينا ، بسرعة ، ثم تلاقينا في الشرفة . كان العاملون في الفندق قد أعدوا قهوة وشاياً وعصائر تناولناها ، في عجلة أيضاً ، ثم انطلقنا صوب تلة رملية كبيرة في ظاهر البلدة .

لم يبق ، على ما يبدو ، من الحياة القديمة التي قامت في هذه الواحة منذ مئات السنين سوى أشجار النخيل والرمال والمدى المصفر الذي لا نهاية له .

هناك ، اليوم ، حياة أخرى يصنعها الإسمنت والكهرباء ونظم الاتصالات الحديثة . هناك قصور متفرقة لأحفاد الذين غادروا هذه الواحة قبل عقود ، شبه معدمين ، في اتجاه البحر ولؤلوئه وأسماكه .

لم أتبين كثيراً من معالم البلدة لأن الليل أخذ يزحف بسرعة .

ليل ساكن تماما إلاَّ من مرور سيارة هنا وسيارة هناك . . ونباح كلاب سائبة .

تجاوزنا البلدة من خلال طرق ترابية ، وأخذنا نصعد ، بسيارات الدفع الرباعي ، إلى التلة التي كان يريد السويدي أن نَسْمَر فيها . كأنه كان يريد لنا أن نحيا ، للحظة ، تلك الحياة التي عرفها في طفولته ، لكن سيارة «اللكزس» أخذت تغرز كلما حاول دفعها

لاقتحام التلة الرملية الكبيرة .

كانت السيارة الثانية «اللاند كروزر» التي يقودها سعيد المهيري أكثر نشاطاً ، فصعدت ، على نحو متعرج ، إلى ما دون القمة بقليل ، فيما سيارتنا «اللكزس» لم تتزحزح ، رغم أننا هبطنا منها وحاولنا دفعها بكل قوانا . ولكن عبثاً . عاد سعيد المهيري إلينا راجلاً وطلب من السويدي أن يتولى قيادتها .

ليس السويدي ، على ما يبدو ، سائقاً ماهراً ، خصوصاً ، في مثل هذه المناطق ، ولا يبدو أنه مولع بالسيارات على ما هو أمر الشباب في هذه البلاد . فالولع بالسيارات يصل ، هنا ، حدود الهوس . السيارات ، في منطقة الخليج العربي مصدر تسلية وربما تباهٍ أيضاً . ولعلها أن تكون أكثر المقتنيات الحديثة عرضة للتغيير السريع .

ويخطر لي أنها اليوم ، عندهم ، البديل الذي قدمته الحداثة التقنية للفرس والناقة اللتين كانتا في الأزمنة القديمة مصدر افتخار وتباهٍ .

كانت «اللكزس» ، مع محاولات دفعها للخروج من حفرة الرمل التي حفرتها عجلاتها ، قد غرزت تماماً ، وكان علينا أن نستدعي سيارة سحب من البلدة لتخرجها . ولكن المهيري هو الذي تولى ، هذه المرة ، قيادتها مقتحماً التلة الرملية بطريقة متعرجة خضت أحشاءنا . كان سائقاً ماهراً . وعلى ضوء السيارتين اتخذنا لنا موقعاً على الرمال التي ظلت تختزن حرارة الشمس ساعات بعد غروبها . كان مرافقو السويدي قد أعدوا العدة لسمر كامل : تمر

وحلوى وترموسات شاي وقهوة وزجاجات مياه معدنية .

لم يكن سعيد المهيري حكاءً مرحاً لم يتوقف عن سرد الحكايات والنكت فقط ، بل ابن صحراء حقيقي أيضاً ، فسرعان ما عرف أين يجد الحطب في هذه التلة الرملية التي يستغرب المرء أن تطلع فيها نبتة من أي نوع ، فجمع كمية كبيرة من أغصان شجيرات «الرمث» الطالعة هنا وهناك في سفح التل الرملي على ضوء السيارتين ، وأشعل ناراً عظيمة .

أنا ابن منطقة صحراوية أيضاً ، ولكن صحراءنا أقل قسوة من هذه الصحراء . وبمقارنتها بصحراء «الربع الخالي» التي كنا على تخومها ، فهي قد تعتبر سافانا!

كنا نحو عشرة أشخاص راشدين بالغين ، ولكن سرعان ما حولتنا الرمال التي تحضُّ على الانزلاق ، أطفالاً يلعبون بالرمل وينزلقون عليه . . كأننا كنا ، بذلك ، نعود إلى طبيعة أولى متأصلة فينا ، كأن هذا الفضاء الخالي ، هذه الرمال التي نغوص فيها بأرجلنا وسيقاننا ، قد حررانا من مواضعات طرأت علينا وصارت لنا ، لطول نفي وإقصاء ، طبيعة أولى ، وما هي ، أصلا ، كذلك .

لحظات حرية روحية وجسدية .

لحظات بلا مواضعات مسبقة .

الطبيعة وحدها ، هنا ، هي السيّدة ولها ينعقد اللواء .

كانت السماء فوقنا قبة من النجوم لا حدّ لها .

تلك النجوم التي عبدها ، أو اهتدى بضوئها ، السابقون .

سماء صافية ونجوم دانية يمكن لك أن تعدها واحدة واحدة .

وباستثناء هرجنا الذي لا بد أن صداه كان يُسمع في البلدة القريبة ، فقد كان كل شيء يتلفع بالصمت والسكينة . . والرهبة الكامنة في مدى لا نهائي من الرمل والمجهول .

كان الليل قد انتصف عندما عدنا إلى الفندق .

# يا دار عبلة.. بالجواء

يعتقد بعض مثقفي الإمارات ، ومنهم الباحث حسين البادي ، أن «ليوا» قد تكون هي نفسها «الجواء» التي ذكرها الشاعر الجاهلي عنترة العبسي في البيت الثاني من معلقته ، متذكراً دار حبيبته «عبلة» :

يا دار عبلة بالجواء تكلمي
وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي .

ويبدو أن دليل الذين يردون «ليوا» إلى «الجواء» يستند إلى اللغة أكثر من استناده إلى دليل مادي ملموس ، رغم أن «البادي» يستشهد بآراء رجال كبار في السن من منطقة «ليوا» يعرفون أنساب القبائل الحاضرة وصلتها بالقبائل العربية التي سكنت المنطقة قديما ، كذلك يشير في بحثه «الميداني» إلى رجم من الحجارة في ظاهر «ليوا» يقال إنه قبر عنترة! نعرف أن لسان بعض القبائل العربية (كما هو الحال في الإمارات والكويت على سبيل المثال) يقلب الجيم ، في مفردات بعينها ، ياءً . فيمكن ، والحال ، أن تصبح «الجواء» ، في اللفظ الشائع ومع حذف الهمزة لتخفيف النطق وسهولة لفظه : «ليوا» . ولكن هذا «الدليل» اللغوي لا يكفي لسد

ثغرات في «تأصيل» النسب وردّه إلى مكان بعينه ، وهنا ، تحديدا ، إلى «ليوا» .

وبالعودة إلى معلقة عنترة نجد «الجواء» مقرونة مرة ثانية بأسماء مواقع أخرى :

وتحلُّ عبلةُ بالجواء وأهلنا
بالحزن فالصمَّان فالمتثلِّم .

نفهم من الزوزني ، أحد شارحي المعلقات ، أن «الجواء» هي منازل عبلة أما «الحزن» و«الصمان» و«المتثلم» فهي منازل أهل عنترة . لكن المصادر العربية ، تشير إلى أن عنترة ينتمي إلى «بني عبس» ، وهم فرع من قبيلة «مضر» التي كانت تسكن «نجد» في وسط الجزيرة العربية ، وبين الأخيرة و«ليوا» عازل جغرافي تكاد أن تنعدم فيه الحياة هو «الربع الخالي» ، أو ما كان يسمى قديماً «مفازة صيهد» التي تبلغ مساحتها نحو خمسين ألف ميل مربع!

فإذا كانت «الجواء» هي «ليوا» ، فأين ، إذن ، «الحزن» و«الصمان» و«المتثلِّم»؟

فالمنطقي أن تكون هذه المواقع قريبة من منازل أهل عبلة ، باعتبار أنها ، كلها ، من ديار «بني عبس» .

ثم إن عنترة يقول عن ناقته في المعلقة :

شَربتْ بماء الدحرضين فأصبحت
زوراء تنفرُ من حياض الديلم .

يشير البيت السابق إلى موقعين : أحدهما «الدحرضان» والثاني «الديلم» . وفي تحديد هذين الموقعين نجد بعض العون لدى

صاحب «المعجم الجغرافي لبلدان القصيم» محمد بن ناصر العبودي . فهو يقول : «الدليمية بإسكان الدال المشددة فلام مفتوحة فياء أولى ساكنة فميم مكسورة فياء ثانية مشددة فتاء مربوطة ، على صيغة النسبة إلى الدليم أو الديلم وهذا هو الواقع كما سيأتي : هي قرية قديمة العمران ثم أصبحت هجرة للحنانية من بني سالم من حرب منذ عام 1335هـ . وأصله ماء قديم لبني عبس كان يسمى الديلم . قال ياقوت الحموي : «ديلم : ماء لبني عبس» ، ونقل البكري عن المطرز قوله : «الديلم هو ماء لبني عبس» ويستشهد العبودي بالبيت السابق لعنترة :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت

زوراء تنفر عن حياض الديلم .

ويفسر ذلك بالقول :

«إن هذه الناقة قد شربت من ماء الدحرضين اللذين هما في بادية نائية والتي يمكن أن تكون «حرض» المعروفة بين الرياض والظهران ، فأصبحت وحشية تنفر من حياض الديلم في بلاد بني عبس في القصيم ، لأن تلك الحياض في بلاد معمورة الأطراف كثيرة السكان والمياه بالنسبة إلى الدحرضين ، كما هي العادة عن الناقة التي تكون بدوية وحشية تنفر من البلاد العامرة المأهولة بالسكان ولا تأنس إليها . و«الدليمية» ورد ذكرها عندما زار أحد الرحالة الأوربيين المنطقة وهو «المستر لوريمر» .

هناك ، إذن ، هذه المواقع ، إضافة إلى «الجواء» : الحزن ، الصمان ، المتثلم ، الدحرضان ، الديلم . ولا وجود ، حسبما فهمت ،

لواحد من هذه المواقع ، التي يأتي عليها عنترة في معلقته ، في «ليوا» أو بالقرب منها .

فهل إصرار أهل «بدع زايد» على كون «ليوا» ، هي «الجواء» ، منزل «عبلة» ومهوى فؤاد حبيبها «عنترة» ، مجرد حماسة للتشبث بأصل بعيد ، أم أن له وجاهة يمكن دعمها بدليل مادي ملموس غير ما يرد عند «البادي» وسواه من القائلين بهذا النسب؟

أسأل الشاعر الإماراتي أحمد راشد ثاني ، الذي عكف في السنين الأخيرة على المأثور الشعبي في الإمارات ووضع أكثر من مؤلف فيه ، عما إذا كانت «ليوا» هي «الجواء» ، فيقول لي : أولا ، إن تسمية «ليوا» خاطئة ، فالبدو ، هنا ، ينطقونها «أليوا» . وهذه المنطقة كانت تعرف ، أصلا ، بـ «الجو» ، أو «جو عُمان» ، وهناك العديد من أسماء الأماكن المتشابهة والمتقاربة في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، فإن كان هناك من تشابه بين «ليوا» وبين «الجواء» الواردة عند عنترة ، فهو من هذا القبيل .

ولكن هناك ، في الأقل ، علاقة مؤكدة لشاعر آخر بهذه الواحة : إنه ابن عتيج (عتيق) ، وهذا شاعر له منزلة خاصة في الشعر النبطي في الإمارات ، بسبب قوة شعره من جهة وسيرته كـ «قاطع طريق» من جهة أخرى ، فضلاً عن كونه أحد أسلاف هذه القصيدة في البلاد التي صارت تسمى لاحقاً «الإمارات» .

ومن بين رفاق رحلتنا هناك اثنان فقط كانا يرددان ، كلما مررنا بمكان علم ، أو تشكيل رملي فريد ، أو هبت نسائم ربيع الصحراء ، أبياتا لابن عتيج هما : محمد السويدي وسعيد المهيري .

ولا عجب في ذلك ، فالأول شاعر يكتب بمحكية أبو ظبي ، وإن كان من المحدثين الذين استخدموا في شعرهم صوراً وأخيلة مماثلة لما هما عليه في شعر الفصحى الحداثي ، والثاني شاعر قريب من المدونة التقليدية للشعر النبطي وأشبه براوية بدوي تختلط على لسانه الحكايات والقصائد ليصنعا رواية مشوقة لأمكنة وأحداث المنطقة التي انطلقت منها قبائل «بني ياس» لتؤسس مدينة أبوظبي التي لم تكن ، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، سوى جزيرة غير مأهولة تدعى «مليح» .

كانت القصائد التي تعاقب على تلاوة أبياتها السويدي والمهيري أثناء هذه الرحلة غريبة ، تماماً ، على أسماع رفاق رحلتنا العرب ، وأليفة الوقع ، بالنسبة لي ، وإن تعذر علي ، وهلة أولى ، فهم كثير من كلماتها التي تنهل من معجم عربي متداول ، فقط ، في هذا الطرف النائي من شبه الجزيرة العربية .

ولا بد أن بعد الشقة بيني ومنبتي الأول واستخفافي ، شأن معظم الشعراء العرب الحديثين ، بشعر العاميات العربية قد أسهما في استغلاق التلقي الأول لما تلاه علينا السويدي والمهيري من أبيات لشاعرهم «ابن عتيج» .

ولعل تذكري للباحث والدبلوماسي الهولندي مارسيل كوبر شوك الذي أعاد بناء حياة القبائل «السعودية» الكبرى وملاحمها في الصحراء من خلال كتابه الفريد «البدوي الأخير» هو الذي خلق عندي نوعاً من التحدي لقراءة ديوان «ابن عتيج» الذي رحت أبحث عنه ما إن عدت من «ليوا» إلى أبوظبي .

فهذا الباحث الهولندي لم يتعلم العربية الفصحى فقط ، وكانت وقفته الأولى مع «المعلقات» في جامعة «لايدن» الهولندية الشهيرة ، بل أقام في السعودية وتعلم لهجات قبائلها الكبرى ، وتمكن من جمع قصائد أشهر شعرائها الذين تقصيهم الحكومة السعودية من التداول باعتبار أن شعرهم وحكاياتهم يبعثان العصبية القبلية التي نهى عنها الإسلام وجبّتها الأعراف الحديثة .

ولكن يبدو أن الأمر يتعلق بشيء مختلف تماماً .

فكثير من هذا الشعر هو في النزال الذي شهده هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية بين «آل سعود» وخصومهم ، خصوصاً ، قبيلة «شمر» التي انتزعوا من أمرائها «آل الرشيد» السيادة على شمال جزيرة العرب .

هكذا كان كوبر شوك نقطة التحدي لقراءة «ابن عتيج» .

فكيف يتأتى لرجل هولندي معرفة الشعر البدوي وحفظه عن ظهر قلب فيما أصارع ، أنا ابن الأرومة البدوية ، لفهم كلمات ومعاني شعر بدوي طالما سمعت مثله في طفولتي؟

ولكن معجم شعر «ابن عتيج» لا يشبه كثيراً المعجم المستخدم في الشعر البدوي المتداول في بادية الشام كما أنه يختلف عن معجم شعراء «عتيبة» أو «شمّر» في السعودية ، وهؤلاء الأخيرون أقرب إلى معجمنا البدوي الشامي من المعجم الإماراتي والعُماني .

# في ديرة «ابن عتيج»

عندما وصلنا في طريق عودتنا إلى «حوايا الهوامل» ، وهي منطقة «ابن عتيج» ، في ظاهر «ليوا» ، قال محمد السويدي ونحن ننظر إلى واحة صغيرة من النخيل وسط كثبان رمل تتموج كأنها أمواج بحر :

امقيّظه غرسة حوايا

ماها غديرٍ مثل لفلاج .

ثم سألنا ما المقصود بهذا البيت؟

طبعا ، لم نعرف .

قال وهو ينظر إلى أشجار الواحة القليلة الهاجعة في ظهيرة ربيعية لم تصطل ، بعدُ ، بهجير الصحراء : إنها النخلة .

يمكننا أن نتخيل كيف تصبح «غرسة حوايا» (النخلة) في عز هجير الصحراء ظلة رطيبة ، ومياه آبار الواحة مثل فلج من الماء . . رغم أنها ليست سائلة . . بل ربما يستحيل تصديق هذا الوصف السخي إلاّ هنا ، حيث ينعدم الماء والظل .

في هذه الواحة الصغيرة من أعمال «ليوا» ولد سعيد بن راشد بن عتيج الهاملي لعائلة تنتمي إلى قبيلة «بني ياس» عام 1875

على وجه التقريب ، وقُتل في إحدى غزواته ، كما يقال ، عام 1919 عن عمر يناهز الرابعة والأربعين ، أي في الفترة التي شهدت استقراراً داخلياً طويلاً مع حكم الشيخ زايد بن خليفة المسمى بـ «زايد الكبير» ، ولكن لم يبق اليوم من شعر ابن عتيج سوى عدد قليل من القصائد والمقطعات القصيرة التي لا تتجاوز ، كما يؤكد ديوانه ، الـ 54 .

ويرى الباحث الأردني د . غسان الحسن ، عضو «نادي تراث الإمارات» الذي وضع دراسة تحليلية ضافية لديوانه ، أن ضآلة منجزه ، المتوافر حالياً ، تعود إلى الشفوية وانعدام التدوين في تلك الفترة .

فلم تكن الكتابة معهودة في هذا المجتمع البدوي المترحل وراء الماء والمرعى والمتصارع على أبسط أسباب الحياة ، لذلك كان الشعر يدور على الشفاه وتحفظه الصدور .

إنه ، أصلاً ، شعر شفوي .

ابن اللحظة والتو ، فما يستقر منه على الألسن وما تحفظه الصدور هو أجوده وأفضله ، أما الباقي ، الذي لا يعلق على اللسان ، فيسقط من المدونة الوحيدة المتوافرة آنذاك : الذاكرة .

هناك ، على الأغلب ، شعر أكثر من هذا لابن عتيج ، ولكن إما أنه لم يرقَ ، جودةً ، إلى ما بقي من شعره ، وإما أنه انطوى مع انطواء حافظيه .

أعود إلى أحمد راشد ثاني الشاعر الحداثي الذي عرفته مذ كان على مقاعد الدرس ، لأسأله عن الانطباع الذي استقر عندي

حول مرجعية «ابن عتيج» في الشعر النبطي الإماراتي ، اليوم ، فيقول إن «ابن عتيج» شاعر مهم ولافت ولكنه ليس المرجع الوحيد للقصيدة النبطية عندنا ، ولعل صورته قد ترسخت في الأذهان من خلال سيرته كـ «قاطع طريق» ، وبالتأكيد ، من خلال شعره القوي . وإذا أردنا استخدام مصطلحات اليوم يمكننا القول إنه شاعر متمرد ، غير منخرط تماماً في السياق الذي ساد عصره ، دليلي على ذلك أنه لم يقل في شعر المديح ، الذي كان يقال في أولي الأمر ، سوى قصيدتين أو ثلاث قصائد . . هذا يعطيك مثالاً على خروجه عن السرب . أما تميزه فهو يتمثل ، بحسب أحمد راشد ثاني ، في ذلك الشعر ، أو الإيقاع ، القادم من خارج المدونة النبطية ويسمى «الونّة» . وهذا شعر ذو مقاطع قصيرة تتراوح بين ثلاثة وعشرة أبيات ، وغالباً ما يبدأها الشاعر بمخاطبة نوع من الرياح يسمى «الكوس» .

وعدم مرجعية «ابن عتيج» تتمثل ، في رأي أحمد راشد ، في كونه شاعراً متأخراً ، نسبياً ، في المدونة النبطية «الإماراتية» . فـ«الونّة» التي يقولها البدو عند سفرهم على ظهور الإبل في الصحراء و يشيلونها ( . . والشّلة تعني رفع الصوت بالغناء) ، قد انعقد لواؤها لشاعر أسود البشرة يدعى «جويهر الصايغ» كان مملوكاً لأحد وجهاء قبيلة «الشوامس» ، وقد وصلتنا منه قصائد عديدة في هذا اللون الشعري ، كما أن للشيخ خليفة بن شخبوط (حكم بين عامي 1833-1845) قصائد في «الونّة» .

لكن لـ «ابن عتيج» ، على ما يقول أحمد راشد ، فضل في

تطويره لـ «ونّة» ثلاثية تسمى «الونّة المثلوثة» . والرأي السائد ، في أبو ظبي ، أن قصيدة «الونّة» خاصة بأهل منطقة الإمارات وما جاورها من عُمان ، ولا يقولها الشعراء النبطيون في باقي شبه الجزيرة العربية ، وهي تتكون من ثلاثة أشطر يلتزم فيها الشاعر بقافية موحدة في الشطر الأول والثاني ، وبقافية أخرى في الشطر الثالث وقد تتغير القافية في البيتين الأول والثاني في القصيدة في حين تبقى القافية في الشطر الثالث كما هي .

هنا بضعة أبيات من «ونّة مثلوثة» شهيرة لابن عتيج يناجي فيها الفتاة التي كان يحبها وهي تتأهب للرحيل على متن سفينة :

صاح أبْزقَر لْنادي . . . بخْطوفه . . . يوم السفن بْتشلْ
غَمَّسْ علي لفْوادي . . . بالْكُوفَهْ . . . ولا وَدَاَعه بالحلْ
وينْ اقْمَريْ لْمجادي . . . ما شُوفه . . . لي نورهْ معْتزلْ
لي مشْقَني ودادي . . . بشْفُوفَه . . . عَلَّهْ عُقْبِ الْنَّهَلْ
اللي قبلْ مِتْبادي . . . لا حوفه . . . إنْ مَيَّحَنْ لِقْذَلْ .

لكن لون «الونّة» أقدم ، على ما يبدو ، من «ابن عتيج» و«جويهر الصايغ» ، بل أقدم مما كتبه شخبوط بن ذياب في هذا الضرب الشعري ، فقد قال لي أحمد راشد ثاني إن لذياب بن عيسي «مكتشف» أبوظبي ، «ونّة» يرثي فيها حال الدنيا ما زالت متداولة في أبوظبي يقول فيها :

دنيا ما بج نداره مرجوعك للحسوف .

وقبل «ابن عتيج» كان هناك شاعر كبير آخر في «رأس الخيمة» يدعى «الماجدي بن ظاهر» (يلفظ «المايدي» وهو يسمي نفسه هكذا

في بعض مطالع قصائده) سبق «ابن عتيج» بقرنين ، يكاد يقف وحيداً في هذه المدونة المتقطعة للشعر النبطي في البلاد التي ستسمى بدءاً من مطلع سبعينات القرن الماضي «دولة الإمارات العربية المتحدة» .

ويبدو أن «ابن ظاهر» الذي ينتمي الى رأس الخيمة ، وعاش في الفترة نفسها التي كانت قبيلة «بني ياس» على حلف مع سلاطين عُمان ، خصوم «القواسم» (حكام رأس الخيمة) قد ترك أثراً ملحوظاً عند الظبيانيين بسبب تحدره ، على الأغلب ، من أصل هلالي ، مثلهم ، أو لأنه امتدح الهلاليين في شعره .

أسأل الشاعر أحمد راشد ثاني عن سرّ قلة الشعر الذي بقي من تلك الفترة ، رغم أن الشعر ، مثله مثل الماء ، هو أحد أسباب بقاء البدوي في حياة تكاد أن تكون خالية من أشكال التعبير الفنية الملموسة عن الوجود؟

يُرجع أحمد راشد الأمر إلى أن تدوين الإرث الشعري النبطي بدأ في الفترة التي كان قد رحل فيها معظم حافظي هذا الشعر في صدورهم . ويجيبنا الباحث الأردني غسان الحسن الجواب نفسه تقريباً .

وإذا قارنا الشعر النبطي الإماراتي بمثيله «السعودي» سنجد فارقاً كبيراً في الكم والنوع لصالح الأخير .

قد يكون السبب أن قبائل المنطقة التي صارت تعرف بـ «السعودية» (نسبة للعائلة الحاكمة فيها) هي أكثر تماسكاً ، على المستوى القبلي ، من قبيلة «بني ياس» التي يرى بعض الذين أرخوا

لها أنها أقرب إلى التحالف القبلي الفضفاض منها إلى القبيلة الواحدة التي تترابط ، بقوة ، نسباً وقربى وعلاقات دم ، وهذا رأي رفضه محمد السويدي الذي لم ألمس لديه ميلا تجاه القضايا القبلية ، بينما رأى سعيد بن كراز المهيري «الياسي» المشبع بأحاديث الأصول والمنابت ، أن التقليل من شأن «بني ياس» هو بث دعاوي سعودي تقليدي ، القصد منه تجريد «بني ياس» من أصل عتيد وتصويرهم بأنهم لمٌ أو أشتاتٌ جمعتهم الديرة والمصلحة أكثر مما جمعهم أصل مشترك ، وذلك ، بحسب «المهيري» ، للاستيلاء على ديارهم عندما كانت الدعوة الوهابية في عنفوانها الأول .

لكن لا محمد السويدي ولا سعيد المهيري اللذان رفضا صحة هذه الفجوة الزمنية الكبيرة جاءا بدليل يثبت خطل رأي الباحث الأردني ، وعندما عدت إلى كتابات حمد بوشهاب ، أحد أكثر الإماراتيين اهتماماً بشعر عاميتهم ، لم أجد ذكراً لشعراء مهمين يتوسطون «الماجدي» و«ابن عتيج» . فلم يتوسط الفجوة التي تقدر بقرنين بين الشاعرين شاعر ثالث من عيارهم . وهذا أمر يبعث على الحيرة .

فهل يكون سبب ضآلة هذا الإنتاج الشعري ، إذا استبعدنا أمر التماسك القبلي عند «بني ياس» ، هو مزاوجتهم ، في القرون الثلاثة الأخيرة ، بين البداوة والصيد والغوص ، والأخيرتان مهنتان تأنفهما قبائل الصحراء؟ فقبائل «السعودية» ، مثلا ، التي تعتز ببداوتها الصرف وبقوتها الضاربة في الغزو . . لم تر حتى في القبائل الأردنية ، أيام الغزو الوهابي لجنوب الأردن ، بدواً حقيقيين

لكون معظمها رَبْعَ شياهٍ لا رَبْع إبل!

شعر «ابن عتيج» ، الذي زاوج بين البداوة ، بما هي رعي وغزو وصحراء ، وبين حياة الصيد والغوص ، ينفي الاحتمال السابق ، ويظل انعدام التدوين ، أو لنقل التدوين المتأخر ، هو السبب الأرجح في تقطع هذه المدونة الشعرية . وبالعودة إلى غزارة الشعر البدوي في «السعودية» ، مقارنة بما كان عليه في سائر ديار شبه الجزيرة العربية ، علينا ، ربما ، أن نتذكر أن هضبة «نجد» لم تجد بمعظم شعرنا العربي الفصيح القديم (معظم شعراء المعلقات) ولكن ، أيضاً ، بالشعر البدوي المسمى «نبطياً» .

وأياً يكن الأمر ، فقد اهتمت الإمارات بنتاجها الشعري السابق على تكوين الدولة وذلك ، حسب ظني ، بغية خلق «هوية» خاصة بالمكان وسكانه وصنع سردية ثقافية واجتماعية لكيان لم يكن موجوداً ، على هذا النحو ، من قبل ، فيما ناهضت السعودية ، لفترة طويلة من الوقت ، هذا الإرث ، خصوصاً ، الذي يسجل للنسب القبلي ويُعلي من شأنه في مواجهة القبائل الأخرى لصالح سردية أخرى هي الدعوة «الوهابية» . فالهوية التي ظلت «السعودية» تحرص عليها هي ذات طابع ديني . عصبية الحكم السعودي قائمة على المذهب «الوهابي» الذي اخترق البنية القبلية ، النجدية خصوصاً ، وصهرها في إطاره بحيث أصبحا ، تقريبا ، شيئاً واحداً . في الإمارات يمكن للمرء أن يحصل على نتاج «الماجدي ابن ظاهر» و«ابن عتيج» مطبوعاً ومعتنى به فيما يصعب العثور على نتاج شاعر وفارس من قبيلة «عتيبة» هو «شليويح العطاوي» الذي سجل

في شعره وصفاً لمعركة «طلال» التي انهزم فيها آل سعود ، أو شعر «الدندن» ، وغيره من شعراء «شمّر» الخصم التقليدي لـ «عنزة» التي يقال إن العائلة السعودية الحاكمة تنتمي إليها .

يسأل الباحث والدبلوماسي الهولندي كوبر شوك فهد العريفي (مدير مؤسسة اليمامة للصحافة) وهو ، بحسب كوبر شوك ، أكثر أفراد «شمّر» ثقافة : لماذا يُنشر شعر قبيلة «عنزة» ولا يُنشر شعر «شمَّر»؟

يجيبه : لأن شعر «شمَّر» يدور ، في الغالب ، حول الحروب مع القبائل الأخرى .

لكن الجواب لا يقنع كوبر شوك الذي يستنتج قائلاً إن السبب الحقيقي يرجع ، بلا ريب ، إلى أنَّ «آل الرشيد» ، الذين كانوا أخطر منافسي «آل سعود» ، هم شيوخ «شمّر» .

«ابن عتيج» محظوظ أكثر من «شليويح العطاوي» و«الدندن» ، فرغم أن بعض شعره ، كما أخبرني محمد السويدي لا يروق رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد (خصوصاً تلك القصيدة التي يُعرّض فيها بالفتاة التي أحبها ولكنها تزوجت شخصاً آخر) إلاَّ أن ديوانه مطبوع . . وبحلة فاخرة .

لكن أحمد راشد ثاني الذي وجد أن المقارنة التي عقدتها بين الشعر النبطي في الإمارات ونظيره في «السعودية» غير دقيقة ، يقول : هنا ، أيضاً ، يوجد شعر لم ينشر لأنه لا يروق الوضع السياسي السائد اليوم ، أو يتغنى ، مثل الشعر «السعودي» ، بالحروب القبلية التي يريد المسؤولون طي صفحاتها نهائياً .

# برج ظفير

لم نقترب من هذا البرج عندما دخلنا «ليوا» ، رأيناه عن بُعد ولكننا لم نعرج إليه . في صباح اليوم التالي كان علينا أن نتفقد المكان الذي بدأت الشمس تخترق كل شيء فيه وتقلص مساحة الظلال القليلة التي يمكن أن تعكسها شجرة أو حائط إسمنتي .

قال محمد السويدي هذا «برج ظفير» ، وهو واحد من سلسلة أبراج كانت تحيط بالواحة لتشكل نقاط مراقبة أمامية ، أو خط دفاع أول . ذكرني هذا البرج بأخرى مماثلة له رأيتها في عُمان ، ولكن الأبراج العُمانية مقامة على تلال صخرية . أبراج معزولة تماماً عن محيطها تشكل مراقب إنذار أيضاً .

هنا بالقرب من «ليوا» لا وجود للصخور ، ولكن الموقع المرتفع ، نسبياً ، للأرض المقام عليها هذا البرج الصغير يمكن أن يجعل منه نقطة مراقبة ، فالمدى الصحراوي منبسط أمامه ومكشوف من كل الاتجاهات .

يبدو البرج المشيد من الطين والتبن في حالة جيدة . واضحة آثار الترميم عليه ، لكن الاهتمام بترميمه ليكون شاهداً على زمن مضى لم ينعكس على محيطه ومدخله ، ولا طوابقه الثلاثة

المهملة . الأوراق والمعلبات الفارغة وذرق الطيور ومخلفات العابرين المتناثرة في محيطه ومدخله تعطي انطباعاً بإهمال غريب لرمز من الماضي شكّل موقعاً حيوياً للواحة التي لم تأمن من غارات القبائل المجاورة يوماً .

ثمة بجانب البرج بيوت إسمنتية أمامها صحنان كبيران لالتقاط البث الفضائي ، قطرهما ، لا يقل عن 150 سنتم منصوبان على الأرض . . أوحى إليَّ حجم قطر الصحن بالمهمة الشاقة التي يقوم بها لاستدراج أثير بعيد . ففي لندن لدينا مثل هذه الصحون لالتقاط الثرثرة العربية التي لا يسهل التقاطها عبر صحون صغيرة . فلا بد أن هذين الصحنين معدّان لالتقاط البث الهندي أو الباكستاني .

توقُّفُ سياراتنا أمام البرج نبَّه شخصين آسيويين كانا على مقربة من أشجار النخيل القليلة التي تحيط به ، فاقتربا منا ولكنهما ، ما إن رأيا أزياء زملائنا الإمارتيين التي تنمُّ ، من دون شك ، عن هويتهم ، وربما منزلتهم الاجتماعية ، حتى توقفا في مكانهما . . اكتفى العاملان اللذان يرتديان زياً باكستانياً بتحيتنا من بعيد .

لا بدَّ أن هذين الرجلين الباكستانيين المقذوفين في عمق الصحراء العربية من القائمين على شؤون المزرعة المجاورة ، لا البرج ، لأنهما لم يحركا ساكناً عندما دخلنا . وجهان مغلقان آخران في عداد الوجوه الآسيوية المغلقة والصامتة التي سأراها في كل مكان أذهب إليه في هذه الإمارة الصغيرة .

تعلو البرج دريئات دفاعية في أشكال مثلثة ، تسمى «مغازل الرمي» ، وتخترقه من جوانبه الأربعة بضع نوافذ مستطيلة ، بجانبها طاقات مستديرة صغيرة لا بدَّ أنها مصممة ، خصيصاً ، لإطلاق النار .

باستثناء هذه الفتحات ، إضافة إلى نافذتين عريضتين في واجهته ، يبدو البرج كتلة ترابية مصمتة ، ولكنه ، رغم طابعه الدفاعي ، أليف الوقع .

نصعد إلى طوابق البرج الثلاثة فتنكشف لنا وظيفته . إنه ليس بيتاً ، رغم وجود غرف فيه ، ولكنه «موقع عسكري» متقشف تماماً . ومن سطحه يظهر المدى الصحراوي المحيط مكشوفاً للعين . يستطيع المتناوبون على المراقبة ، التقاط أي حركة غير عادية من أي اتجاه وإبلاغ أهل الواحة بها .

بدا لنا المدى عارياً تماماً إلاّ من تموج الرمال وتجاعيدها التي تتغير أشكالها مع هبوب الريح . ليس هناك شيء ثابت في هذا المحيط سوى بضع أشجار نخيل متسامقة محاطة بمصدات الرمل ، قد تكون صمدت أمام التغيرات التي طرأت على الواحة . بقيت من ذلك الزمن الذي كانت فيه هذه الأشجار هي كل ما يملك أهل «ليوا» ولم يكن ذلك قليلاً في مدى لا ترى فيه العين ، على مد النظر ، مسحة خضراء . هذا التلون المفاجئ ، هذا الأخضر المغبرّ المناضل في قلب الصحراء الرملية الضارية هو الاستثناء وسط الرمل المتقلّب بين الصفرة والحمرة ، والسماء الزرقاء العارية من أي غيمة .

وبما أنني تذكرت «ثيسغر» في غير موضع من أبو ظبي في إطار

هذه الزيارة ، سيحضر شبحه ، أو بالأحرى ، كلماته التي وصف بها «ظفير» . لم يتمكن «ثيسغر» ، كما أسلفت ، من دخول «ليوا» التي لم يكن قد دخلها حتى منتصف الأربعينات من القرن الماضي أوروبي ، فقد كانت له خطة أخرى : العودة إلى عُمان بعد أن اجتاز «الربع الخالي» مع رفاقه «الرواشد» .

لكن «ثيسغر» ترك لنا وصفا لـ «ظفير» . باستثناء وصفه لـ «بيوت» بني ياس التي لم تعد موجودة فإن الباقي ظل موجوداً : إنه التلال الرملية ، وبعض أشجار النخيل . يقول «الرحالة» الإنكليزي الذي سماه رفاق رحلته البدو «مبارك بن لندن» لـ «تعريبه» أولاً ، وتسهيل مناداته ثانياً . فهم لم يتمكنوا ، على الأغلب ، من نطق اسمه ذي الوقع الغريب (ويلفرد ثيسغر) ، إن النخيل كان مزروعاً بمحاذاة المنبسطات الملحية المتقاربة تحت كثبان عالية ذات جوانب شديدة الانحدار . وفي تجويفات رملية كانت مزارع النخيل مسيجة ، وهناك أسيجة أخرى مثبتة بمحاذاة رؤوس الكثبان في محاولة للتحكم في تحركات الرمل الذي غمر الأشجار في بعض الأماكن . وكانت المسافات بينها محددة بدقة وتلقى عناية جيدة . ولم تكن هناك مزروعات أخرى ، ربما بسبب الملح على سطح الأرض ، لكن الماء كان وفيراً على عمق يتراوح بين سبعة وعشرين قدماً . وقد لاحظ «ثيسغر» أن السكان الذين ينتمون إلى «بني ياس» يعيشون في حجرات مربعة مصنوعة من سعف النخيل ومشيدة على المرتفعات المشرفة على مزارع النخيل من أجل البرودة ، كما لاحظ وجود عدد من النوق والقليل من الحمير والماعز . وكان سكان

«ظفير» يذهبون ، كما يقول الرحالة الإنكليزي ، إلى أبو ظبي للانضمام إلى أسطول صيد اللؤلؤ كغطاسين .

لم نمكث طويلاً في «برج ظفير» . فليس هناك ، بعد أن رأيناه من الداخل ، وأطللنا من سطحه على المحيط المجاور ، ما نفعله . سنواصل الرحلة ولكن طريقنا ستنحرف في اتجاه «تل مرعب» .

اسم المكان بدا غريباً عندما نطقه محمد السويدي .

ولكنني لم أفهم دلالته إلاَّ بعد أن وصلنا إليه .

الأغرب من ذلك تلك الإشارات التي ظلت تتوالى على طول الطريق المتعرجة بين جبال رملية صلدة : إنها لافتات إعلانية ليست فقط لمشروب «رد بول» الغازي الذي اخترق بقوة عولمة السلع ، كبد الصحراء ، بل أيضاً لمسابقة رياضية لا تقل غرابة ستقام بعد أيام .

اللافتات الإعلانية التي تحمل اسم المشروب الغازي جعلتني أفكِّر بقوة السلعة ، في عصرنا الراهن ، وقدرتها على اختراق أكثر الأماكن عزلة في العالم . لا حصانة بعد اليوم لمكان . لا حاجز يقف في وجه السلع التي يُفكَّر فيها في مكان ، وتُنتج في مكان آخر . . وتُفتح أمامها الأبواب في أربعة أركان العالم . هل كان يمكن تصوّر رؤية لافتة كهذه هنا ، في قلب هذا المكان المعزول تماماً عن العالم الخارجي قبل أربعين أو خمسين عاماً؟

لا أظن ذلك .

لكن هذا المكان لم يعد معزولاً عن العالم بعد . لم تعد هذه الصحراء متروكة للشمس والريح والذئاب والصمت المطبق . إنها ، اليوم ، من أكثر المناطق أهمية في العالم ، حروب قامت من أجلها ،

قوى عظمى وضعتها في صدر أجندتها ، شركات عملاقة تشغّل جيشاً من المدراء ، والعلماء والمحاسبين والعمال المهرة ، والسكرتيرات ، لم يكن لها أن توجد وتتضخم من دونها .

أتحدث ، هنا ، عن النفط .

ففي صحارى شبه الجزيرة العربية يوجد أكثر من ثلث احتياطي العالم من النفط .

ليست هذه الصحراء مكاناً مجهولاً لقوى السيطرة ، والإنتاج في العالم . فمن جوفها العميق ، المظلم ، تتغذى تروس الصناعات الكبرى ومُسنّناتها ، وتهدر الطائرات في الجو ، وتتحرك ملايين السيارات في شوارع المدن شرقاً وغرباً ، ويتحول ليل الشمال الذي لا تكاد تلمع فيه نجمة واحدة إلى شجرة عيد ميلاد دائمة . البيوت تضاء ، الشوارع تغرق في أنوار غير مُفكّرٍ في مصدرها للسائرين في مناكبها . . المياه الباردة ، التي تُسحب من أنهار سوداء ، وموحلة ، تَسْخن بكبسة زر .

لم نعد قادرين ، اليوم ، على إحصاء الأدوات التي ترضع من الحليب الأسود لجوف هذه الصحراء التي كانت تتضرع إلى قطرة ماء ، فطلع ، بدلاً من ذلك ، سائل ثقيل يسمونه «الذهب الأسود» .

ذهب أسود .

حليب أسود .

نفط .

بترول .

زيت .

ليست التسمية مهمة ، المهم هو مضمونها . وهذا المضمون هو ، بالضبط ، الذي جعلها أقرب إلى نبض عواصم الغرب منها إلى أي مكان آخر ، إن لم يكن هذا «المضمون» هو نبض تلك الحواضر الكبرى ولا شيء غيره . لذلك ، علينا أن لا نستغرب إشارات السلع الغربية ، وآثار مرورها على أديم هذه الصحراء . علينا ، عندما نعبر هذه الرمال الخالية ، تقريباً ، من أشكال الحياة ، أن لا نفكر ، فقط ، في سطحها المتحرك ، بل أيضاً في جوفها العميق الذي يحوي أنهاراً من السوائل والغازات ، التي كانت ذات يوم بعيد ، حياة عضوية : أسماكاً ، أشجاراً ، حيوانات ضخمة منقرضة ، لا أدري بالضبط .

على طريق سيئة التعبيد مرة ، ورملية مرة أخرى ، وبين جبلين رمليين صلدين توقفت سيارة محمد السويدي ، فنزلنا من السيارات . كان نزول السويدي يعني ، دائماً ، نزول مصورنا الهندي راجا بالاكريشنا الذي يمتشق كاميرا الفيديو الكبيرة ، كلما ظن أن توقفنا في مكان ، هو لحظة تاريخية يتعين على عدسته التقاطها!

لم يكن هناك شيء سوى هذين الجبلين المتقابلين ، لكن وجودنا ، ككوكبة صغيرة ، والكاميرا التي يحملها المصور على كتفه ، نبَّهت سائق لوري كان يقترب منا . لفنا الغبار الذي أججته في الجو عجلات اللوري ، وما إن وصل السائق إلى جانبنا حتى فتح زجاج نافذته وراح يتحدث إلينا .

قال إن اسمه أحمد الزايد . وكان الرجل ، للغرابة ، إماراتياً . فمن النادر أن تجد إماراتيين يعملون في مهنة كهذه . . ولكن الرجل

الذي ظن ، على الأغلب ، أن الكاميرا تابعة لأحد التلفزيونات الإماراتية الحكومية ، أبى إلا أن يسمعنا أبياتاً من قصيدة نبطية ، كتبها في مديح الشيخ زايد .

كانت الأبيات ، التي لم أعد أذكرها تماماً ، تتحدث عن الشيخ زايد كأب ورجل خير . وهذان وصفان تقليديان في امتداح خصال رئيس الدولة في الشعر النبطي الإماراتي الذي يحتل مساحة ملحوظة في صحف الإمارات ويشكل معظمه استعادة ، أو حنيناً لم تشف منه النفوس ، إلى زمن لم يعد قائماً .

استحسنا شعره ، فسلّم علينا وانصرف ، ولكن ليس قبل أن يعيد التأكيد ، وهو يتطلع إلى محمد السويدي ، على ذكر اسمه . . فمن يدري ، فقد يصل إلى سمع المعنيين بالأمر ، فالحكايات ، هنا ، كثيرة عن «شعراء» محليين ، وعرب أيضاً ، تلقوا أعطيات معتبرة (مالاً ، سيارات ، قطع أرض) على قصائدهم التي تمتدح الشيخ زايد بوصفه والد الإمارات والإماراتيين .

# تل مرعب

لا بدَّ أن لاسم هذا التل ، الذي ينطقه الإماراتيون بكسر الميم لا بضمها ، علاقة بالرعب . إنه تل رملي ضخم ، بل أضخم تل رملي أراه في حياتي ، تنبسط رماله وتتجعد ، حسب هبوب الرياح ، ولكنه ليس تلاً مرعباً بالمعنى المخيف للكلمة ، اللهم ، إلاّ إذا تصورناه في ليل الأزمنة القديمة ، حيث لم يكن هناك ضوء أو حركة حوله .

إنه ، الآن ، ليس كذلك . لم يُترك هذا التل الرملي الكبير الذي يصعب الوصول إلى قمته ، على الأقدام ، إلاّ بشق الأنفس لحالته الأولى ، فقد أصبح اليوم موضعاً لمسابقة رياضية طريفة ، تجتذب إليها متسابقين إماراتيين وأجانب ، وتتنافس شركات صنع الدراجات لتكون علاماتها المسجلة حاضرة في هذه المسابقة التي اتخذت طابعاً دولياً . ولعل فرادة هذا الجبل هي التي أوحت لبعض عشاق الرياضة والمغامرات في دولة الإمارات بإقامة سباق دراجات لاقتحامه .

يرتفع «تل مرعب» نحو 290 متراً عن سطح البحر ، وهو يعد أعلى جبل رملي طبيعي في الشرق الأوسط ، والثاني في العالم

بعد تل يشبهه يقع في صحراء «كاليهاري» .

يبدو التل ، مجاراة لاسمه الإماراتي ، جبلاً صلداً ، ثابتاً من بعيد . صحيح أن لونه الرملي وتموجاته يعطيان انطباعاً أكيداً بمادته الرملية التي لا يخالطها حجر واحد ، لكنه يبدو ، مع ذلك ، راسخاً ، ومهيباً . الاقتراب منه ، ومحاولة صعوده ، هما اللذان يؤكدان لك أنك أمام كتلة رملية شبه عمودية ، فكلما حاولت الصعود إلى الأعلى غَرَزْتَ . ستغوص في الرمال حتى الركبة ، وبعد لأي ، بعد لهاث ، وتقطع أنفاس ، ستجد نفسك ترجع إلى الوراء .

كان «تل مرعب» مُعدّاً للمغامرة .

التجهيزات لهذه المسابقة الطريفة من نوعها بين سباقات السيارات والدراجات النارية كاملة : المنصات التي سيجلس إليها المحكمون والضيوف منصوبة تعلوها بروجكتورات تنهل طاقتها من مولدات كهربائية متنقلة ، أكشاك الطعام جاهزة ، الخيم التي سيقيم فيها المتسابقون مشرعة ، الكراسي البلاستيكية البيض مصفوفة فوق بعضها البعض . كل شيء جاهز بانتظار المتسابقين وجمهورهم .

لكن لا أحد في المكان .

ثمة شاب آسيوي خرج من غرفة مسبقة الصنع عندما سمع توقف سياراتنا والضجة التي أحدثناها في المكان الذي يغشاه صمت مطبق .

لم يكن ، كما هو متوقع ، يعرف العربية ولا الإنكليزية ، بل تلك اللغة الهجين التي طورتها العمالة الآسيوية للتعامل مع

«المواطنين» و«الوافدين» العرب ، وهي ، كما لاحظت ، كافية لتصريف أعمال لا تحتاج مهارة أو حتى حواراً حقيقياً .

فهمنا منه أنه يعمل حارساً لدى الشركة التي تقف وراء هذا المشروع ، كما فهمنا أن السباق سيقام بعد أيام .

وهذا كل شيء .

كنت أتصور أن السباق يتعلق بدراجات نارية عادية ، ولكن لم يكن ، كله ، كذلك .

امتطى الشاب الآسيوي دراجة لها أربع عجلات ، كتلك التي شاهدت الراعي الآسيوي في الطريق إلى «ليوا» يقودها وراء قطيع من الإبل ، ليرينا ، ربما ، ما لم يستطع قوله بلسانه .

هذا السباق الذي يقام تحت شعار : «تحدي القمة» ترعاه شركة المشروبات الغازية «رد بول» ، ويشارك فيه عدد كبير من المتسابقين المحليين والعرب والأجانب . ويبدو أن الشباب الإماراتي المولع بالسيارات والدراجات النارية والسرعة هم الذين ينعقد لهم لواء السبق ، فقد فازوا بالمراتب الأولى في الدورتين السابقتين .

يكاد أن يكون التل من الجانب الذي ستتسلقه الدراجات (والسيارات أيضاً) على شكل زاوية قائمة ، لكني علمت أن زاوية الانحدار تبلغ 60 درجة .

لم يبق لنا ، بعد محاولات فاشلة من بعضنا لتسلق التل ، إلاَّ أن نتأمل هذا النصب الرملي العملاق في ضحى راحت فيه الشمس تشمر عن سواعدها النارية .

***

تركت زملائي ورحت أمشي بعيداً عن التل . ورائي صحراء الربع الخالي .

أخذت زجاجة مياه معدنية وشرعت أخبّ في الرمل . هنا تعرف ماذا يعني الفراغ الهائل الذي لا تنبت فيه شجرة ولا يرتفع ظل ولا يمر أحد . التل هو العلامة الوحيدة في هذا الصوب ، إن تركته ورحت تمشي فسوف تفقد العلامة التي تدلك إلى الطريق . الصحراء ، هنا ، مثل البحر . مثل المحيط . فمن يضع علامة في البحر؟ بأي شيء تهتدي في تلاطم المياه وانفتاح الأفق على المجهول؟ الصحراء كالبحر . متاهة وعطش . لا أدري كم مشيت ولكني ، على الأغلب ، لم أبتعد كثيراً عن التل . شعرت ، مع ذلك ، بالضياع والعطش . الفكرة نفسها : أنني على حدود الربع الخالي أصابتني بالظمأ ، وأشعرتني بالضياع وانعدام جدوى الحركة ، فإلى أين أتجه؟ بدوت في تلك المفازة غير النهائية من أمواج الرمل مثل ذرة رمل . صغير وضائع «تطوعيٌّ» . لن ينفعني اسمي لو فُقدت هنا . فمن يناديه؟ ولا صوتي ، فمن أنادي؟ سرعان ما راحت ترتفع حرارة زجاجة المياه المعدنية التي كنت أحملها . جربت ، لبرهة فقط ، كيف يكون الضياع في التيه الرملي . كيف تكل القدم وتنخدع العين ويجف الحلق قليلاً .

# الخروج من «ليوا» إلى «مليح»

سأتساءل بعد عودتنا إلى أبوظبي :

هل أوقفت رحلتي إلى «ليوا» وجوارها ، معرفتي بالمكان الإماراتي (الظبياني تحديداً) على قدميه ، بعد أن كان واقفاً على رأسه ، مستعيراً ، هنا ، وصف الماركسيين لديالكتيك هيغل؟

الجواب : نعم ولا .

نعم ، لأنني استطعت أن أتصور انطلاقة أولئك الرواد الأوائل من «ليوا» لإقامة موطئ قدم على ساحل لم يظن أحد منهم ، بالتأكيد ، أنه سيصير ما هو عليه الآن .

ولا ، لأن «ليوا» التي انطلقوا منها لم يبق منها سوى آثار قليلة ، متناثرة ، لا تكاد ، وحدها ، تشكل رواية متماسكة لهم ولمكانهم ، فـ «ليوا» الراهنة لا تشبه «ليوا» بني ياس القديمة التي كانت مساكنها من سعف النخيل ، وثروتها التمر والماشية ومشتقات الحليب .

الأثر الوحيد الباقي هي تلك القلاع القليلة التي جرى ترميمها ، لاحقاً ، لتصمد أمام امتحان زمن لم تهيأ له . لم تقم ، هنا ، دولة ذات سلطان لتترك أثرا كالذي يلمسه المرء في داخلة

عُمان ، فـ «ليوا» لم تكن أكثر من واحة رحيمة في قلب صحراء ملتهبة تصل الحرارة فيها صيفاً إلى نحو 50 درجة مئوية في الظل!

كل شيء كان قليلا ، لكنه ثمين : الماء ، الأشجار ، النباتات ، حيوانات البر وطيوره .

يمكن لتلك القلاع القليلة الباقية في «المارية الشرقية» و«المارية الغربية» ، ولـ «حصن الميل» ، و«قلعة القطوف» ، و«المزيرعة» التي أقيمت للدفاع عن الحياة في صحراء تعزف فيها الرياح الهوج أنشودة العزلة القاسية ، أن تكشف لنا جانباً من تلك النشأة البسيطة للقوة وسط ظروف قاهرة .

قلاع قليلة

وبضع آبار قديمة ،

أشجار نخيل محاطة بمصدات رياح

ورمال ذهبية متموجة .

هذا ما تبقى من «ليوا» الأولى .

عدا ذلك ، كل شيء تغير .

فإذا كانت الغاية من الرحلة إلى «ليوا» الوقوف على المكان الأول ورؤية تضاريسه ، وموقعه على الخارطة التي ستعرف لاحقاً باسم «إمارة أبوظبي» ، فقد تحقق لي ذلك .

لكن الفراغات ظلت كبيرة .

فمن هم «بنو ياس»؟

كيف ولماذا ومتى زحفوا من واحتهم النائية هذه ، ذات المياه العذبة وأشجار النخيل ، على ضآلة هذين العنصرين ، ليقيموا في

جزيرة تدعى «مليح» (اسم التصغير المحبب لدى البدو للدلالة ، كما هو واضح ، على ملوحة مياهها)؟

هذه الأسئلة لم تجب رحلتي إلى «ليوا» إلاّ عن بعض شواردها .

ولعل المدونات والروايات التاريخية ، وحدها ، القادرة على ما لم يستطع رفاق رحلتي الإماراتيين الإجابة عنه ، ولكن العربي من هذه المدونات قليل ومتضارب ، والأجنبي كثير ، غير أنه لم يحفل بالأنساب والأصول (والاجتماع بالعموم) قدر اهتمامه بالجانب الاستراتيجي للمكان .

فمن هم «بنو ياس» الذين ينتسب إليهم سكان «ليوا» القدماء ، ومؤسسو إمارتي أبوظبي ودبي؟

هناك أكثر من رواية حول أصول «بني ياس» ، واحدة تردهم إلى عُمان والثانية إلى نجد .

فالمؤرخ العُماني السيابي ، يقول إنهم من القبائل المعروفة جيداً في عُمان ويرجع نسبهم إلى ياسر بن عامر بن صعصعة ، فيما يردهم كتاب «قصر الحصن» إلى نجد ، ولكنهم رحلوا منها واستقروا ، نهائياً ، في البلاد الممتدة بين «البدع» (الدوحة ، عاصمة قطر حالياً) وواحة «البريمي» قبل ثلاثة قرون .

لكن مؤرخاً عُمانياً آخر مرموقاً يدعى أبو بشير بن حميد السالمي يتوسع أكثر في مكونات هذه القبلية فيقول إنها تتكون من البيوتات التالية : آل بوفلاح ، الظواهر ، آل بومهير ، آل بوفلاسا ، السودان ، محاربة ، المزاريع ، الرميثات ، المرر ، القبيسات ، والكلُّ ،

بحسب السالمي ، «عصبة بني ياس حرباً وسلماً» .

وكل الروايات تجمع على أن آل بوفلاح هم أمراء «بني ياس» ، الذين يردهم ، السالمي من دون تأكيد ، إلى «بني هلال» .

وحسب السالمي فقد تأسست أول سلطة لبني ياس في صحراء «الظفرة» عام 1762م ، وكان أول من تولى إمارة القوم هو «شخبوط بن ذياب» ، لكن الأمر يتعلق بتأسيس أبو ظبي نفسها ، وليس إمارتهم في «ليوا» التي لا بد أن تكون أسبق على ذلك .

ويقتبس كتاب «قصر الحصن» عن جي . بي . كيلي الأستاذ في جامعة ويسكونسن الأمريكية القول إن سيطرة «بني ياس» ، على صحراء «الظفرة» يرجع إلى ثلاثة قرون مضت . أما عن تركيبة ما يسميه «اتحاداً قبلياً» فيقول «كيلي» إنه يختلف عن التركيب العشائري للقبائل العربية . فالمعروف أن القبيلة العربية تتكون من مجموعة عشائر ، فيما تنقسم العشيرة الواحدة ، إلى صدور وبطون وأفخاذ ، لكن هذا «الاتحاد» (يقصد بني ياس) يجمع بين قبائل متعددة لا ترتبط ، بعضها ببعض ، بصلات دم واضحة .

لاحظت أن معظم الظبيانيين الذين تحدثت إليهم يرفضون فكرة كون «بني ياس» اتحاداً قبلياً جمعته السكنى والمصالح والأخطار المحدقة بالمكان وليس القربى وعلاقات الدم . . إلى درجة قال لي سعيد محمد كزار المهيري : أنت من أصول بدوية ، فهل سمعت في حياتك عن شيء اسمه «اتحاد قبلي»؟

فقلت له : كلا . ولكني سمعت عن أحلاف تقام بين قبائل لأسباب تتعلق بأخطار تحدق بمجالها الحيوي من سكنى وماء وكلأ .

فرد سعيد : ولكن الذين يتحدثون عن قبائل متحدة تحت اسم «بني ياس» إنما يتحدثون ، في الواقع ، عن أفخاذ وبطون لقبيلة واحدة . ثم قال كأنه يكلم نفسه : اتحاد قبلي؟ ما هذا الكلام الفارغ؟!

يرجع كتاب «قصرالحصن» الذي يعتمد بالكامل ، تقريباً ، على الوثائق الحكومية الإنكليزية والكتابات التي سطَّرها بحاثة أجانب عن نشأة وتطور الإمارة في أبوظبي ، قبيلة «بني ياس» إلى صحراء «الظفرة» التي تعدّ امتداداً طبيعياً لـ «الربع الخالي» حيث قامت في «ليوا» بسبب توافرها على المياه أول مستوطنة لهذه القبيلة وحلفائها الآخرين مثل «المناصير» ، وظلت كذلك إلى أن تم «اكتشاف الماء» في جزيرة أبوظبي .

لكن الوجود الدائم لبني ياس في «ليوا» لا يعني أن أفراد هذه القبيلة لم يكونوا يجوبون المكان لتنويع مصادر الرزق الشحيحة جداً ، فأخذ قسم منهم ينسلخ عن حياة البداوة ، ليعمل في صيد الأسماك على الساحل ، واتخذ ، هؤلاء لأنفسهم نوعاً من المقرات المؤقتة بين جزيرة أبوظبي ودبي اللتين لم تكونا مأهولتين ، آنذاك ، بالسكان .

كانت سواحل الخليج العربي تشهد ، في تلك الفترة ، صراعاً بين قوتين بحريتين أوروبيتين هما بريطانيا وهولندا ، بعد أن فقدت البرتغال ، القوة البحرية الأوروبية الأكثر نفوذاً في سواحل الخليج العربي ، سيطرتها على آخر معاقلها الخليجية على يد العمانيين .

لم تكن جزيرة أبوظبي تمثل إغراء لأي من القوى الأوروبية في ذلك الوقت .

أتحدث هنا عن الثلث الأخير من القرن الثامن عشر .

فقد كانت أبوظبي مجرد جزيرة معزولة تتكون من خورين اثنين تصل بينهما ، من الخلف ، بحيرة من مياه البحر .

وقد أسهم الحاجز المرجاني من أمامها والصحراء الشاسعة من ورائها في عزلتها البحرية ، ومنحها تحصيناً طبيعياً ضد أي هجوم من الاتجاهين : البحر والبر .

مكان كهذا ، لا هو مرسى صالح لرسو السفن ، ولا هو مأهول بالسكان لانعدام المياه العذبة فيه ، كان مزهوداً فيه من قبل القوى التي سيطرت على الخليج ابتداء من البرتغاليين ثم الهولنديين . . وأخيراً الإنكليز الذين دان لهم هذا الشريان الملاحي الاستراتيجي لفترة طويلة .

علينا أن نتذكر هنا أن الصراع بين القوى الأوروبية الكبرى على الخليج العربي لم يكن من أجل ثرواته ، فالبترول لم يكن قد ظهر بعد ، بل بوصفه معبر التجارة الرئيس بين أوروبا والهند .

كان ذلك ، أيضاً ، في أوج نشاط شركات الهند الشرقية الأوروبية .

اسم واحد من هذه الشركات ظل عالقاً في أذهاننا اليوم : إنه شركة الهند الشرقية البريطانية . ولكن هذا الشريان البحري المؤدي إلى الهند ، وبعض الدول الآسيوية الأخرى ، كان يعج بأنشطة شركات أخرى .

كان اكتشاف ذلك مفاجأة لي ، وإليكم أبرز أسمائها : شركة الهند الشرقية الهولندية (المتحدة) ، وهي الوحيدة التي تقاسمت

نفوذاً واسعاً ومنافساً ، في آن ، مع الشركة البريطانية ، شركة الهند الشرقية السويدية ، شركة الهند الشرقية الدنماركية ، شركة الهند الشرقية التابعة للنمسا الهولندية (التي تسمى اليوم بلجيكا) .

لم يكن معظم هذه الشركات تابعاً لحكومات بلاده ، بل شركات تجارية خاصة أنشأتها البرجوازية الصاعدة في أوروبا ، ثم ما لبثت أن آلت إلى الحكومة مع تحول مغامرات النهب الأوروبية إلى سياسة استعمارية رسمية .

ولكن ذلك لا يعني أن هذه الشركات ، وبالأخص البريطانية منها ، لم تؤسس لنفسها جيشاً خاصاً بها ، فلكي تديم تجارتها وتحفظها في أرض غريبة وبعيدة عنها ، كالهند ، أو لتأمين مرورها في شريان بحري يعج بمن تصفهم الخطابات الأوروبية بـ «القراصنة» ، كالخليج العربي ، كان لا بد من عسكر لحماية التجارة .

كانت السفن التجارية تمر في هذا الشريان البحري ، ولكنها لم تقم إلاَّ ببعض الاتجار مع السكان المحليين ، خصوصا باللؤلؤ ، عدا ذلك فقد تعاملت مع هذه المحطات الخليجية كمرافىء تتزود منها بالماء والغذاء ، أو كنقط استراتيجية على الخط المؤدي إلى أمكنة النهب الكبير : الهند ، إندونيسيا وغيرهما من البلدان الآسيوية .

وفي الوقت الذي كان ذياب بن عيسي يضع أول خطوة لقومه على جزيرة معزولة لا تتوقف فيها السفن ولا تشكل تهديداً لها ، كان هناك على بعد مئة ، أو مئة وخمسين ميلاً جنوباً ، واحد من أقوى أقوام الخليج في ذلك الوقت : «القواسم» . فهذا اسم ، ما إن

يُنطق ، حتى يبعث الرعب في الأساطيل التي كانت تعبر الخليج .

كان الهجوم على السفن الغربية التي تعبر هذا الشريان البحري يسمى أعمال قرصنة ، وسيعتمد كثير من الذين كتبوا عن تاريخ الساحل العربي هذه التسمية في وصف أنشطة «القواسم» في مجالهم البحري .

فها هو الكاتب السوري رياض نجيب الريس ، الذي عرف منطقة الخليج العربي باكراً ووضع أكثر من مؤلَف مهم عنها ، يقول في كتابه «صراع الواحات والنفط» : «إن غياب قوة بحرية ، مقيمة وضاربة في الخليج ، إبان القرن التاسع عشر ، حوَّل سكان هذه الشواطئ ، إلى اتخاذ القرصنة صناعة دائمة ورابحة ، حتى أطلق على الخليج اسم ساحل القراصنة . وفي مستهل القرن التاسع عشر ، أصبحت أساطيل القراصنة العرب من القوة والتنظيم بحيث أنها كانت تهاجم السفن التجارية المارة في الخليج من دون خوف من انتقام أو رادع . ولما نجحوا ، اندفع القراصنة العرب ، فمدوا نشاطهم وحركة أساطيلهم إلى الشواطئ الجنوبية للجزيرة العربية حتى البحر الأحمر وشواطئ الهند . وكان معظم غنائمها سفناً تحمل الذهب والفضة إلى الهند من أوروبا ، أو عائدة بالحرير والتوابل والمجوهرات» .

ويضيف الريس : «إن الاسم الأبرز بين هؤلاء القراصنة هم قبيلة القواسم» التي يصفها بـ «سيدة البحار تلك الأيام وزعيمة القراصنة» .

وكان لهذه القبيلة العربية الضاربة التي تتمركز في عاصمتها

الحصينة رأس الخيمة ، حسب رياض الريس ، مراكب ذات نوع فريد ، ومصنوعة بشكل يسهل عليها الدخول إلى أي مكان بالعشرات من الخلجان الصغيرة المنتشرة على الشاطئ ، ولم يستطع البرتغاليون ولا الهولنديون إخضاع القواسم لسيطرتهم أو الحد من «القرصنة» .

صحيح أن رياض الريس يتناول ، في كتابه المشار إليه ، الفترة التي أسست لقيام دولة الإمارات العربية المتحدة والمخاضات العسيرة التي عرفتها تجربة لمّ الشمل الخليجي في إطار سياسي واحد قبيل الاستقلال عن بريطانيا ولا يتوقف عند التاريخ السابق على ذلك إلاّ كخلفية بعيدة ، أو كتمهيد للدخول في جدل اللحظة الراهنة ، إلاّ أنه ، لم يسائل ، للأسف ، هذا المصطلح الشائع في الأدبيات الأوروبية ولا تحفّظ عنه ، فالقرصنة الفعلية ، كما عبَّر عن ذلك بشيء من الانفعال محمد السويدي ونحن نناقش مفاصل من تاريخ الخليج ، هي التي قام بها البرتغاليون ، ثم الإنكليز .

«فمَنْ ذهب يغزو مَنْ ، ومَنْ قرصن مَنْ؟»

قال السويدي ، ثم أضاف : «نحن ، للأسف ، نكرر ما يكتبه الآخرون عنا . . ولكن إن أردت أن تعرف من هم القراصنة الفعليون اقرأ كتاب المؤرخ الأمريكي ويل ديورانت «دفاع عن الهند» ، فهو يصف ما قام به البريطانيون في شبه القارة الهندية بأنه أكبر عملية نهب في التاريخ» .

سأتوقف أمام هذه النقطة ، لاحقاً ، وأعود ، الآن ، إلى «بني ياس» الذين أخذوا يظهرون ، كقوة جديدة على الساحل ، ولكن من

دون أن يوصموا بهذه الكلمة ذات الرنين المفزع : «القرصنة» ، فـ«بنو ياس» لم يشكلوا قوة بحرية ضاربة ، بل لم يعرفوا البحر إلاّ كصيادين دفعهم ضنك العيش في الصحراء للخروج إلى الساحل .

«بنو ياس» قبيلة بدوية اعتمدت ، في حياتها ، على الماشية . والبدو ، إجمالاً ، لا يعرفون البحر ، ولا يثقون فيه . الرمال هي بحرهم ، هي متاهتهم العظمى ، ولكنهم يعرفون في هذا البحر من الرمال ، في هذه المتاهة الصفراء ، أين يضعون خطاهم الحذرة .

# اكتشاف الماء.. في «مليح»

هكذا كان يمكن لبني ياس أن ينتقلوا ، رويداً رويداً ، من قلب الصحراء إلى الساحل من دون أن يلفتوا النظر ، أو يشكلوا طرفاً في لعبة القوة التي يشهدها الساحل . ولكن لن يتم لهم ذلك إلاّ بعد أن يقعوا على ما يديم هذا البقاء : اكتشاف الميـــاه .

هناك حكاية ذات شخوص وحبكات مختلفة عن اكتشاف الماء الذي سيغير وجوده ، نهائياً ، اسم هذه الجزيرة ومصائرها ، تتردد في الكتابات التي أرّخت للمكان وعلى ألسن الأهلين في أبوظبي . تقول الحكاية ، في إحدى رواياتها ، إن الشيخ عيسى بن ذياب شاهد ظبياً وهو يعبر الجزيرة من حاجز رملي ضيق ، فتعقبه حتى قاده الظبي إلى نبع ماء . غير أن رواية أخرى تنسب اكتشاف الماء إلى صيادين من «بني ياس» كانوا يقيمون في منطقة قريبة من الجزيرة ، شاهدوا ذات يوم ظبياً يعبر من البر الرئيسي إلى الجزيرة ، فتعقبوه ، لكنهم فقدوا أثره . ويبدو ، حسب الرواية ، أنهم تلكأوا هناك إلى أن جاء المدّ الذي احتجزهم في الجزيرة ، فوقعوا ، أثناء تجوالهم فيها ، على آثار الظبي مرة أخرى ، فتتبعوها حتى وصلوا إلى نبع كان الظبي يرتوي منه .

لم تكن جائزة الصيادين المحتجزين في جزيرة غير مأهولة اصطياد الظبي الشارد (لا بدّ أنه كان وليمة دسمة لهم) بل اكتشفوا ما لم يكن موجوداً في ظنهم من قبل على هذا الجزيرة القاحلة : الماء العذب . فسمي المكان ، تبعاً لذلك ، أبو ظبي . . أي صاحب الظبي أو الذي فيه الظبي . . وهذا النوع من التسميات شائع في العاميات العربية ، خصوصاً ، في الخليج والعراق .

لم تعد «مليح» ، والحال ، مليحاً بعد العثور على الماء العذب!

ستكون أبوظبي وليدة ثلاثة اكتشافات تفصل بينها عقود طويلة من الصراع مع قوى الطبيعة القاسية ، والمحيط المتصارع بدوره ، والضنك وقلة ما في اليد .

ثلاثة اكتشافات ستصنع ، فيما بعد ، أبوظبي :

ـ المياه للبقاء .

ـ اللؤلؤ لعيش أكثر انبساطاً .

ـ البترول لنقلة ستغير وجه الأرض والسكان والمحيط بأسره .

ولكن بين اكتشاف الماء واكتشاف البترول سيكون هناك قرابة قرن ونصف القرن ستتوطد فيه سلطة «بني ياس» على جزء من ساحل لم تتوقف فيه الاضطرابات داخل الكيانات القبلية العربية التي تطل عليه ، أو الصراعات مع القوى الإقليمية أو الدولية الطامعة فيه ، ولن يكون «آل بوفلاح» بمنجى من ذلك .

هذه أوقات لا ريب ، قادمة ، بكثير من الوعود والخيبات والقلاقل والاستقرار .

أما الآن ، فإننا ما نزال في زمن ذياب بن عيسى ، في الربع

الأخير من القرن الثامن عشر ، حيث استطاع الرجل أن يؤمن موطئ قدم لقومه في مكان معزول ، وغير مطموع فيه ، على الساحل ، وستتراوح إقامته بين مقره الدائم في «ليوا» ، بغية توطيد سيطرته وسط منافسات على المشيخة ، وجزيرته الجديدة من أجل الحصول على «القلاطات» (الهدايا) وجباية الضرائب من مواطنيه الذين اتخذوها مسكنا لهم .

سيتمكن ذياب بن عيسي من انتزاع اعتراف به من قبل عائلته المباشرة و«بني ياس» ، بالعموم ، كـ «شيخ تميمة» ، أي تام ، كامل ، لا منازع له .

غير أن هذا الاعتراف لن يدوم طويلاً ؛ إذ سيبرز اسم «هزاع بن زايد» ، أحد أفراد عائلته من المقيمين في الموطن الجديد (أبوظبي) كمنافس خطير له ، وسيتمكن من تأليب بعض القبائل عليه .

كان هزاع بن زايد يزور البحرين عندما علم أن الشيخ ذياب بن عيسى وصل إلى أبوظبي لإنهاء تمرده وحمله ، مع ذويه وأنصاره ، إلى «ليوا» ، ليكون ، على الأغلب ، تحت أنظاره ، فسارع عائداً إلى أبوظبي ، وتمكن من قتل ذياب بن عيسي في معركة وقعت عام 1793 .

ويبدو أن مقتل الشيخ ذياب قد قسم «بني ياس» قسمين : قسم التفَّ حول ابنه «شخبوط» الذي أخذ موقع والده في المشيخة ، والثاني أيد المتمرد «هزاع بن زايد» ، لكن «شخبوط» تمكن من الانتقام لمقتل والده بقتله «هزاع» وإنهاء الانقسام في «بني ياس» . وبعد عامين على هذه الواقعة انتزع ، هو أيضاً ، اللقب الذي حمله

والده : «الشيخ التميمة» .

وسيكون شخبوط بن ذياب أول زعيم من «بني ياس» يتخذ أبوظبي مقراً دائما لحكمه ، ليقترن ، بذلك ، تاريخ هذه الجزيرة المعزولة باسم « نهيان» ، الجد الأكبر للعائلة الحاكمة حتى اليوم .

وتؤكد الروايات التي أرّخت لتاريخ أبوظبي أن شخبوط بن ذياب الذي حكم بين عامي 1793 و1816 بدأ بناء «قصر الحصن» عندما لم يكن في عاصمة مشيخته الوليدة سوى صف واحد من أشجار النخيل وعدد قليل من البيوت المشيدة من السعف .

ولعل أساس «قصر الحصن» الذي يتوسط أبو ظبي اليوم هو البرج الطيني الذي أقيم في عهد ذياب بن عيسى لحماية بئر المياه العذبة التي اكتشفت عام 1761 ، فأصبح ، بعد الإضافات التي قام بها شخبوط بن ذياب ، يضم بين جنباته عائلة الحاكم وحاشيته ، وحصناً منيعاً لحماية مدخل المستوطنة الصغيرة التي بدأت تتوسع في الجزيرة .

وقد تكون مصادفة أن يحمل اثنان من حكام أبوظبي اسم «شخبوط» في منعطفين حاسمين : شخبوط بن ذياب أول حاكم يقيم في الحصن ويضع البنية الأولى للإمارة على جزيرة أبوظبي ، وشخبوط بن سلطان آخر حاكم من «آل بوفلاح» يتخذه مقراً وسكناً . مع شخبوط بن ذياب ستصبح أبوظبي عاصمة لقبيلة «بني ياس» وحلفائها وقوة محسوبة على ساحل مضطرب ، ومع إقصاء شخبوط بن سلطان ، على يد أخيه الشيخ زايد بن سلطان ،

ستبدأ تحولات كبرى في حياة أبوظبي ومحيطها الخليجي لم تنته فصولاً .

لو قدّر لعيسى بن ذياب أن يطل من الماضي على الجزيرة المحاصرة بين مياه البحر والصحراء ، لما صدق ما يرى .

فلا شيء ، في أيامه ، كان يمكن أن ينبئ بتحول جزيرة قاحلة ، بالكاد تتوافر على بئر ماء عذب ، إلى واحدة من أغنى مدن العالم وأكثرها حداثة .

# البقاء وسط الأقوياء

هذا سرد تاريخي تأسيسي لنشأة أبوظبي ، لكنه لن يكون كاملاً إلاً إذا عرفنا طبيعة وحجم القوى التي كانت سائدة ، حينذاك ، في منطقة الخليج ، وكيف تمكنت قبلية «بني ياس» ومن التفَّ حولها من القبائل القادمة من عمق الصحراء ، من بسط سيادتها على منطقة محاطة بالنزاعات والقوى الإقليمية وإدامة هذه السيادة وسط الأقوياء .

صحيح أن قبيلة «بني ياس» ، كما تؤكد الروايات التاريخية ، تحلت بالتماسك والبأس في محيطها الصحراوي ، لكنها كانت أضعف ، على ما يبدو ، من القوى الأساسية التي تقاسمت النفوذ على منطقة الخليج في ذلك الوقت ، وهي : الإنكليز الذين كانوا يرابطون على الساحل ، والوهابيون في الغرب ، وإمام عُمان و«القواسم» في الشمال .

فكيف أمكن ، لقوة أخرى ، أن تنشأ وتستمر وسط تصارع القوى الإقليمية والدولية على المجال الحيوي؟

بدا لي الأمر ، وأنا أطالع المدونات التاريخية لتلك المرحلة وقواها السائدة ، أشبه بلعبة الأكروبات .

التأرجح على حبل مشدود .

أي خطوة غير مدروسة ، تعني السقوط .

التوازن ، الحنكة ، البأس ، عند لزومه ، وحاجة القوى المتصارعة إلى مناطق عازلة ، هي التي مكّنت مشيخة «بني ياس» من الاستمرار . فإمام عُمان كان بحاجة إليهم لرد هجمات الوهابيين ، فيما الوهابيون لم يروا في تحرك «بني ياس» نحو الساحل خطراً داهماً . . أما الإنكليز فكانوا بحاجة إلى قوة من المحيط والنسيج الاجتماعي نفسهما يمكن الوثوق فيها في حربهم ضد «القواسم» وحلفائهم «الوهابيين» .

ما بدا أنه ضعف نسبي في قبيلة «بني ياس» ، التي أخذت تنتشر خارج حدودها التقليدية في صحراء «الظفرة» ، سيصبح مصدر قوتها .

كان ساحل الخليج يشهد ، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، مواجهات ساخنة بين البريطانيين الذين أقصوا الهولنديين نهائياً من هذا الشريان التجاري الحيوي ، وبين «القواسم» الذين أقضوا مضجع القوى الدولية والإقليمية المتنافسة للسيطرة على ساحل الخليج .

لن تقوى ، طويلاً ، قوارب «القواسم» الخفيفة ، المتحفزة ، كالنمور الصغيرة ، للقفز من الأخوار والشطوط الضحلة إلى المياه العميقة ، حاملة على متنها رجالاً سمراً لوحتهم الشمس ، يجذفون بعضلات مستنفرة لتعقب سفن ضخمة ، ثقيلة الحركة ، لكنها راسخة في اليمّ ، ومن جنباتها تطل مدافع من الفولاذ تقذف قللاً وبارود ونار .

ستحسم المعركة بين القوارب ـ النمور لصالح السفن الضخمة التي لا ينقطع لها مدد ، القادمة من مياه باردة ومياه دافئة لتدشن عصر الرجل الإنكليزي الأبيض بباروده وذهبه وخرائطه في أعالي البحار ، وسيتراجع «القواسم» إلى البرّ الذي لم يكونوا أسياده ، فهم نمور البحر ، لا البر .

أعود ، هنا ، إلى موضوع «القرصنة» مرة أخرى ، لأنه يفرض نفسه .

هل كان «القواسم» ذوو الأنوف الصقرية والملامح الصارمة ، على ما تصورهم مخيلتي ، الآن ، مجرد قراصنة ، نهابيّ سفن ، مروعي مارّة وعابرين في هذا الشريان المائي الذي تصارعت عليه قوى السيادة الأوروبية والإقليمية ، أم كانوا وطنيين ، غيورين على حرمة مجالهم ضد تغلغل قوى أجنبية؟

هناك رأيان يدعمان شرعية أعمال «القواسم» البحرية ، الأول لقاسميٍّ هو الشيخ سلطان القاسمي حاكم الشارقة الذي أعد أطروحة دكتواره في جامعة «إيكستر» البريطانية حول هذا الموضوع ، والثاني للمؤرخ الهولندي ب . ج . سلوت صاحب كتاب «عرب الخليج» .

يقول الشيخ سلطان القاسمي : «في نهاية القرن الثامن عشر بات من المؤكد أن تجارة شركة الهند الشرقية (البريطانية) أصبحت تعاني من تدهور ملحوظ ، وقد بدأ التنافس الذي واجتهه الشركة يتزايد ، الأمر الذي دعا إلى استخدام مبدأ الحماية ، كمبرر لإدخال البحرية الهندية في مواجهة المنافسين . وقامت الشركة بإقناع

الحكومة البريطانية لتحقيق هذه الغاية ، ولأن تجارة القواسم كانت تسيطر على مناطق واسعة داخل الخليج وخارجه فقد كانوا الهدف الرئيسي للحملة بذريعة أنهم «قراصنة» .

أما «سلوت» ، مدير الأرشيف الوطني الهولندي ، وصاحب كتاب مهم عن تاريخ القبائل العربية علي جانبي الخليج ، فيقول : إن الإشارة إلى القرصنة الحقيقية في الخليج نادرة نسبياً ، فقد كان القراصنة الحقيقيون ، وهم عادة من الأوروبيين ، يمارسون نشاطهم في المحيط الهندي . ولعل ما جاء في بعض الوثائق الأوروبية من أن رجال القبائل العربية هم القراصنة ، أمر مشكوك فيه . فعلينا أن نأخذ في الاعتبار أن الحرب بين البرتغاليين وبين عرب عُمان كانت مستمرة ، تقريباً ، ولهذا السبب فإن استيلاء العرب على المراكب البرتغالية يعد أمراً شرعياً تماماً ، وكان المراقبون الهولنديون يرون هجوم العرب على السفن البرتغالية عملاً حربياً طبيعياً . كانت الحرب دائمة في الخليج بين القوى المتنافسة ، وكان من الصعب التمييز بين التجارة الدولية التابعة للعدو والتجارة الدولية تحت حماية العلم الإنكليزي ، أو الشركة الهولندية (شركة الهند الشرقية الهولندية)» .

لن تعدم الأدبيات الإنكليزية ، وما دار في فلكها ، وجود ذرائع وأعمال منفردة لوصف نشاط «القواسم» ، وغيرهم من قبائل الساحل العربية ، بـ «القرصنة» ، ولكني أعود إلى تساؤل محمد السويدي البديهي فهو يقول : «إن القبائل العربية لم تمارس نشاطها أمام الشواطئ البريطانية على بعد آلاف الأميال عن مياهها

الإقليمية ، بل البريطانيون هم الذين فعلوا ذلك ، وأعطوا لأنفسهم حق تسمية وتصنيف الأشياء والأفعال . فعندما يقول القوي إن ما يفعله الضعيف «قرصنة» فهو يصبح «قرصنة» ويدونه التاريخ ، الذي يكتبه القوي والمنتصر ، «كقرصنة» .

المهم أن قضاء الأساطيل الإنكليزية على بؤرة الخطر التي كان يمثلها «القواسم» عام 1819 ، عجل ببروز قبيلة «بني ياس» وتحولها نقطة توازن واستقطاب على ساحل الخليج . وترجع معظم المدونات التاريخية التي تناولت تلك الفترة الفضل في تحول «بني ياس» وحلفائها إلى كيان ترنو إليه القوى الإقليمية والدولية للشيخ شخبوط بن ذياب الذي كان يتحلى ، على ما يبدو ، بنظرة استراتيجية ثاقبة ، أثبتت الأيام ، أنها بعيدة المدى أيضاً .

سأتوقف ، سريعاً ، عند الخطوط الرئيسية لهذه الاستراتيجية التي بدأت ملامحها تتضح في عهد شخبوط بين ذياب وستترسخ ، على نحو أشمل ، في عهد حفيده زايد بن خليفة ، مجملاً إياها بما يلي :

ـ الاعتماد على القبائل البدوية في صحراء «الظفرة» ، بوصفها احتياطاً استراتيجياً يمكن استدعاؤه عندما تحين الحاجة إليه .

ـ سياسة مرنة مع «الوهابيين» قائمة على عدم الاستفزاز ، ولكن ، أيضاً ، من دون التخلي عن «المذهب المالكي» والتحول إلى مذهبهم المتشدد ، كما فعلت قبائل أخرى في الخليج مثل «القواسم» ، و«النعيم» ، و«آل بوشامس» .

ـ تعزيز أواصر الصداقة مع إمام عُمان لخلق نوع من التوازن في

وجه الوهابيين .

ـ عدم استعداء «القواسم» ولكن من دون مجاراتهم في أنشطتهم البحرية التي تستفز البريطانيين .

ـ علاقات ود وتجارة مع الإيرانيين بوصفهم القوة الأكبر على الجانب الشمالي للخليج .

ـ وأخيراً ، تقدير أهمية الوجود الإنكليزي في الخليج ، والعمل على كسب ثقة التاج البريطاني .

لم تكن تلك السياسة ، كما تؤكد الروايات التاريخية ، خياراً سهلاً من قبل مشيخة لم يتجاوز عدد سكانها أكثر من ثمانية آلاف نسمة ، خصوصاً إذا عرفنا أن الوهابيين تمكنوا ، يومذاك ، من بسط سيطرتهم على الساحل الشرقي للجزيرة العربية كله بدءاً من «البصرة» وصولاً إلى «دبا» ، كما أخضعوا سلاطين عُمان من خلال غزواتهم للأراضي العمانية ، انطلاقاً من قاعدتهم الاستراتيجية في «واحة البريمي» ، التي تواصلت بين عامي 1800 و1869 .

ويتضح من مطالعة مدونات تلك الفترة أن «بني ياس» هم القوة الوحيدة ، في ذلك المحيط ، التي لم تخضع للوهابيين ، ولم تدفع لهم زكاة أو أتاوة إلاّ مرة واحدة ، فيما فعلت ذلك ، تقريباً ، كل مشيخات الساحل الشرقي للخليج بمن فيها عُمان .

وبفضل هذه السياسة المرنة والعلاقة التي لم تتعرض لاهتزازات كبيرة مع العُمانيين ، وبتشجيع بريطاني مدروس ، حافظ «بنو ياس» على مشيختهم الوليدة ، الفقيرة أيضاً ، وسط عالم الأقوياء على البرّ والساحل .

ويبدو أن سياسة تجنب المواجهة المباشرة مع الوهابيين (الذين سيعرفون بـ «السعوديين» ابتداء من العقد الثالث من القرن الماضي عندما يوحدون ممالك وأقاليم وسط الجزيرة العربية وبعض سواحلها تحت راية مملكتهم العربية السعودية) استمرت ، شداً وجذباً ، حتى عصرنا الراهن ؛ إذ تخلى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ، عن «خور العديد» للسعوديين مقابل احتفاظ أبوظبي بقرى «واحة البريمي» الست بما فيها «العين» ، البلدة الرئسية في الواحة التي شغل «زايد» فيها منصب «نائب الحاكم» أثناء حكم أخيه «شخبوط» ، إضافة إلى اعتراف السعوديين بدولة الإمارات العربية المتحدة .

كان الشيخ زايد يأمل ، كما أخبرني إبراهيم العابد ، بانتزاع اعتراف سعودي رسمي مقابل تنازله عن هذه المنطقة التي يبلغ طولها نحو ٢٥ كليومتراً وتربط بين أبوظبي ودولة قطر ، فالسعودية هي الدولة الأقوى في محيطه والأكثر تأثيراً على مصائر دولته الوليدة ، وبدا له الهدف جديراً بهذه التضحية .

أخبرني «العابد» كذلك أن «تنازل» الشيخ زايد لم يكن بلا ضغط كبير من قبل السعوديين الذين قصفوا المنطقة بالطائرات أكثر من مرة ، ولكن من دون أن تعلن الإمارات عن ذلك .

مفيد أن نذكر ، هنا ، أن السعودية ، بحصولها على هذه المنطقة التي تضم جزءاً من «سبخة مطي» ونحو 80 في المئة من «آبار الشيبة» النفطية ، قد قطعت التواصل الطبيعي بين الإمارات ودولة قطر ، لكن هذا ليس كل الحكاية ؛ إذ تتوافر «آبار الشيبة» على

احتياط نفطي مؤكد قدره 15 مليار برميل إضافة إلى نحو أربعة - خمسة مليارات غير مؤكدة ، هذا فضلاً عن نحو 650 مليون متر مكعب من الغاز الطبيعي لم تستغل بعد!

ويبدو أن المشروع القطري الإماراتي لإقامة جسر يربط بين البلدين ، بعد أن انقطع التواصل الطبيعي بينهما ، كان الصاعق الذي فجّر هذه الأزمة الصامتة التي تعود جذورها الى تنازل الإمارات عن «خور العديد» الذي وثّقَ في اتفاقية عقدت في جدة عام 1974 .

لكن الإمارات ، أغلب الظن ، لم تعد تخشى «الأخ الأكبر» ، فهي شبّت عن الطوق ، كما أن «الأخ الأكبر» ، في ظل المناخ الدولي الذي نعيشه الآن ، لم يعد يخيف كما كان عليه الحال من قبل . فلم يعد «وهابيو» هذه الأيام كـ «وهابيي» القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين .

تغيرات كثيرة حدثت في المنطقة والعالم ، ستجعل إملاء إرادتهم على محيطهم الإقليمي مستبعداً ، كما لم تعد أبوظبي تلك المشيخة الضعيفة ، الفقيرة ، التي كانت تتأرجح وسط عالم الأقوياء على حبل رفيع .

للخليج كله ، اليوم ، صورة أخرى ، غير تلك التي عرفها شخبوط بن ذياب أو ابنه القوي «طحنون» ، ولا هو يشبه خليج «زايد الكبير» الذي مكّن أبو ظبي خلال حكمه الطويل (1855 - 1909) من اجتياز مراحل خطرة من الانقسامات الداخلية والصراع الدائم مع الوهابيين والمشيخات على الساحل .

. . . . . .

لن يعني تمكّن «بنو ياس» ، بقيادة «آل بوفلاح» ، في إقامة كيان خاص بهم أن حياة سياسية مستقرة وذات بسطة في العيش ستعرفها مشيختهم على طول الخط ، فالصراع على الحكم داخل الأسرة الحاكمة سيعنف حيناً مع تولي شيخ ضعيف مقاليد الأمور ، وسيهدأ مع وجود شيخ قوي على رأس العائلة . أما الموارد الاقتصادية فلن يطرأ عليها تحسن ملحوظ إلاّ مع انتعاش تجارة اللؤلؤ وتحول أبوظبي إلى ميناء تجاري .

ستزدهر أبوظبي في ذروة الطلب على اللؤلؤ الطبيعي ، ولكنها ستعرف ، أيضاً ، أياماً صعبة مع انهيار الاقتصاد العالمي في ثلاثينات القرن الماضي وظهور اللؤلؤ الصناعي الياباني الذي سيغرق الأسواق ، ويحوّل أيام اللؤلؤ والغوص إلى ذكريات .

لكن النقلة الكبرى في حياة هذه الإمارة ستكون مع اكتشاف النفط في مهبّ تحولات عاصفة على مسرح السياسة دولياً وإقليمياً ، وستعرف أبوظبي ، بفضل الاستراتيجية نفسها التي وضع خطوطها العريضة شخبوط بن زايد في أواخر القرن الثامن عشر ، كيف تتكيّف معها ، بل وتفيد منها .

# حروب بعيدة

باستثناء الصحف الإماراتية التي تتوجه إلى جمهور صغير من قراء العربية وتكتب فيها نخبة من الكتاب الإماراتيين والعرب ، فإن حديث السياسة والاهتمام بما يجري في المحيط يكادان أن يكونا معدومين . عليك أن تدخل بعض مجالس «المواطنين» لتسمع طرفاً من أحاديث السياسة والشأن العام ، أو تلتقي بالمثقفين العرب الذين يعملون في مجالات الثقافة والإعلام لتواصل حديثا هو خبز الناس اليومي في معظم الدول العربية . الحياة العامة التي تراها في الشارع لا تعكس ما يرغب الزائر الفضولي في معرفته عن أهل البلاد وما يدور في عالمهم شبه المغلق . فـ «المواطنون» قلة . و«الوافدون» العرب يحاذرون الجهر في شؤون قد تؤثر على وجودهم في بلاد جاءوا إليها طلبا للرزق . فلا مقاهي رصيف ، هنا ، كما هو الحال في بيروت أو دمشق أو عمان أو القاهرة أو الدار البيضاء ، يجلس فيها الناس ويتحدثون . لا وجود لهذا النوع من المقاهي بسبب الحرارة الرهيبة والرطوبة العالية اللتين تدفعان الناس إلى الداخل المكيّف لا إلى لهيب الخارج . الفنادق و«المولات» هي التي تتولى هذه المهمة . ولكن حتى في مقاهي وبارات الفنادق أو

«المولات» لا تكاد تسمع حديثاً يتعلق بسياسة البلد نفسها ، فهذا بحد ذاته «تابو» أو ما يشبه ذلك . لكن الصحافة تسهب في تناول «القضايا القومية» . تتحدث عن فلسطين بطلاقة أكثر مما تتحدث عن الاحتلال الأمريكي للعراق . تنفرد صحيفة «الخليج» ، ربما ، عن سائر صحف الدولة الأخرى بمواصلة «خط قومي» في ما يتعلق بأمور العالم العربي . لكنه لم يعد بتلك الهمّة التي عُرفت بها الصحيفة من قبل . ثمة شيء تغير في المنطقة ، وخصوصاً مع الاحتلال الأمريكي للعراق وترسخ الوجود العكسري الأمريكي في دول الخليج نفسها . الأمريكيون قريبون . ونقدهم لم يعد بلا حذر ومداراة . إنهم حلفاء «مجلس التعاون الخليجي» ، إن لم يكن «حُماته» الذين يمسكون ، الآن ، بتلابيب المنطقة ، لا تنازعهم في ذلك قوة أخرى . هناك إيران ، بالطبع ، التي أفادت من سقوط النظام العراقي أكثر ، ربما ، مما استفادت منه أمريكا نفسها . فهي لم تتمكن من إسقاط النظام العراقي طوال ثماني سنين من الحرب الضروس التي دارت رحاها بين البلدين ، ولكن أمريكا هي التي فعلت . وبسقوط نظام صدام حسين ، بتحالف ضمني مع إيران وجماعاتها ، أو بتقاطع لمصالح البلدين ، أمسكت القوى الشيعية السياسية مقاليد الأمور في العراق . وهذا تطور مقلق لدول الخليج التي لم «تأمن» جانب إيران يوماً ، لا عندما كانت شاهنشاهية ولا عندما أصبحت خمينية . لعل هذا الأمر هو الذي دفع الدول الخليجية ، ومن بينها الإمارت التي تحتل إيران ثلاثاً من جزرها ، إلى «خفض» سقف النقد لأمريكا ووجودها في المنطقة . . بل

والدخول في «حلف المعتدلين» العرب الذي أنشأته واشنطن في مواجهة «المتشددين العرب» وحليفتهم إيران . . لكن من دون التسلح بحس تاريخي . فالتجارب الأمريكية في المنطقة ، والعالم ، لا توحي بالطمأنينة والأمان ، كما أن التعويل الكلي على أمريكا لم يكن بلا مخاطر . القلق من إيران قوي في الخليج . إنه يسري في عروق السياسة ويتخلل الأحاديث ولكنه ليس مباشراً . المداراة هي سمة السلوك هنا ، والتحفظ لغة القوم .

***

أينما كنت اليوم ، في أي بقعة في العالم ، مهما نأت وتحصنت بـ «أسوارها» ستدركك الذبذبات المتواصلة على مدار الساعة للبث الإذاعي والتلفزيوني . ولمدمن أخبار ، بحكم المهنة ، مثلي ، فإن ما كنت أفعله عندما أعود في ساعات الليل المتأخرة إلى فندقي هو التنقّل من محطة فضائية إلى أخرى .

ولكثرة المحطات العربية والأجنبية التي تهذر وتهدر بكل شيء فقد حصرت خياري بين المحطتين العربيتين اللتين تحظيان في العالم العربي ، اليوم ، بأكبر نسبة مشاهدة : «الجزيرة» و«العربية» .

كانت «حرب الفلوجة» ، والمواجهات مع أنصار الزعيم الشيعي الشاب مقتدى الصدر على أشدها في التلفزيون ، وقد وفرت هاتان المحطتان ، في إطار المنافسة المهنية والسياسية بينهما ، بثاً يكاد يكون مباشراً من أرض المعركة .

صور ومشاهد وتعليقات متواصلة ومسهبة لا تجد نظيراً لها في المحطتين الأجنبيتين الشهيرتين «البي بي سي» و«السي إن إن» .

بدت لي أخبار العراق وفلسطين اللتين يعصف بهما العنف والموت تبدأ ، هنا ، على شاشة التلفزيون وتنتهي بها . فلم ألمس طيلة الأيام التي قضيتها في إمارة أبو ظبي أثراً لها في الشارع ، اللهم ، إلاّ في النقاشات التي كانت تنعقد في مجلس محمد السويدي أو في لقاءات مع المثقفين الإماراتيين والعرب المقيمين في البلاد ، بينهم خلفان مصبح المهيري نائب السويدي في «المجمع» ذو الخلفية اليسارية .

الغلبة الكاسحة للمتحدّرين من شبه القارة الهندية وأفغانستان في الشارع ، الحياة البطيئة ، الشغف المادي والاستهلاكي الذي يطبع الحياة في هذه المدينة ، تعطي انطباعاً أن الحرب تدور في عالم آخر .

صحيح أن فلسطين بعيدة ، لكن العراق ، الذي رجّح فيه الاحتلال الأمريكي كفّة إيران ، قريب ، ولهبه قاب قوسين أو أدنى من الخليج .

بدا لي هذا اللهب الذي يتصاعد من الجغرافيا العراقية بعيداً جداً .

لهب على شاشة تلفزيون .

أسأل بعض الأصدقاء الذين يقيمون في الإمارات منذ سنين عن ضعف النقاش السياسي في الإمارات حول مصائر المنطقة ، فلا أحصل على جواب قاطع .

فهم يعزون السبب ، مرة ، إلى قلة عدد المواطنين والعرب في البلاد ، ومرة أخرى ، إلى انعدام الحركة السياسية ، تاريخياً ، في

الإمارات ، عكس ما هو عليه الحال في البحرين أو الكويت ، مثلاً ، أو (وهذا تفسير أكثر إقناعاً) إلى الحذر الذي يطبع سلوك «الوافدين» حيال كل ما هو سياسي ، وخصوصاً ما يمكن أن يتناقض مع الموقف الرسمي للبلاد .

«الوافدون» موجودون ، هنا ، لسبب آخر : العيش . . المؤقت .

يأتي العرب ، كما هو شأن العمالة الأجنبية الأخرى ، إلى بلدان الخليج لتحسين ظروفهم المعيشية . . تكون خطتهم الأولى البقاء سنتين ، ثلاث سنين ، يشدون خلالها الحزام على البطون ثم يقفلون عائدين إلى أوطانهم بحصيلة مالية تمكّنهم من الزواج ، أو بناء بيت أو إقامة مشروع صغير .

يعشيون ، هنا ، نفسياً ومادياً ، حياة مؤقتة .

فالحياة الحقيقية ، بالنسبة لهم ، هي في المكان الأول .

يَعْلَق معظمهم ، كما هي الحال دائماً ، في شبكة هذه الحياة المؤقتة ، فتجرُّ السنين بعضها بعضاً ، لكن سلوك الحياة المؤقتة ، الذي لا يلحظ انتماء عميقاً إلى المكان ولا رمي جذور فيه ، يستمر من دون تعديل . هكذا ، على ما أظن ، تتكاتف المكاسب المادية (التي لم تعد مغرية لكثيرين من هؤلاء بسبب ارتفاع تكاليف المعيشة هنا) وحذر الخطوة ، لصنع حالة فريدة من عيش مؤقت ، شبه منعدم الفاعلية خارج نطاق العمل ، لكنه عيش مؤقت طويل .

ولكن ماذا عن «المواطنين» وموقفهم مما يجري في محيطهم العربي؟

ليس من السهل أن تعرف ذلك ، لأن التزاور بين «الوافدين»

العرب و«المواطنين» محدود . فـ «المواطنون» ليسوا معتادين ، عكس ما هي عليه الحال في معظم البلاد العربية ، على التزاور ، وإن حصل تزاور فهو في «المجلس» الذي يوفر شكلاً من أشكال التواصل بين «الوافدين» العرب و«المواطنين» . في المجلس يمكنك ، بطبيعة الحال ، أن تسمع حديثاً متنوعاً ، لا يخلو من التطرق إلى الأحوال العربية الراهنة وسياسات دولة الإمارات حيالها ، لكن حتى في المجلس ، كما سألاحظ ، لا يفصح «الوافد» العربي عن مكنوناته ، فالحذر سيّد لسانه .

قلت لمحمد السويدي : يبدو أنكم مشغولون بأموركم عما يجري في العالم العربي من قضايا وتطورات؟

فأجاب : من قال لك ذلك؟

قلت له : هذا هو الانطباع الذي تكوَّن لدي من خلال احتكاكي بالناس هنا .

قال : ليس ذلك صحيحاً ، تماماً ، فأنت لم تدخل بيوتنا لتعرف ما يشغلها من اهتمامات .

فقلت له : بيوتكم ، بالنسبة لـ «الوافدين» ، ولنا نحن الذين نزوركم ، هي مجالسكم ، وهذه ، على ما لاحظت ، مهتمة ، إلى حد كبير ، بالشأن المحلي الذي تغلب عليه أمور «البزنس» أكثر من أي شيء آخر .

فقال السويدي : هذه الملاحظة قد تنطبق على المرحلة الحالية ، ولكن الأمور لم تكن كذلك من قبل . ومع ذلك هناك ، بالتأكيد ، من يتابع ما صارت إليه الأوضاع في فلسطين والعراق ويتألم لها ،

لقد كانت القضية الفلسطينية هي محط اهتمام الجميع هنا ، حتى وقعت حرب الخليج الثانية وانقسم العرب قسمين أحدهما مؤيد للعراق والثاني مؤيد للكويت . . ولا تنسَ أن الإمارات جزء من «مجلس التعاون الخليجي» الذي يضم الكويت وما كان لها أن تأخذ موقفاً مختلفاً . . ودعني أسرُّ لك بشيء ، فقد وصل إلى علم المسؤولين الإماراتيين أن صدام حسين كان يعد لغزو الإمارات كذلك . . وبصرف النظر عن حقيقة نوايا القيادة العراقية السابقة تجاه الإمارات فقد وقعت الفأس بالرأس مع احتلال الكويت .

قلت للسويدي : ولكن ما علاقة ذلك ، مثلا ، بالقضية الفلسطينية؟

فأجاب : ليست هناك علاقة مباشرة . . ولكن ، لأكن صريحاً معك . . فمنذ «اتفاقات أوسلو» وارتضاء القيادة الفلسطينية طريق التفاوض المباشر مع إسرائيل ، نما شعور ، هنا ، بأننا لا ينبغي أن نكون فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين . «أوسلو» أثّرت كثيراً على موقفنا العام ، وأضعفت موقف المؤيدين التقليديين للقضية الفلسطينية ، فلم يعد بإمكان الذين طالما طالبوا بتحرير فلسطين من النَّهر إلى البحر أن يفعلوا ذلك ، بينما القيادة الفلسطينية تتفاوض على أجزاء من الضفة الغربية وقطاع غزة .

ويضيف محمد السويدي ، الذي يهتم بحديث الثقافة والفن أكثر من أحاديث السياسة ويفضل الكتب والأسطوانات الموسيقية على الصحف اليومية والتلفزة : لكن هذا لا يعني أن فلسطين لم تعد همّاً لدى الناس عندنا ، فأمي ، مثلا ، وهي غير مسيَّسة ، تشرع

بالندب والدعاء عندما ترى ما يتعرض له الفلسطينيون على أيدي الجيش الإسرائيلي من انتهاكات يومية . . هذا أمر لم تغير فيه السياسة قيد أنملة . . إنها المشاعر العميقة للناس هنا ، وهي موجودة ، تقريبا ، في كل بيت .

لم أشك ، طبعاً ، بما قاله محمد السويدي ، وهو ابن وزير خارجية دولة الإمارات السابق و«مهندس» اتحادها كما يرى كثيرون ، ولكني لم أتخلص من الشعور بأن الأولويات ، في أبو ظبي ، وربما في غير مكان عربي ، لم تعد كما كانت عليه في العقود الثلاثة الماضية . ثمة شيء تغير في المناخ العام حيال ما نسميه «القضايا القومية» مقابل انشغال متزايد بما هو محلي . ثمة روابط تقطعت بين العرب وثمة يأس ، شبه عام ، من إمكانية فعل عربي مشترك .

وفي حالة أبو ظبي ، هناك تراجع في اهتمام «المؤسسة» نفسها بالتدخل الفعّال بما يجري في بؤر التوتر والصراع في العالم العربي ، يعزوه البعض إلى اتساع الشروخ في الجسد العربي ، ويعزوه آخرون إلى مرض الشيخ زايد الذي كان يقود مبادرات دولة الإمارات على هذا الصعيد .

. . . . . .

أغادر أبو ظبي وفي ذهني ، هذه المرة ، صورة أوضح للبلد . عرفت أشياء لم أكن أعرفها من قبل ، ورأيت أمكنة لم أزرها في السابق . ومررت في طريقي إلى المطار ، برفقة السائق اليمني نفسه ، بالقرب من «جامع الشيخ زايد» ، وكانت هناك حركة عمل نشطة حوله .

# الرحلة الثانية

2004

# ترنيمة للنخلة

لا أظن أن الإله أنكي
عندما أمر أكثر الطيور شؤماً
كي يسرقَ الكحلَ من خزانة الأمير
وينثره بين النهرين الملتفّين
كفخذين شبقتين
كان يفكّر بأكثرَ من المذاق الحلو
الذي تحلّب في فمه السماويِّ
ولم يعرف له طعماً من قبل .
سواداتٌ ثلاث : الأرضُ ، الكحلُ ، الغراب ،
صنعت أول نخلة في الكون .

***

عالية وباسقة
يا ذات الهمّة
عالية وباسقة
يا ظلةَ العابر والمقيم .
لا حاجب الكاعب يضاهي تقوّس حاجبك

ولا فمها الماثل للقبلة له حلاوة تمرتك .
عالية وباسقة
يا زينة المجلس
فاكهة الحكاية ،
زاد المسافر تحت أقمار الرحيل .

مضى عام كامل على زيارتي السابقة إلى أبوظبي . ظننت بعدها أنني اكتفيت ، بما رأيتُ ، وكتبتُ ، ولا مزيد ، ليس لأن المكان استنفد ، ولم يعد يعطي ، لمن يريد أن يرى ، شيئاً جديداً ، بل لأن الكتابة السابقة ، كانت جزءاً من مشروع أكبر عن التحولات التي طرأت على الأمكنة العربية .

لكن ملاحظتنا المشتركة ، محمد السويدي وأنا ، بخصوص قلة (إن لم يكن انعدام) الأعمال المكتوبة بأقلام كتاب عرب عن منطقة الخليج ، بينما هناك عشرات المؤلفات الموضوعة عن هذه المنطقة بتوقيع كتاب غربيين ، هي التي جعلتني أوسّع إطار كتابتي كي تصبح عملاً قائماً بذاته ، لا جزءاً من المشروع الذي كنت أنوي العمل عليه .

ربما ينبغي القول ، هنا ، إن محمد السويدي ليس من أولئك الذين يختصرون المكان (أو لأقل : الوطن) في بضع كليشيهات وشعارات تجعل منه خرافةً تحول بينه وبين حقائقه التاريخية والاجتماعية على غرار الدعاوى «الوطنية» الركيكة التي تصدح بها وسائل الإعلام في العالم العربي ، خالطة ، على نحو مُفَبْرَك ، بين التواريخ الانتقائية والرثاثة الإيديولوجية ، فرغم انتمائه العميق

لمكانه إلاّ أنه يملك حساً نقدياً حيال كل ما هو سطحي أو مزيف فيه ، وكذلك الأمر في ما يخص ديار العرب الأخرى وأحوالها الراهنة .

نحن نلتقي ، بهذا المعنى ، على أرضية موقف نقدي ، متشكك ، وأحياناً ، حائر ، تجاه الذات ولكن من دون جلدها ، أو تحقيرها ، كما يفعل ، اليوم ، بعض المثقفين العرب الذين يلغون بـ «الليبرالية» ، والليبرالية ، الحق ، براء منهم .

ورغم أننا لم نتحدث كثيراً عن علاقة بلاده بجوارها ، إلاّ أنني فهمت منه أنه ينظر إلى بلده بوصفه جزءاً من نسيج أكثر اتساعاً مما رسمته الحدود والأعلام الوطنية الحاضرة التي يبدو المكان في ضوء خطابهما الراهن ، وكأنه كان هكذا أبداً : قطعة قائمة ، مستقلة عما يجاورها . وقد رأيت وقرأت ما يؤكد تواشج المكان «الإماراتي» بمحيطه ، خصوصاً وأنني جِلتُ في بعض مناطق عُمان وكتبت عنها ، كما جِلتُ في اليمن شمالاً وجنوباً وكتبت عنهما أيضاً . ولا تخفى ، بطبيعة الحال ، العلاقة بين عُمان واليمن ، كما لا تخفى العلاقة بين عُمان والإمارات .

لكن محمد السويدي الذي التقيته في لندن قبل انطلاقي في الجزء الثاني من رحلتي إلى أبوظبي وجوارها لن يكون معي هذه المرة .

تطور آخر طرأ على هذا الجزء من الرحلة ، هو انضمام الفنان التشكيلي والمصور الأردني هاني الحوراني ، الذي جمعتنا ، معاً ، مرحلة من أهم مراحل حياتنا الشخصية في عقدي السبعينات

والثمانينات من القرن الماضي ، عندما كنا منخرطين في أطر العمل الوطني الفلسطيني .

الصدفة وحدها وضعت هاني الحوراني في طريقي مرة ثانية بعد نحو عشرين عاماً من افتراق طرقنا وتوزعنا على أكثر من مكان . فقد كنت أزور «البتراء» في صيف العام الماضي عندما رأيته بكامل معدات المصور الفوتوغرافي يتأمل «خزنة فرعون» التي صارت رمزاً طائراً للمدينة الوردية في أربعة أركان الدنيا . وها نحن نلتقي في رحلة واحدة ، ولكن مخططة ، بعد أن أبدى رغبة في أن يطوف بعدسته في الأمكنة التي سأزورها . . ليضمها إلى ألبومه العربي .

***

ليس قصد هذه الرحلة أبعد من تقليب وجوه وصور ما يبدو عادياً في نظر المقيمين ، فلن أكتشف أرضاً لم تطأها قدم من قبل ، ولن أقطع البلاد طولاً وعرضاً على ظهر ناقة ، كما فعل رحالة أجانب في فترة التحول من بيت سعف النخيل إلى بيت الباطون والحجر ، ومن الجمل إلى سيارة الدفع الرباعي ، ومن القلة في كل شيء إلى وفرة حوّلت المكان معرضاً مفتوحاً لكل ما ينتج في العالم .

لا ، ليس هذا مقصد هذه الرحلة ، أولاً : لأن المكان الظبياني (والخليجي عموماً) الذي وصفه أولئك الرحالة الأجانب لم يعد كما كان عليه ، وثانياً : لأن الفتنة بالصحراء والبداوة عند بعض هؤلاء الرحالة كانت ضرباً من «التطهر» من «أدران» الحضارة

والمدنية ، أو درساً أنثربولوجياً استشراقياً ، بينما البداوة ، في نظري ، مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي والاقتصادي للمكان ، سواء أحببنا هذا التطور أم كرهناه .

ثم إنني لا أتحدر من مكان مغاير بالكامل للمكان الظبياني ، فبلدي الأردن عرف هو ، أيضاً ، مرحلة انتقال سريع من أنماط إنتاج بدوية وفلاحية إلى تمدين ملتبس . لقد عرفت ، شخصياً ، الصحراء والبداوة الأردنيتين ، وهما يتغيران على نحو سريع ، أو يدفعان إلى ذلك بفعل عوامل داخلية وخارجية لم يعد بالإمكان تفاديها .

# على متن طائرة جديدة

جئت إلى أبوظبي ، في العام الماضي ، على متن طائرة تابعة لشركة «طيران الخليج» التي حولتها أربع دول خليجية هي الإمارات ، البحرين ، قطر ، وعُمان من شركة صغيرة أُسّست قبل 54 عاماً إلى اسم أساسي على خريطة طيران المنطقة . لكن قطر ، التي أخذت تتململ داخل مجلس التعاون الخليجي بعد تسلم الشيخ حمد آل خليفة السلطة في بلاده ، انسحبت من هذه الشراكة لتؤسس شركة طيران قطرية ، فظلت «طيران الخليج» مملوكة للدول الثلاث الأخرى . الانطلاقة القوية لـ «طيران الخليج» تواكبت مع الحماسة التي رافقت تشكيل مجلس التعاون الخليجي في منعطف عربي حاسم : الحرب العراقية ـ الإيرانية .

لن أستطرد ، هنا ، في الأسباب السياسية المباشرة و النصائح التي تلقتها دول الخليج من الغرب كي تلتئم في إطار سياسي جامع ، فليس هذا مكانه ، الآن ، ولكن حماسة الانخراط في تجمع متجانس النسيج التي رافقت الانطلاقة الأولى لـ «مجلس التعاون الخليجي» وما انبثق عنها من أطر سياسية واقتصادية وعسكرية ، على طريق تكامل شامل في العلاقات بين هذه البلدان ، أخذت

تتراجع مع الوقت ، لتعود الهوية القُطْرية (أو المشيخية) إلى البروز ثانية .

والحديث ، هنا ، عن «طيران الخليج» ليس حديثاً عن شركة قد يصيبها ما يصيب العمل التجاري من نجاح وإخفاق ، وصعود وهبوط ، بقدر ما يبدو لي مثالاً على صعود ما يمكن أن أسميه «الهوية الخليجية» التي أراد لها منظروها الانفراد بـ «تمايزات» ، خاصة داخل الهوية العربية ، وتراجع هذه الهوية تدريجياً مع النمو المتزايد للكيانات الخليجية الصغيرة ورغبتها في البروز كـ «هويات» مستقلة ، قائمة بذاتها لا تدور في فلك مرجع إقليمي . غير أن لتراجع شركة «طيران الخليج» ، بوصفها شركة خليجية جامعة ، أسباباً غير سياسية ، منها تحول بعض إمارات الخليج إلى مراكز اقتصادية واستثمارية وسياحية بارزة مثلما هو الحال في دبي وبدرجة أقل أبوظبي والدوحة .

هكذا استقللت للمرة الأولى طائرة تابعة لشركة «الاتحاد» ، التي أنشأتها إمارة أبوظبي ، بعد أن قامت دبي بإنشاء شركة خاصة بها هي «الإمارات» وصارت وجهاً آخر للنجاحات الاقتصادية المتسارعة لهذه الإمارة .

نلاحظ ، هنا ، أن الإمارتين (أبوظبي ودبي) تحاولان أن تضفيا صبغة وحدوية على أسطوليهما المحليين ، فدبي التي لا ترغب أن تظهر كياناً مستقلاً داخل دولة الإمارات (مع أنها تتصرف ، واقعياً ، على هذا النحو) أعطت لشركتها اسماً جامعاً : «الإمارات» ، مثلما أعطت أبوظبي ، صاحبة فكرة اتحاد إمارات الساحل المتصالح في

دولة واحدة ، لشركة طيرانها اسماً أثيراً لديها عملت من أجله وقتاً طويلاً ، وبذلت في سبيل إنشائه وبقائه مالاً وجهداً كبيرين هو : «الاتحاد» .

***

غادرت لندن في التاسعة والنصف ليلاً ووصلت إلى أبوظبي في حدود الساعة السابعة صباحاً . كانت طائرتنا الوحيدة التي حطت في مطار أبوظبي في تلك الساعة المبكرة ، ومع ذلك ، كانت «السوق الحرة» مفتوحة تحت القبَّة المرصعة بالمخمسات ، تحت ذيل الطاووس الذي ينثر ألواناً متقلبة بين الذهبي والأزرق والأبيض . الموظفون الفيلبينيون والهنود ، بانضباطهم الصارم ، يتأهبون لاستقبال المسافرين القادمين . لاحظت ، هذه المرة ، تزايداً في أعداد الإنكليز قياساً إلى الآسيويين بين ركاب الطائرة .

قد يكون ذلك مجرد مصادفة ، وإن كنت سألاحظ ، لاحقاً ، أن حركة الاستثمار والانفتاح الاقتصادي والسياحة أخذت تتزايد عما كانت عليه في العام الماضي ، وسيكون لهذا التساؤل ما يبرره ، بعد أيام من وصولي إلى أبوظبي ، عندما سينعقد اجتماع على أعلى المستويات السياسية في الإمارة لرفع وتيرة الاستجابة أمام التحدي الذي تطرحه دبي على جوارها على غير صعيد .

لاحظت وجود ورشة عمل كبيرة حول مبنى المطار ، وكذلك أمام مدخله ، فالقوم عازمون ، كما علمت ، على توسيعه ليكون مطاراً يليق بعاصمة الإمارة الأكبر ، وعاصمة الدولة الاتحادية .

عشرات العمال الآسيويين بثياب عمل زرقاء موحدة وخوذات

على رؤوسهم ينشطون في الحفر ، وسياقة الآليات وسحب قضبان الحديد وصبّ الباطون في هذا الصباح الباكر الذي لم تخلف فيه الشمس ، بكامل عزمها ، موعداً .

وعندما بدأ الموظفون يتوافدون على عملهم في المطار ، كنت أغادر بسيارة يابانية حديثة ونظيفة يقودها سائق هندي لم أتبادل معه سوى بضع كلمات بسبب عدم معرفته العربية أو الإنكليزية ، وعدم تضلعي بتلك اللغة الهجين التي يتحدثون بها مع «المواطنين» و«الوافدين» العرب . كنت مرهقاً ، على أي حال ، بعد رحلة استغرقت نحو عشر ساعات بين «التشييك» واللوبان في الصالة الثالثة في مطار «هيثرو» والطيران . أخلدت إلى الصمت ، لكن عينيَّ راحتا ، تلقائياً ، تقارنان وتلتقطان الفوارق بين وصفي لهذه الطريق في الرحلة السابقة وبين ما تريانه الآن . كأن كل شيء أتيت على ذكره صارت لي فيه حصة . . وهمية . يقولون الكتابة خلق ، وأنا أقول إنها نوع من الامتلاك الوهمي لعالم الأشياء . التسمية خلق ، أيضاً ، ولكني لم أسمِّ شيئاً . كانت الأشياء مسماة ، ولكن كأني بذكري لها ، بتلفظي بها ، بكتابتي عنها ، أصنع لها حياة أخرى ، حياة تخصني ، على الأقل .

ستدأب عيناي على هذه المقارنة في كل مكان أتيت على ذكره من قبل .

سألاحظ فروقاً بالطبع .

فبعض ما كتبته ، سابقاً ، استند إلى ما دونته في توّه ولحظته وبعضه الآخر استعدته ، بعد وقت ، من الذاكرة . والذاكرة ، حتى

القريبة منها ، مراوغة . فهي تحذف وتبرز ، تضخّم وتصغّر .

هكذا ، سألاحظ أن الأشجار المزروعة على جانبي طريق تُذكِّر بالجادات العريضة في كاليفورنيا ليست ، كلها ، نخيلاً ، بل ثمة أشجار أخرى ، إفريقية المنشأ أو هنديته ، تتبادل ، مع النخيل ، منح الطريق تلك الخضرة والظلال الرحيمة التي تتفارق ، تماماً ، مع محيطه الصحراوي الضاري ، المترامي الأطراف .

للنخيل ، هنا ، الصدارة على ما عداه من الأشجار .

فهو ، أصلاً ، ابن تلك الواحات القليلة التي انطلق منها مؤسسو الإمارة وأبناء قبائلهم ليضعوا أول خطوة لهم على ساحل قفر ، منعدم الخضرة ، شحيح المياه أو مالحها .

للنخيل الصدارة ، ولصدارته صدى في النقوش التي تؤكد وجود حلقة حضارية نشأت ، هنا ، بالتوازي مع الحضارة السومرية ، كما أن صداه معلوم في الإرث الإسلامي .

للنخيل الصدارة إذن ، ولكنه ليس الشجرة الوحيدة . فهناك أشجار أخرى أثيرة لدى أهل المكان كـ «الغاف» و«السمر» (الأسل) و«القرم» و«الطرفاء» و«السدر» ، وأخرى مستجلبة من مختلف بقاع العالم .

لاحظت كذلك أن حركة العمران أشد على جانبي طريق المطار ، كما لاحظت أن الضاحية الكبيرة التي لا يزال يتواصل فيها البناء على الجانب الأيمن من الطريق تسمى «مدينة خليفة بن زايد» . وهي ضاحية ، تكثر فيها الفيلل الأنيقة التي يبدو أنها لعلية القوم .

لكن هناك متغيراً كبيراً طرأ على البلاد عموماً ، بين زيارتي السابقة والراهنة ولن تلحظه العين بسهولة ، وإن كان يتخلل كل شيء هنا ، هو : رحيل الشيخ زايد . هناك صور ، كلمات وداع ، عهود مقطوعة على السير «في الطريق نفسه» الذي اختطه الشيخ زايد ، صور تجمعه بخليفته تقول «خير خلف لخير سلف» ، ولكن كل ذلك في حسبان ، وبشيء من خفرٍ ما زال يتلكأ عند حدود البداوة .

يلاحظ زائر أبوظبي ، وكذا سائر عواصم الخليج ، غياب التماثيل البشرية في الشوارع سواء لرجالات من الماضي أم من الحاضر ، ولهذا ، على الأغلب ، أسباب دينية ترى في التجسيد البشري ، التماثيل خصوصاً ، أصناماً نهى الإسلام عن رفعها .

المسلمون الأوائل حطموا أصنام المكيّين عندما دخلوا «مكة» فاتحين ، كان ذلك إيذاناً بتدشين عهد جديد أكثر منه ، على الأغلب ، موقفاً «عقيدياً» ضد التجسيد . تلك رموز «العالم القديم» التي ينبغي أن تزال كي تحل محلها رموز «عالم جديد» بدأ يبزغ من كتاب . فضلاً عن أن العبادة ، كما بسطتها حماسة الدعوة الجديدة ، لله لا للحجر الوثني .

لست متأكداً ، تماماً ، من وجود نص ديني إسلامي قاطع ينهى عن التجسيد في الفن ، غير أن التراث الفني العربي - الإسلامي ظل ، فترة طويلة ، ينحو صوب التجريد ، أو الزخرفة ، وليس تجسيد البشر .

ولكن ماذا بشأن التصوير؟

تصوير الشخوص موجود في كل العواصم الخليجية . هناك العديد من اللوحات التي رسمها فنانون أجانب لمؤسسي المملكة العربية السعودية ، وكذلك للشيخ زايد ، وغيرهم من حكام الخليج ، معلقة في قصورهم أو في البيوت والدوائر الحكومية .

أليس هذا تجسيداً أيضاً؟

بلى ، ولكنه ، على ما يبدو ، أقل وطأة من رفع تمثال بشري في الشارع!

النصب الوحيد الذي تراه في وسط مدينة أبوظبي هو لمدفع أبيض اللون ، قبيح التكوين ، يصوّبُ فوهته إلى الداخل لا إلى الخارج . سمعت أكثر من شخص يتندر على هذا المدفع ووجهة فوهته . قد تجد تماثيل أخرى في المدينة ولكنها ، أبداً ، ليست لبشر .

أشرت ، من قبل ، إلى غياب فكرة التعظيم هنا ، خصوصاً عندما تحدثت عن «قصر الحصن» . ولكني وجدت مثالها الأوضح في رحيل الشيخ زايد . فالعزاء والجنازة اللذان رأيتهما على شاشة التلفزيون في لندن تعكسان التقاليد المتوارثة في التعامل مع حدث كهذا . وهي تقاليد يتضافر العاملان الديني والقبلي على ضبط نبرتها العاطفية فلا تتحول مناحة أو استنكاراً لأمر «مقدَّر» . الموت ، في عرف هذه التقاليد ، حقٌّ مهما كان الشخص الذي يطاله .

جرى الأمر على نحو بسيط ، بل مفاجئ في سرعته وبساطته . فالشخصيات السياسية الكبيرة التي حضرت العزاء والجنازة اللذين تمَّا في يوم واحد ، كانت محدودة جداً ، وبدا أن القادة الذين تمكنوا من حضور الجنازة «لحقوا» أنفسهم في آخر لحظة . وباستعراض

أسماء هؤلاء المسؤولين الذين شاركوا في الصلاة والتشييع ندرك أنهم من دول الجوار أو المقربين جداً من الشيخ زايد الذين تمكنوا من الحضور بسرعة ، وهم : العاهل العماني السلطان قابوس ، العاهل البحريني حمد بن عيسي آل خليفة ، والعاهل الأردني الملك عبد الله الثاني ، ولي العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ، الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة ، الرئيس السوري بشار الأسد ، الرئيس اليمني علي عبد الله صالح ، الرئيس العراقي غازي الياور ، الرئيس السوداني عمر حسن البشير ، الرئيس الباكستاني برويز مشرف ، الرئيس الأفغاني حامد قرضاي ، ولي عهد قطر الشيخ تميم بن حمد آل ثاني ، الأمير المغربي رشيد شقيق الملك محمد السادس ، الشيخ خليفة بن سلمان رئيس وزراء البحرين ، رئيس الوزراء العراقي إياد علاوي ، ونجل العقيد القذافي سيف الإسلام .

إكرام الميت ، في عرف التقاليد ، هنا ، دفنه ، وبأسرع وقت ممكن . الميت لا يرجأ دفنه ، لا يوضع في براد . فكرة وضع الميت في براد غير مقبولة في الجزيرة العربية ، عموماً ، فمكانه الطبيعي الثرى . من الثرى إلى الثرى يعود الإنسان بلا إبطاء . كما أن الأضرحة الفخمة ليست مستحبّة . فالقبر مثوى أخير وليس مزاراً .

عندما توفيت أمي عصراً لم يكن ممكناً دفنها في اليوم نفسه . كان الوقت متأخراً ، فأرجئ الدفن لليوم التالي . لم يقبل والدي وإخوتي وضع جثتها في براد المستشفى الذي لفظت على سريره أنفاسها الأخيرة ، فأخذوها إلى البيت وسهروا عليها حتى صباح

اليوم التالي حيث دفنت سريعاً في مقبرة «المفرق» .

في لندن ، التي أقيم فيها ، قد يبقى الميت شهراً في براد بدرجة حرارة أربعين تحت الصفر . ولكن ليس في الصحراء أو بالقرب منها . هذه نظرة إلى الموت تعيده ، على ما يبدو ، إلى منشأ قديم ، قبل أن تقوم المدن وتخترع الكهرباء ويوجد البراد والمستشفى .

# تيار ليبرالي

لم يكن الشيخ زايد ، في سنيّه الأخيرة ، فاعلاً على المستوى الداخلي والخارجي بسبب مرضه وتقدمه في السن ، لكن مقامه ظل محفوظاً ، والسياسات التي رعاها ظلت ، هي أيضاً ، قائمة على نحو أو آخر .

ليس من السهل في بلد متكتم مثل الإمارات أن تلحظ الخلافات والصراعات داخل الأسر الحاكمة ، أو بين بعضها البعض ، إلاّ بعد أن تنفجر ، تماماً ، وتطفو على السطح . لكن ، مع ذلك ، بدا أن ميل الجيل الجديد من أسرة الشيخ زايد أقرب إلى النظرة «الليبرالية» التي تسود في أوساط بعض النخب السياسية والثقافية العربية انطلاقاً من مفهومها الأمريكي الراهن .

لم يكن الأمريكيون بعيدين يوماً عن شبه الجزيرة العربية ، فقواعدهم العسكرية موجودة في معظم دول هذه المنطقة قبل اندلاع أزمات الخليج العربي وحروبه التي كرَّت سبحتها منذ الحرب العراقية الإيرانية . لكن الأمريكيين لم يكونوا قريبين من الخليج العربي ، على هذا النحو السياسي والعسكري الثقيل ، كما هم عليه اليوم .

إنهم داخله (قواعد عسكرية) وعلى تخومه (احتلال كامل للعراق) ، وغلبتهم على السياسة الدولية ، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ، لا تحتاج برهاناً .

انتقل حكم إمارة أبو ظبي (ودولة الإمارات ككل) بعد رحيل الشيخ زايد إلى أكبر أبنائه وولي عهده الشيخ خليفة بن زايد بسرعة قياسية . هذا ما أخبرني به إبراهيم العابد مدير الإعلام الخارجي الذي التقيته في مكتبه خلال زيارتي الحالية . قال لي إن الأمر لم يستغرق وقتاً أطول من شرب فنجان قهوة بين حكام الإمارات الست الذين اجتمعوا في أبوظبي عشية دفن والده . كان ذلك ، أيضاً ، بحسب إبراهيم العابد ، بحضور إخوته وموافقتهم . فقد كان موضوع «رئاسة» الشيخ خليفة ، كما يقول العابد ، محسوماً سلفاً . فهو ، أصلاً ، ولي عهد والده ، والرئاسة معقودة لأبو ظبي بوصفها الإمارة الأكبر . قلت لإبراهيم العابد : ولكن يقال إن ترتيب ولاية عهد أبو ظبي نفسها لم يكن بالسهولة ذاتها . فلم يوافقني الرأي .

. . . . . .

يمكن اعتبار هجمات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) عام 2001 ، التي عجلت في تبلور الطور الإمبراطوري الأمريكي في العالم ، انعطافة حاسمة في علاقة منطقة الخليج العربي بواشنطن ، فلم يعد الحياد ، أو شبهه ، ممكناً في ظل إدارة أمريكية يمينية محافظة تتحكم الثنائيات الضيّقة بنظرتها إلى العالم .

كان الاصطفاف الرسمي العربي في الحرب التي جردتها أمريكا على «الإرهاب» أسرع منه في أي مكان آخر في العالم ،

وكان الخليج العربي ، الذي شارك سبعة عشر من أبنائه ، من أصل تسعة عشر انتحارياً مفترضاً ، في دكّ «مركز التجارة العالمي» الأسرع انضواء في هذه الحملة التي أسقطت أفغانستان والعراق في قبضة الاحتلال العسكري المباشر .

تركز الضغط الأمريكي على السعودية ، التي يحمل خمسة عشر من الانتحاريين المفترضين جنسيتها ، أكثر مما تركز على أي بلد عربي آخر ، ولكن هذا لا يعني أن البلدان الخليجية الصغيرة لم تتعرض إلى ضغوط مماثلة .

من المؤكد أن الإمارات ، التي ينتمي إليها «مروان الشحي» ، القائد المفترض للطائرة التي ضربت البرج الثاني في «مركز التجارة العالمي» ، قد شعرت بالشرر الذي يتطاير من أروقة الإدارة الامريكية ، فلم يخف الأمريكيون انزعاجهم من كون اثنين من انتحاريي «القاعدة» يحملان الجنسية الإماراتية (مروان الشحي وفايز بني حامد) ، فضلاً عن اعتبارهم أن البلاد شكّلت مجالاً خلفياً استخدم المهاجمون مرافقه المالية واللوجستية لتنفيذ عمليتهم .

. . . . . .

جدير بالملاحظة أن الميل الإماراتي المتزايد تجاه الولايات المتحدة وسياساتها في المنطقة العربية ترافق مع مفصلين مهمين : أحداث 11 أيلول (سبتمبر) ، ومرض الشيخ زايد . «غزوة منهاتن» سُمعَ صداها في كل مكان . الاستنفار الأمريكي لم يتركز على العالم العربي فقط بل امتد إلى مناطق لم تكن من ضمن مجال

واشنطن الحيوي من قبل . لكن لم يُسْمَع صدى تلك «الغزوة» في أي مكان في العالم كما سُمعَ في منطقة الخليج العربي . هكذا يمكن لنا أن نفهم «تمتن» العلاقات الإماراتية الأمريكية ، الذي أعقب أحداثاً نقلت ، لأول مرة ، «الحرب على المصالح الأمريكية» إلى العمق الأمريكي . .

ومن المشكوك فيه ، على أي حال ، أن تتمكن تلك المنطقة المعتمدة على دعم واشنطن ، من الوقوف في وجه إدارة أمريكية جريح أعلنت ، على نحو لا يقبل الالتباس ، أن من ليس «معها» فهو «ضدها» . هذا ما يمكنني فهمه من حديث طويل جرى بيني وبين إبراهيم العابد الذي حاول ، بقدر كبير من الدبلوماسية ، شرح وضع الإمارات في فترة دولية وإقليمية متوترة .

كان الانحناء للعاصفة الأمريكية هو الحل الأمثل لتفادي قوتها المدمرة ، حتى إن بلداً كبيراً مثل السعودية حاول أن يتوازن ، أول الأمر ، في وجهها ، وجد نفسه يندرج فيها بسرعة لم تمهله لترتيب شؤونه الداخلية بعد بضع مقالات هجومية عليه في الصحافة الأمريكية .

على وقع هذا الشرر المتطاير من واشنطن قام وفد حكومي إماراتي برئاسة حمدان بن زايد وزير الدولة الإماراتي للشؤون الخارجية بزيارة إلى أمريكا بغية إجراء «حوار استراتيجي» مع الإدارة الأمريكية .

حدث هذا عشية الحرب الأمريكية على العراق بعد أن تلقت تسع دول عربية ، من بينها الإمارات ، طلباً أمريكياً لتحديد موقفها

في خصوص التعاون مع واشنطن لتوجيه ضربة عسكرية للعراق في حال «فشل» عمل المفتشين هناك .

كانت واشنطن تضع «بيضها» الاستراتيجي في منطقة الخليج العربي (والتعبير لمسؤول أمريكي) ، في «السلة» السعودية ، وبـ «حوارها الاستراتيجي» مع الإمارات ، وبنائها قاعدة عسكرية ضخمة في قطر ، وتعزيز قاعدتها البحرية في البحرين قامت بتفريق هذا «البيض» على «سلال» خليجية أخرى ، في إشارة إلى محاولة واشنطن تقليل الاعتماد على الرياض كحليف استراتيجي شبه وحيد في الخليج العربي .

ستتضح أبعاد «الحوار الاستراتيجي» الأمريكي الإماراتي ما إن تأتي الحرب على العراق ، ولن يستطيع الإنشاء العربي التقليدي ، الذي صدر باسم الشيخ زايد ، إخفاء قوة الاصطفاف الإماراتي وراء السياسات الأمريكية في المنطقة . . مذاك .

# قصر من عالم ألف ليلة وليلة

كان شارع المطار هادئاً ، في ذلك الصباح . السيارات قليلة جداً ، باستثناء جرارات وسيارات نقل تقل عمالاً ومواد بناء تفرغ حمولتها في أحد مقاطعه ، حيث توجد ورشة عمل كبيرة تعمل ، إما على توسعة الطريق ، أو صنع تحويلات ، أو بناء جسر معلَّق يخفف من الازدحام التي تشهده هذه الطريق في أوقات الذروة .

وعلى طول الطريق المحاذية للبحر كان رجال ونساء بثياب رياضية يمارسون رياضة الهرولة قبل أن تشتد حرارة الشمس وتتزايد حركة الناس ، فبعد شهر سيكون من الصعب ، حتى في الصباح الباكر ، ممارسة هذه الرياضة بسبب الحرارة والرطوبة العاليتين .

فالشمس هنا لا تتدرج في الكشف عن مخزونها الناري بل تصبه دفعة واحدة على المياه ، قشرة الأرض ، السائرين في مناكبها ، ما إن يبزغ قرصها المتوهج من الشرق .

أدخل غابة العمائر الزجاجية مرة أخرى . المدينة التي يميزها هذا الطراز من البناء العمودي الذي تتلامع واجهاته تحت الشمس تبدو شبه مهجورة . لَّما يزل الوقت باكراً . بعد قليل ستدب الحركة في الشوارع ، ولكنها لن تكون حركة صاخبة ، فالمدينة منظمة ،

ذات شوارع عريضة ، والجميع يخضع ، طوعاً ، للنظام ، ورغم كثرة عدد السيارات فمن النادر سماع أبواقها . الذين يفعلون ذلك بين حين وآخر وعلى نحو سريع وخاطف (كأنهم ينتهكون تعاقداً اجتماعياً مُسلَّماً به) هم سائقو سيارات الأجرة عندما يرونك تقف على رصيف ، أو وأنت تتمشى وحيداً وتتلفت حولك فتبدو لهم زبوناً محتملاً .

لن أمكث ، هذه المرة ، طويلاً في أبوظبي ، فعليّ أن أقوم بجولات في مناطق بالإمارة لم أزرها في رحلتي السابقة ، ولكن ليس قبل وصول هاني الحوراني ، رفيقي في هذه الرحلة ، بعد يومين من عمان .

قررت ، في الأثناء ، أن أطوف في مدينة أبوظبي لأرى ما الذي استجد في عام من غيابي . وعام ، هنا ، فترة كافية لقيام أبراج جديدة وزوال أخرى ، ردم جزء من البحر ، قضم ما تبقى من الفراغ في المدينة . عام ، هنا ، مثل خمسة أو حتى عشرة أعوام في عواصم عربية أخرى . ففي العام المنصرم ، لحسن حظ هذه البلاد ، ارتفعت أسعار البترول إلى أرقام قياسية وتضاعفت ثروة البلاد من سلعتها الأساسية : البترول ، الذي ظل ينتظر في باطن الأرض وجوف البحر آلاف السنين كي يأتي أوان تفجّر سيوله السوداء ما أدى إلى تحولات اجتماعية واقتصادية لم تكن ، لولاه ، لتحدث ، على هذا النحو ، أبداً .

هذا التضاعف في الدخل الوطني كاف وحده ليرمي مزيداً من الخرسانة في الأرض ويتلامع مزيد من الزجاج في السماء ، فمعظم

الاستثمارات الجديدة تتجه ، كما بدا لي ، إلى العقارات ، لكونها أولا : أكثر ضمانة ، وثانيا : لتلبية الاحتياج المتزايد لمكاتب الشركات والأعمال والسكنى . وقد بدا لي هذا الاحتياج متواضعاً ، بطيئاً ، قياساً بجارتها دبي التي ليست جزءاً من رحلتي المتركزة ، تحديداً ، على إمارة أبوظبي ، ولكنني سأمضي فيها بضعة أيام للتأكد ، بأمِّ العين كما يقولون ، أن ما قرأته عنها وسمعته في السنين الثلاث أو الأربع الأخيرة صحيح أم هو من وحي خيال روائي .

لم يتعرض وسط أبوظبي التجاري إلى تغيرات كبيرة ، فقد حافظ على أبراجه المتقابلة ، المتساوية تقريباً ، في الطول والكتلة ، بشوارعه الرئيسية العريضة ، ومتاهات الشوارع الخلفية التي تتناقض حوانيتها ، تماماً ، مع تلك التي تحتل واجهات الشوارع الكبرى ، حيث العلامات التجارية الشهيرة التي تراها في عواصم الغرب . وباستثناء هدم برجين قديمين كي تنهض مكانهما ، على الأرجح ، «مولات» تجارية جديدة ، فقد ظل هذا الوسط كما كان في العام الماضي ، لكن أطراف المدينة تعرضت لتغيرات كبرى .

رأيت في زيارتي السابقة ورشة عمل على طول الكورنيش .

كان واضحاً أن الأمر يتعلق بتجديد متنفس المدينة الرئيسي هذا وإطلالتها الثمينة على البحر ، وتزويده بمرافق ترفيهية وحدائق ومطاعم ، ومراكز تجارية ، ولكن واسطة العقد في هذا المشروع الإنشائي ـ الاستثماري الكبير هو : «قصر الإمارات» .

كان هذا الفندق ـ القصر قد افتتح ، على عجل ، قبل مجيئي

بقليل وسمعت عنه كلاماً يشبه الأساطير ، من ذلك ، أن لا مثيل لشكله وفخامته في العالم . وأفْعل التفضيل والهوس بالأرقام القياسية ، صارا ، نوعاً من تقليد في الإمارات . دبي هي التي أطلقت هذه الحمّى ، وظلت أبوظبي بمنأى عن هذا السباق الماراثوني لتحقيق : الأعلى ، الأفخم ، الأكبر ، الأسرع والأكفأ في مجال الإنجاز ، خصوصاً في ما يتعلق بالأبنية سواء كانت فنادق ، منتجعات ، أم مكاتب استثمارية ، ولكن ها هي أبوظبي تنضم إلى الركب ، لتحقق لنفسها علامة فريدة ، صرحاً تُذْكَر به ، أو مَعْلماً يكون رمزاً . . مؤقتاً للمدينة ، لأن الرموز ، من هذا النوع ، تتغير ، دائماً ، في الامارات .

لم تخطئ الأوصاف الحماسية التي سمعتها عن «قصر الإمارات» ، ولم يخطئ ، كذلك ، من قال إنه ينبعث من العالم الفنتازي لـ «ألف ليلة وليلة» .

دعانا الكاتب الفلسطيني محمود خضر يوم وصول هاني الحوراني إلى مطعم سمك شهير في أبوظبي يدعى «فيش ماركت» ، وطلبت من الصديق عبد الجواد الصافوطي الذي أقلني من فندقي ، أن نذهب إلى «قصر الإمارات» قبل الالتحاق بالضيوف الآخرين .

كان القصر ، على كل حال ، في طريقنا .

لم أكن أتصور أن الورشات التي رأيتها تعمل ، على مدار الساعة ، في هذا الموقع في العام الماضي كانت بصدد إنجاز بناء كهذا . ظننت أن الأمر يتعلق بتوسيع الكورنيش ، أو في أفضل

الأحوال ، إقامة سلسلة من المطاعم ومرافق الترفيه التي ، ربما ، كانت تفتقر إليها هذه الإطلالة الطويلة والهادئة على المياه .

معظم ما يبنى في هذه الوجهة يقضم قطعة من البحر .

الكورنيش يزحف داخله .

مياه الخليج تُردم بأطنان من الرمال والصخور لتوسيع إطلالة المدينة ـ الجزيرة عليه .

هناك أحياء كاملة كانت أخواراً مائية ، أو جزءاً من الشاطئ الضحل ، أصبحت يابسة .

عندما نرى صوراً لأبوظبي تعود إلى خمسينات القرن الماضي ، نستطيع أن ندرك كم كان البحر قريباً ، خصوصاً مما يشكل وسط المدينة الآن . أقدّر هذا من خلال الصور الملتقطة لـ «قصر الحصن» الذي يقع ، اليوم ، بين أسوار «المجمع الثقافي» ، فهذا المعلم الأبرز لأبوظبي ، آنذاك ، لم يبن على البحر مباشرة ، ولكنه لم يكن بعيداً عنه .

البحر بعيد اليوم عن «قصر الحصن» .

ويبدو أنه سيبتعد أكثر بسبب تواصل زحف الحصى والخرسانة المسلحة على مياهه الضحلة وتحويلها أرضا للبناء .

المسافات داخل مدينة أبو ظبي قصيرة ، فما هي إلاَّ دقائق حتى لاح لنا قوس كبير ، وواجهة عريضة مهيبة وقبَّة كبيرة تتلألأ بالأضواء .

كان الوقت ليلاً .

الأضواء تؤطر البناء كله وترسم حدوده ببريقها طولاً وعرضاً .

كل شيء فيه مضاء : القبب ، الأبواب ، النوافذ ، الكوى

الصغيرة ، الممشى الطويل الذي تدخله من قوس يشبه قوس النصر في باريس (ولكن بمسحة شرقية) ، الحدائق والممرات التي تفصل بينها .

لا بناء ولا معلم آخر يزاحم هذا الصرح المعماري في هذه الجهة من المدينة .

وحده القصر يتربع على مساحة مريحة تعطيه شيئاً من النأي والغموض . كأنه انبثاقة مفاجئة طالعة من البحر أو الصحراء .

تشعر ، هنا ، بالبحر أكثر مما تشعر بالصحراء . المياه والخضرة العفيّة التي تشعرك بوجودها الطبيعي ، رغم أنها ليست من نباتات البيئة ، يعطيان انطباعاً ببعد الصحراء ، وما هي كذلك .

محيّر شكل هذا القصر . إنه شرقي ولكنه ليس كذلك تماماً . فهو يذكرك بتصوّر الشرق في مخيلة الغرب ، وربما ذكرك بالأفلام الغربية التي حاولت استحضار عالم «ألف ليلة وليلة» . لا يحيل البناء إلى طراز عربي أو إسلامي محدد . فهو ليس مشرقياً ولا مغربياً ، وإن كان يمزج ملامح من طرز العمارة المشرقية والمغربية معا ، ففيه ما يشبه المشربيات المصرية والأقواس العثمانية ، وتربيع المآذن المغربية . ولكنه ، مع ذلك ، لا يمكن ردّه إلى طراز عربي أو إسلامي بعينه ، ولا يمكن ردَّه ، بالتأكيد ، إلى أنماط البناء البسيطة التي كانت سائدة ، هنا ، قبل اكتشاف النفط .

أفضل وصف سمعته عن «قصر الإمارات» ما قاله صديق في أبوظبي : إنه يشبه قصر هارون الرشيد في المخيال الغربي . ليس هذا الوصف بعيداً عن الصحة ، خصوصاً ، عندما تدخل القصر ، حيث

ترى صوراً من الفخامة الباهظة ، إلى درجة تشعرك بالحرج إن فكرّت بالجلوس في إحدى ردهاته العديدة لتناول فنجان من القهوة . كأنه معدٌّ لغيرك من البشر . . أو لأقل بوضوح ، كأنه معدٌّ لأولئك الذين يتناسل المال في جيوبهم وأرصدتهم كما تتناسل النباتات الشيطانية .

لم أدخل فندقاً حتى اليوم (وقد دخلت الكثير في الغرب والشرق) وشعرت بثقل الفخامة وسطوتها ، كما شعرتُ وأنا أتجول في ردهات «قصر الإمارات» وممراته العالية ، الطويلة . فالفخامة ، هنا ، فعل إرادي تنهل تطلّبها الفنتازي أحياناً من ثروات طائلة . كأن ثمة من قال : أريد شيئاً فخماً ، شيئاً لا مثيل لفخامته . فصدعت لأمره كبرى شركات الإنشاءات في العالم!

يحتاج المرء دليلاً ليعرف من أين دخل القصر ، وفي أي ردهة صار ، وإلى أي جناح قادته خطاه .

لم يكن هناك الكثير من الزوار أو النزلاء في الفندق عندما رحنا ، عبد الجواد وأنا ، نتسكع في جنبات القصر ، فهو حديث الافتتاح ، وبعض من رأيناهم هناك ، عرباً وأجانب ، يستطلعون مندهشين ، مثلنا ، هذا الفندق الفريد ، ويمشون في جنباته كالمسحورين .

كان العاملون ، من جنسيات عربية وأجنبية مختلفة ، ينتشرون في أركان الفندق ويوزعون الابتسامات على المارين في جنباته ، أو يتطوعون ، بلطف تدربوا عليه جيداً ، لإرشادهم إلى مرافق الفندق أو مخارجه .

قد يفيد أن نلقي الضوء على بعض معطيات هذا الفندق ـ القصر ، ومكوناته لمعرفة الطبيعة التنافسية ، القياسية ، التي حكمت بناءه ، بصرف النظر ، على ما يبدو ، عن كلفتها المالية .

فإلى جانب قبته الكبيرة التي تعلو البهو الرئيسي ويرى المرء من الداخل قُطرها الواسع وعلوها الشاهق بحيث تتصنج عنقه ، هناك مئة وثلاث عشرة قبَّة أخرى أصغر حجماً مصنوعة (أو مرصَّعة) ، مثل الكبيرة ، بالفسيفساء ، كما يضم القصر 394 غرفة وجناحاً ، بعض الأجنحة مخصص ، على ما يبدو ، لنزول الملوك والرؤساء وكبار رجال المال والأعمال ، مزود بخدم مخصوصين وشاشات البلازما والربط اللاسلكي بشبكة الإنترنت ، وأنظمة التلفزيون التفاعلي ، وتصل أجرة الليلة الواحدة في هذه الأجنحة إلى 10 الآف دولار أمريكي .

وقد علمت أن ملك الأردن عبد الله الثاني نزل ، في زيارته الأخيرة إلى أبوظبي ، في أحد الأجنحة الملكية ( . . أو الرئاسية) للفندق ، ولعله ، بذلك ، يكون أول مسؤول عربي ، على هذا المستوى ، ينزل فيه .

وإلى هذه الغرف والأجنحة ، هناك مسرح كبير ، متطور التجهيز يتسع لنحو 1200 شخص ، وأربعون قاعة اجتماعات ، وست شرفات كبيرة ، إضافة إلى نحو عشرين مطعماً تنهل وصفاتها وروائحها من مختلف مطابخ العالم .

وللقصر شاطئ بطول 1300 متر ، فضلا عن بركتي سباحة محاطتين بالأشجار والحدائق . . وما دمنا نتحدث عن الحدائق فهي

تتمدد بتوزيع وتنوع نباتي مدروسين على نحو مليون متر مربع!

هل كان في ذهن أصحاب القصر (وهم على ما أعلم حكومة أبوظبي بإدارة شركة كيمبنسكي الألمانية الشهيرة) أن تتوافر مدينة أبوظبي على معلم يُذكر بها ويحيل إليها؟

الجواب يأتي من تصريح صحافي لرئيس الشركة أدلى به إلى «وكالة أنباء الإمارات» يقول فيه : إن القصر سيكون معلماً خالداً لأبوظبي مثل تاج محل في الهند أو برج إيفيل في باريس أو تمثال الحرية في نيويورك!

لا أدري كم كان رئيس شركة «كيمبنسكي» دقيقاً أو متحمساً منفعلا أمام هذا المنجز المعماري ، لكن المؤكد أن شيئاً من هذا كان مقصوداً فعلاً . فدبي ، جارة أبوظبي وقاطرة المشاريع الفخمة القياسية ، من هذا النوع ، صارت تُعرف ، في العالم ، من مجرد ظهور «برج العرب» في الصحف أو على شاشة التلفزيون ، ولعل الأمر سيكون ذاته ، مع «قصر الإمارات» .

لكن ، مهلا .

فقد لا يبقى الأمر ، طويلا ، هكذا ، ما دامت دبي ماضية في ردم البحر وشق الفضاء . ففي جعبتها ، كما رأيت على أرض الواقع وكذلك في خرائط المشاريع الجاري تنفيذها ، المزيد مما هو أعلى وأفخم . . وأكثر امتداداً في مياه الخليج .

فهل سيظل «برج العرب» الذي ينتصب في البحر على هيئة شراع عملاق ، علامة مميزة لهذه الإمارة التي لا يبدو لطموحها حدّ؟

سننتظر ، ونرى!

لا أحد أخبرني من مسؤولي العلاقات العامة في الفندق عن الكلفة الحقيقية لـ «قصر الإمارات» . ذلك أمر خارج اختصاصهم . وبحسب الصحافي الفلسطيني جمال المجايدة الذي يقيم في أبوظبي ويعمل في «وكالة أنباء الإمارات» فإن الكلفة تجاوزت الرقم الرسمي الذي يتوقف عند 750 مليون درهم (أي ما يعادل 100 مليون جنيه استرليني) .

سألت المجايدة عن الرقم الحقيقي . فقال : هناك تكهنات وليس هناك رقم حقيقي يمكن الاعتماد عليه ، ولكن التقديرات تشير إلى أنه ربما تجاوز المليار دولار أمريكي ، خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار أن ورشات العمل كدحت في العمل ، على مدار الساعة ، لإنجازه في موعده .

تحدَّث عبد الجواد الصافوطي الأردني ـ الفلسطيني الذي يعمل في هذه البلاد منذ نحو عشرين سنة وصار له ، لولا لون بشرته الفاتح ، سمت أهلها خصوصاً عندما يرتدي زيهم ، بثلاث أو أربع لهجات عربية مع من صادفناهم من العاملين في الفندق . فهو رجل فكه ، صاحب نكتة ، ويقلد ، بشكل تلقائي ، لهجات عربية لا يظهر فيها لحن أو اضطراب ، عندما ينتقل من لهجة إلى أخرى ، لكن اللهجة التي بدت لي أكثر إقناعاً على لسانه ، من فرط سيولتها وإيقاعيتها ، هي السودانية . وهذه لهجة أحبّها ، فصرت ، كلما التقيته في زيارتي الحالية إلى أبوظبي ، أستزيده منها .

كانت إحدى موظفات الاستقبال في «قصر الإمارات» شابّة مغربية ذكية تدعى «لطيفة» ، اكتشفت فوراً ، طبيعة الصافوطي

المرحة ، وتجاوبت معها ، فراحا «يهدران» باللهجة المغربية .

قدمت لنا الشابة المغربية ، بعض الكتالوغات عن الفندق وقلمين عليهما شعاره الذي يتخذ شكل قبة . جرّبت القلم على ورقة من أوراق الفندق كانت أمامها ، وقلت لها ، مازحاً ، إن قلم فندق الشيرتون (الذي كنت أحمله معي) أفضل .

فقالت باستنكار : «الشيراتون»؟!

بدا استنكارها ذو النبرة المازحة ، جاداً . كأنها أرادت أن تقول : وهل تقارن قصر الإمارات بـ «الشيراتون»؟

لم أفعل ، بالطبع .

فالمقارنة بين فندق وقصر من عالم ألف ليلة وليلة ليست لصالح الأول!

# فيض من المهاجرين

إذا كانت الأبراج المتطاولة أول ما يلفت نظر الزائر وهو يدخل مدينة أبوظبي ، فإن غلبة الوجوه الآسيوية على ما عداها ، هي الملمح الرئيسي الثاني . ليس هناك في الإمارات إحصاء دقيق في ما يتعلق بموضع الهجرة ونسبة «المواطنين» قياساً إلى عدد الذين يقيمون في الدولة . فهذا الموضوع حساس ويثير حرجاً تتفاداه الإدارات المسؤولة ، لكن الصحافة الإماراتية تشير إلى وجود مهاجرين يتوزعون على نحو مئتي جنسية من مختلف العالم .

وبمجرد النظر إلى تيار الوجوه المتدفق في شوارع المدينة ، ساحاتها ، أزقتها الصغيرة ، التي تشكل عالما خلفيا متواضع الحال وراء بريق العمائر الزجاجية ، تدرك أنه من شبه القارة الهندية .

هذا مظهر يلفت ، بقوة ، نظر من يدخل المدينة أول مرة .

لكن هل هذا الوجود الكثيف إلى حد الغلبة للقادمين من شبه القارة الهندية طارئ؟

هل هو ابن الحقبة النفطية يا ترى؟

لا يبدو الأمر كذلك .

فهناك من يردّ هذا الوجود إلى زمن تجارة اللؤلؤ التي عمل فيها

التجار الهنود وسطاء بين المصدر والأسواق العالمية ، كما أن الرحالة الأجانب الذين مروا في سواحل الخليج العربي واليمن يشيرون إلى وجود هؤلاء القوم الذين كانوا يسمون هنا «البانيان» ، حيث أقاموا ، منذ القرن الثامن عشر ، حوانيت تجارتهم التي تهتم بكل ما كان يحتاجه سكان البلدات الواقعة على هذا الساحل .

لكن الطفرة الكبيرة في أعدادهم ترافقت مع اكتشاف النفط وما صاحبه من تطور عمراني واقتصادي واجتماعي .

سيصاب ، من لم يزر عاصمة خليجية من قبل ، بالدهشة للمشهد الآسيوي الكاسح الذي يطالعه ما إن يصل إلى المطار ؛ إذ لا مثيل لهذا المشهد في أي عاصمة عربية أخرى . البلدان العربية ، الوحيدة التي بدت فيها العمالة غير المحلية ظاهرة حدثت في العراق والأردن ولبنان . كانت العمالة المصرية ، ملحوظة في عراق السبعينات والثمانينات حتى قيل إنه ضمٌّ ، آنذاك ، نحو ٢ مليون عامل مصري مهاجر ، وشهد الأردن موجتين كبيرتين من العمالة ، واحدة مصرية ، والثانية عراقية (بعد الحرب عام 1991) ، وتضاربت الأرقام بشأن هؤلاء .

أما لبنان فالعمالة السورية هي العنصر الغالب ، والأرقام التي تناولتها الصحافة ، والسياسيون اللبنانيون المعارضون ، تتحدث عن مليون عامل سوري ، ولكن من الصعب التعويل على هذا الرقم في ظل غياب بيانات رسمية دقيقة .

غير أنَّ العمالة في هذه البلدان الثلاثة لم تكن غريبة ، تماماً ، عن النسيج الاجتماعي والثقافي العام ، فضلا عن أنها لا تشكل

ملمحا فارقا في الشارع . الأمر هنا ، مختلف بالتأكيد . فلا حجم هذه العمالة ولا هويتها مما يمكن مقارنته بالمثال السابق .

لا بد من الإشارة ، هنا ، إلى أن الإمارات واحدة من أكثر بلاد العالم اعتماداً على العمالة الأجنبية ، ليس لأن مواطنيها الأصليين يأنفون امتهان الأعمال المتدنية ، فقط ، بل لأنهم قليلو العدد قياسا إلى حجم سوق العمل التي تزداد تضخماً يوماً بعد يوم ، فحتى لو أقبل «المواطنون» على كل ضروب العمل فلن يشغلوا أكثر من 20 في المئة من حيّز السوق .

تشير إحصائية منشورة في الكتاب السنوي لعام 2005 الصادر عن وزارة الإعلام في الإمارات ، إلى أن عدد سكان الدولة يبلغ أربعة ملايين وواحدا وأربعين ألفا ، من دون ذكر لعدد «المواطنين» بين هذه الملايين الأربعة ، لكن الأرقام المتداولة في الصحافة ومراكز الأبحاث الإماراتية تشير إلى أن عدد الذين يتمتعون بالجنسية الإماراتية لا يتجاوز ثمانمئة ألف نسمة ، وهذا يعني أن الباقي هم من «الوافدين» سواء كانوا عرباً أم أجانب .

عبد الله العوضي باحث ينشط في الكتابة في هذا الشأن في «مركز الإمارات للدراسات والبحوث» ، فماذا في جعبته على هذا الصعيد؟ يقول العوضي إن الأرقام المتداولة عن العمالة الأجنبية تشكو من التضارب وذلك بسبب عدم وجود «قاعدة سليمة للبيانات الإحصائية الدقيقة وعدم وجود الدوريات المنظمة بما تقدمه من تفاصيل دقيقة يمكن أن ترشدنا إلى الحقيقة» . أما عن الخلل في التركيبة السكانية لدولة الإمارات ، فيضرب هذا المثال

الإحصائي عن التراجع الفادح في عدد «السكان الأصليين» قياسا إلى «الوافدين» : إن عدد سكان الإمارات كان 84 ألف نسمة عام 1977 ، شكلَّ «المواطنون» نحو 25 في المئة منهم ، بينما كان «المواطنون» يشكلون 68 في المئة من عدد السكان عام 1968 ، وذلك قبل استقلال البلاد وتدفق النفط على النحو الذي عرفته لاحقا . ويضيف العوضي : إن عدد «المواطنين» تراجع في إحصاء عام 1985 إلى 18 في المئة من أصل 1,4 مليون نسمة شكلَّ الهنود والباكستانيون النسبة الأكبر منهم . المفزع في كلام عبد الله العوضي هو قوله التالي : إن «المواطنين» قد لا تتجاوز نسبتهم في عام 2020 ، حسب توقع بعض المصادر المحلية ، 2 في المئة من سكان الدولة!

هناك ، إذن ، في الإمارات كتلة عمالة أجنبية ضخمة لا مثيل لها في أي بلد في العالم ، وضمور لا يصدق في عدد حاملي جنسية البلد قياسا إلى التزايد المطرد للعمالة الأجنبية .

بدا لي الأمر أشبه بهرم عملاق مكون من تراتبية طبقية غير قابلة ، تقريبا ، للزحزحة .

فالأوروبيون والأمريكيون يحتلون طبقته الأولى ، يليهم العرب بمختلف جنسياتهم وإن بدا أن الفلسطينيين والأردنيين واللبنانيين والمصريين يتصدرون هذه الفئة ، ثم يأتي القادمون من شرق آسيا كالفلبينيين . . وأخيرا أبناء شبه القارة الهندية الذين يشكلون أكثر من نصف العمالة الأجنبية ، وهؤلاء ، بدورهم ، ينقسمون إلى طبقات ومراتب حسب اختصاصتهم وعلومهم ، لكنهم يشكلون ،

إجمالاً ، معظم العمالة اليدوية المجردة من مهارات خاصة . لاحظت ، كذلك ، أن معظم الذين يعملون مع المواطنين عن قرب أو داخل بيوتهم هم ، غالباً ، من المسلمين ، فيما يكاد ينحصر ما يسمى «الباتان» ، وهم من المناطق المتداخلة بين باكستان وأفغانستان ويتكلمون لغة «الباشتو» ، في قطاع سيارات الأجرة .

ويفترض أن يكون هؤلاء الأخيرون أكثر العمالة الآسيوية معرفة باللغتين العربية والإنكليزية ، باعتبار الأولى لغة البلاد ، والثانية لغة الأجانب الوافدين من كل حدب وصوب .

لكن هذا يبقى مجرد افتراض حسن النية . فالواقع أنهم طوروا ، في ظل غياب الحافز الفعلي لتعلم لغة البلد ، ولضعف مستواهم التعليمي الذي لم يمكنهم من معرفة اللغة العالمية الهادرة اليوم في كل صقع : الإنكليزية ، لغة رابعة لا هي العربية ولا هي لغتهم الأم ، ولا هي ، بطبيعة الحال الإنكليزية ، بل مزيج مربك من هذه اللغات .

في مسرحيته «الأرض بتتكلم أوردو» التي كتبها الشاعر الإماراتي أحمد راشد ثاني في مستهل حياته الأدبية في أوائل الثمانينات ، يطرح إشكالية الهوية في المجتمع الإماراتي في ظل زحمة الهويات الأخرى التي تمارس وجودها المعلن تارة ، والمسكوت عنه تارة أخرى ، الكوميدي حينا ، المؤلم حينا آخر ، في هذه المنطقة من العالم العربي .

واضح ، بطبيعة الحال ، أن الشاعر الإماراتي يعتمد (ويلعب) على عنوان أغنية سيد مكاوي الشهيرة «الأرض بتتكلم عربي» ،

من دون أن يكون لكسر هذا العنوان وشحنه بدلالات جديدة طابع عنصري ، أو استخفاف بلغة أخرى وشعب آخر .

فمن طبائع الأشياء أن تتكلم الأرض «أوردو» في باكستان ، أو أجزاء من الهند ، ولكنه أمر مثير للتساؤل والتأمل أن تكون لغة أرض عربية . . «أوردو» .

لا أعرف ، شخصياً ، جهدا أدبياً ، أو فنياً خليجياً ، آخر حاول طرح هذه الإشكالية كما فعل ذلك الشاعر الإماراتي أحمد راشد ثاني ، وكل ما أعرفه ، ويعرفه بعض العرب ، هو تلك الصورة الساخرة التي قدمها الكوميدي الكويتي الشهير عبد الحسين عبد الرضا في بعض أعماله عن آسيويي الخليج ، وهي صورة لا تخلو من نظرة دونية تجاه هؤلاء البشر الذين جعلوا حياة عرب الخليج ترفل في رفاه عميم .

طبعا ، هذه اللغة التي أنتجتها العمالة الآسيوية ليست «أوردو» ، ولا أظن أن أحمد راشد ثاني يقصد «الأوردو» إلاّ من باب المجاز .

إنها لغة ذات معجم محدود لا يكفي لتكوين جملة واحدة طويلة ، متماسكة ، أو يصنع استطراداً من أي نوع . فالانقطاع بين الجمل القصيرة واجب ، لكي تعود المخاطبة للنهل ، مرة أخرى ، من ذلك المعجم الناضب . ورغما عنك ستجد نفسك تستخدم هذه اللغة المعاقة . ستذكّر وتؤنّث حيث لا ينبغي التذكير والتأنيث ، وتعوج حنكك لتكوين أصوات مساعدة تستقيم مع الضعضعة الشاملة للغة العربية في هذه المخاطبات الكوميدية .

فقواعد الحوار ، في هذه اللغة ، بما هي عليه من مداراة وتمهل ونبر خاص تبدو ، لمن لم يسمعها من قبل ، كأنها مصممة لمخاطبة أطفال . كأن راشدا يكلم صبيا صغيرا فيضطر إلى مجاراة قواعد نطقه ونبره من أجل إفهامه ، أو تقريب الصورة إليه . إنه يفعل ذلك ، بدءاً ، وهو واعٍ أنه يتنازل عن الإفصاح وسلامة النطق من أجل الإفهام ، و إيصال المعنى ، لكنه ينتهي إلى التعامل مع هذه الرطانة كـ «لغة» قائمة بذاتها لا مجرد كوميديا من الأخطاء .

في اليوم الأخير من زيارتي وقفت أمام فندقي بانتظار سيارة أجرة ، ما فتئت أن قدمت . كنت أريد الذهاب إلى «المحمصة اللبنانية» ، التي نصحني بها صديق عربي عندما عرف أنني أريد شراء بن . فرغم وجود محامص للبن في لندن ، إلاّ أن حنينا فلكلوريا مطنبا لا شفاء منه ، على ما يبدو ، ما زال يشدنا ، نحن المهاجرين ، لشراء البن والحلويات من العواصم العربية .

قلت للسائق بعد أن دلفت إلى السيارة محاولاً تقليد تلك اللغة التي سمعت العرب يتحدثون بها إلى الآسيويين : أنا روح «المحمصة اللبنانية» . . إنتا إعرف المحمصة اللبنانية؟

فرد السائق قائلا : ما في معلوم!

هكذا نزلت من السيارة لأن السائق لا يعرف أين تقع «المحمصة اللبنانية» ، وإذا بسيارة أجرة أخرى مقبلة أشرت إليها ، فتوقفت ، قلت للسائق من الخارج : إنتا إعرف «المحمصة اللبنانية»؟

فقال : فيه معلوم . فركبت .

نظر اليّ السائق ، وهو شاب ذو وجه ممتلئ ولحية تميل إلى

الشقرة ، من مرآته الأمامية وقال :

فيه اتنين تلاتة .

فقلت له : أقرب واحد .

فقال : في «شارع نجدة» .

ثم بعد هنيهة ، عاد وتطلع اليّ من المرآة وقال : هوه ما في معلوم؟

وكان يشير بذلك إلى سائق السيارة السابقة التي رآني أترجل منها . فقلت :

ما في معلوم . ما في معلوم عربي ، ما في معلوم إنكليزي .

فأجاب : يمكن دريول هندي جديد ، ثم ، مدللاً ، على مدى تضلعه بالعربية أضاف : أنا أعرف عربي .

قفزت الكلمات الثلاث «أنا أعرف عربي» بهذا السائق الذي قال لي إنه من المناطق المتداخلة بين باكستان وأفغانستان ، إلى مرتبة متقدمة في سلّم العربية . ثم راح يتحدث إلي بطلاقة بـ «العربية» التي حاولت جاهداً أن أجمع أجزاءها المحطمة .

ومنه عرفت أن «ميه تمانين» (ثمانين في المئة) من سائقي سيارات الأجرة التي يتضمنونها ، أو يسوقونها لحساب «مواطنين» ، أو غالباً ، «مواطنات» ، هم من منطقته .

لكن الشيء الجيد في أمر سيارات الأجرة في أبوظبي أنك لا تضطر إلى الدخول في حديث إجباري قد لا يناسب مزاجك في تلك اللحظة عن الأحوال الراهنة كما يحدث مع معظم سائقي سيارات الأجرة في العالم العربي ، والأهم أنك لست مضطرا

للمساومة المضنية على الأجرة ، فالالتزام بـ «العداد» في أبوظبي صارم ولا لبس فيه أثناء النهار ، أما في الليل ، فذلك أمر آخر ، وعلى الأخص ، إن كنت مصحوبا بـ «الصيد الليلي» ، عندها تكون الأجرة إكرامية!

# أسطوانة مشروخة!

منذ زيارتي الأولى إلى أهلي في «أم القيوين» وترددي ، أثناءها ، على جمعة اللامي وغسان طهبوب وعبد الحميد أحمد في صحيفة «الخليج» ، ولقائي بمن تبقى من مجموعة «الأزمنة العربية» التي كان يحاول محمد عبيد غباش إبقاء أسطورتها السياسية حيّة ، مذاك وأنا أسمع الأسطوانة نفسها عن تهديد العمالة الأجنبية (الآسيوية خصوصاً) المتدفقة مثل تيار لا ينضب ، لهوية المكان .

أظن أن هناك آلاف المقالات ومئات الدراسات والأبحاث التي تناولت هذه الظاهرة بأقلام كتاب إماراتيين وعرب . . ولكن هذه الكتابات المُحذِّرة ، المُنْذِرة ، الناعية راهن الهوية ومستقبلها ظلت في وادٍ . . والواقع في وادٍ آخر .

ويبدو أنه ، بمرور الوقت ، حيث ازداد الأمر الواقع ترسخاً وصلابة ، مل العازفون على وتر الخطر من تكرار اللحن نفسه . ملوا . . أو يئسوا ، لا فرق ، ما دامت الكلمات لم تغير الواقع ، أو حتى تؤثر في مساره .

أتساءل : هل غيرت الكلمات واقعا قط؟ لا تمدنا الوقائع

المتغيرة ، الثورات ، الانعطافات الدراماتيكية للشعوب ، بما يسند ذلك . الإرادات هي التي تغير . قد تستمد الإرادات إلهامها من الكلمة . لكن الكلمة ، حتى أشدها إلحافاً بالتغيير تظل ، من دون الإرادة ، لغواً .

فلو كانت الكلمات تملك هذه القدرة لفعلت شيئاً للقضية الفلسطينية التي لم تحظ قضية عربية ، قدرها ، بالكلمات . يمكن للكلمات التي دُبّجت في الموضوع الفلسطيني ، على مدار نصف قرن ، أن تصبغ البحر الأبيض المتوسط بالأسود أو الأحمر . . لكنها ظلت ، للأسف ، ثاوية في الكتب .

هناك اليوم في الإمارات ، بفعل الوفرة المالية الهائلة وقصص النجاح الاقتصادي السريع ، الملموس ، نوع من الانخطاف . . أو السرنمة الشاملة التي تسري في أوصال المكان ، فتنزوي ، والحال ، الأسئلة التي أرّقت وجوهاً من النخبة الثقافية والسياسية الإماراتية . ويبدو أن انزواء هذه الأسئلة يعكس تراجعاً ملحوظاً في قوة وحضور النخبة الثقافية ـ السياسية ذات الاتجاهات القومية العربية ، أو «الاتحادية» ، كما يفضل محمد غباش أن يصف المنضوين في هذا الاتجاه . . وهؤلاء هم المثقفون والمسيّسون القوميون واليساريون الذين ناضلوا في سبيل تحويل الهيكل الاتحادي الفوقي للإمارات السبع إلى واقع فعلي يخترق البنى والتشكيلات التي كانت سائدة قبل قيامه ، يحلُّ الانتماء لـ «الهوية الجديدة» (الإماراتية) محل الولاء للمشيخات السابقة عليها .

ولكن لحساب مَنْ تراجع هذا الاتجاه؟

أفهم من حديث دار بيني ومحمد غباش ، الذي يعمل اليوم أستاذاً للعلوم السياسية في جامعة الإمارات ، ولم تعد له تلك النبرة اليسارية التي سمعتها منه في ثمانينات القرن الماضي ، أن الأمر يتعلق بنمو تيارين قويين : الأول قديم ، ولكنه متواصل الحضور والتأثير ، يتمثل في الإسلاميين الذين تتجاوز دعاواهم السياسية حدود الدولة ، والثاني : جديد ويمكن وصفه بـ «الليبرالي» ذي الهوى الأمريكي ، الذي يرى في الانتماءات الوطنية أو القومية انشداداً متخلّفا إلى الماضي .

ليس التيار الثاني (الجديد) بقوة الأول ، ولكنه ، مع الحضور الأمريكي المتزايد في المنطقة ، ووجود بعض ممثليه في قمة السلطة اكتسب دعما معنويا جعله أعلى صوتا . . وربما أشد نفوذاً من حجمه الحقيقي .

هذان التياران لا يحضر عندهما سؤال الهوية على النحو الذي تجده عند «الاتجاه القومي» . فالهوية عند «الإسلاميين» أمر أوسع من حدود المكان ، بل العرق نفسه . . فـ «العربي» ، في فهمهم ، ليس متقدماً على «الإسلامي» ، فقد يكون العامل الآسيوي المسلم أقرب إليهم من العربي الذي لا يتمسك بأهداب الدين ، كما يجد الليبرالي الالتزام بـ «القضايا العربية» أو «تعريب العمل» ، عبئاً كبيراً . . أو ربما مصدر خطر على مصلحته المباشرة . . المشكلة أن المنضوين في الاتجاه الأخير ، الذي يقول بعض الإماراتيين ، إنهم يستقوون بالحضور الأمريكي في المنطقة ، لا يؤمنون بـ «توطين» هذه العمالة ، ولا حتى بمساواتها بهم . . إنهم يؤمنون بـ «السوق» ولكن

ليس بالحقوق التي تستوجبها السوق على المنخرطين فيها . . هذه هي حدود «ليبراليتهم» .

نحن ، بالطبع ، نتحدث عن نخبة صغيرة داخل مجتمع المواطنين الصغير بدوره ، والحديث عن تيارات واتجاهات متمفصلة ومتصارعة مجازي أكثر من كونه واقعياً ، مؤثرا ، وملموسا ، كما هو الحال في بعض البلدان العربية ، التي تشهد مثل هذا التجاذب .

لكن ، من الواضح ، أن تراجع الخوف على الهوية والنذير من غلبة العمالة الأجنبية (الآسيوية خصوصا) لهما أسباب اقتصادية أيضاً ، فالبلد في حالة ازدهار اقتصادي حقيقي . المال وفير . ومظاهر وفرته في كل مكان ، فإن لم يكن وفيراً في يد الجميع ، ففتاته ، في الأقل ، يطال الجميع .

فلمَ الشكوى؟

أسعار البترول حققت أرقاما قياسية في الارتفاع ، الخصخصة على قدم وساق ، مشاركة القطاع الخاص مع القطاع العام تتقدم ، تنويع القاعدة الإنتاجية بهدف الحد من الاعتماد على عائدات البترول مطّرد ، المناطق الحرة تتكاثر ، أسواق المال والأسهم تتسع . . سوق العقارات تفور . . وكل ذلك يحتاج مزيداً من العمالة . . فيغرف رأس المال المحلي (والخليجي) الذي لا تقلقه ، على ما يبدو ، أسئلة الهوية أو الديموغرافيا المختلة ، من المخزون التقليدي : شبه القارة الهندية .

وهذه العمالة رخيصة . . وأقل تطلباً من العمالة العربية .

عمالة بلا صوت حتى الآن ، ولا تدعي حقاً قومياً في الثروة

البترولية كما يفعل بعض العرب (تذكروا الشعار المتفائل ، البرّاق : بترول العرب للعرب!) .

علمت من رجل أعمال إماراتي له مزارع نخيل وخضر في «العين» أنه يدفع للعامل الآسيوي بين 500 إلى 800 درهم شهريا ، بينما يتقاضى المصري المشرف على عماله الزراعيين نحو 2000 درهم .

ـ هل لأنه عربي؟

سألت رجل الأعمال الإماراتي عن الفارق بين الرقمين .

فقال : لأنه عربي . . ومختص في الزراعة!

صدّقتُ الشق الأخير .

# صور الهوية.. والكتابة الجديدة

لننس موضوع العمالة الأجنبية ، هذه الكتلة الكبيرة من الناس الذين يواريهم الليل في الأبراج أو في البنايات التي كانت ذات يوم طموحة فتقزمت الآن أمام العمائر الجديدة ، أو الذين يثوون في الأحياء الشعبية ذات البناء الإسمنتي المتشابه في الحجم والهيئة . . أو في معسكرات العمل . لنترك هذه الكتلة المنضبطة لمشيئة العيش في مدينة لا يشعر المرء بأي سحنة كان ، من أي بلد جاء ، بأي لغة نطق ، أنه غريب فيها ، فهي مثال لمدينة الغرباء الذين لا يشعرون أنهم غرباء لأن الجميع ، تقريبا ، غرباء مثلهم ، ولنتحدث إلى شخص متموضع في المكان ومنفصل عنه في آن ، ولهذا فهو قادر ، برأيي ، أن يرى ما لا يراه طرفا المعادلة : «المواطنون» و«الوافدون» .

إنه الشاعر والفنان الإماراتي متعدد الاهتمامات محمد المزروعي .

اسم المزروعي ، وسحنته الصحراوية ، كافيان ، وحدهما ، ليردّاه إلى نسب معروف في البلاد ، لكن هيئته لا تتطابق مع هذين النسب والسحنة ، فهو ، أولاً ، لا يرتدي الزي المحلي الذي يرتديه

جميع أهل البلاد ، مهما كان عمرهم ، منزلتهم الاجتماعية ، مفاهيمهم ورؤاهم الإيديولوجية . قد يرتدي «المواطنون» الثياب الإفرنجية عندما يسافرون إلى البلدان العربية غير الخليجية ، أو إلى سائر بلدان العالم ، لكنك ، لا تراهم ، هنا ، إلاّ في الأبيض الناصع .

لكن ليس هذا فقط ما يجعل اسم المزروعي ، ببنطاله الجينز وقميصه المفتوح عند الصدر وقبعة البيسبول ، نافرا في شخصه ، بل كذلك لهجته : فهو يتحدث المصرية .

والسبب بسيط : فوالدته مصرية وعاش القسط الأكبر من حياته في مصر ، ولم يكتشف «إماراتيته» إلاّ في العشرين من عمره . وهذه قصة أخرى نتركها له ليروي وقائعها العجيبة ذات يوم .

المهم أنه ، الآن ، إماراتي ، بل ظبياني ، لكنه كلما نطق ردّته لهجته إلى مصر ، فيستغرب العرب قبل «المواطنين» إماراتيته .

مزروعي ويتحدث باللهجة المصرية؟

هذا هو السؤال الذي يعلنه البعض ، باستغراب ، أمامه ، أو ، يضمره ، باستغراب أيضا ، البعض الآخر في غيابه .

سؤال معلن ، أو مضمر ، اعتاد عليه المزروعي ، ولم يعد ، على ما يبدو ، يهمه شرحه أو تفسيره ، وهو لا يفعل ذلك إلاّ لمن يلحف في السؤال ، أو لمن تتجاوز علاقته به حدود الكلام العابر .

قلت للمزروعي : لعل ذلك متعلق بعودتك كبيرا في السن إلى بلاد والدك؟

فقال : لا أعرف ، ولكن أخي الذي عاد معي ، انخرط تماما في حياة «المواطنين» وصار يتكلم اللهجة المحلية بلا عناء أو لحن .

أسأله : هل يشكل لك الأمر مشكلة ، أو مأزقاً نفسياً؟

فقال : لا ، لم يعد كذلك ، لأنني لا أرى إلى المواطنة ، أو موضوع الهوية ، بالطريقة التي يُنظر إليها هنا ، لا أشعر أن الأمر يعنيني أصلاً .

ومن يعرف المزروعي يعرف ، حقاً ، أن الأمر لا يعنيه . فهو مسكون بأسئلة أخرى . أسئلة الكتابة والفن والقراءة ، وله ، طريقة خاصة في التعبير عن أفكاره ، تبدو ، وهلة أولى ، فنتازية أو غير مترابطة ، ولكنك تكتشف ، مع لقائه مرة فأخرى ، فرادتها .

المزروعي من شعراء «قصيدة النثر» التي ينخرط في كتابتها ، اليوم ، شبان وشابات إماراتيون بحماسة تذكّر بثمانينات لبنان وسورية والعراق . . أو بتسعينات مصر والمغرب ، وهو رسام يجرِّب ، بعفوية تكاد أن تكون فطرية ، بالأساليب والخامات . . ومن يعرف العامية المصرية يقول إنه ، أيضاً ، شاعر جيد فيها .

هذا ، إذن ، هو التعدد الذي أشرت اليه سابقاً ، وهو ، بهذا ، يذكرني بأحد أبرز أسماء الحداثة الثقافية والفنية المحسوبة على الإمارات : أقصد هنا الشاعرة والكاتبة والفنانة التشكيلية ( . .وأخيراً السينمائية) ميسون صقر القاسمي . أوجه الشبه بين الاثنين كبيرة ، من بينها ، حياتهما المصرية .

وبالمصادفة البحت ، سأرى ، في زيارتي هذه إلى أبوظبي ، ميسون القاسمي التي تقيم ، عادة ، في القاهرة وسنتغدى ، ميسون

والمزروعي وأنا ، في مطعم لبناني تابع لفندق «المريديان» . كان لقاء بلا موعد . مصادفة . وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها ميسون في بلادها .

. . . . . .

تشكل مسيون القاسمي لنا ، نحن الذين عرفناها ثقافياً وإنسانياً ، نموذجاً للفتاة العربية التي فرضت احترامها في الوسط الثقافي العربي شبه الذكوري من خلال موهبتها ودأبها على تطوير هذه الموهبة ، لا من خلال كونها ابنة شيخ الشارقة السابق .

كان من شأن الصفة الأخيرة أن تجعلها أسيرة قائمة طويلة من الممنوعات ، لكنها تمردت ، من دون ضجيج أو افتعال ، على هذه الممنوعات الفعلية ، وكرست لنفسها وضعاً ريادياً في تلك البيئة المحافظة .

وجدتُ المزروعي ، هذه المرة ، مشغولاً بما لم أكن أحسب أنه يثير اهتمامه : العمل النقابي . فقد كان يتأهب للذهاب إلى الشارقة مساء اليوم الذي التقينا فيه مع ميسون القاسمي للمشاركة في انتخابات اتحاد كتاب الإمارات ، وأقلني ، في طريقه ، إلى دبي .

كان موضوع «الهوية» هو الذي استغرق جل حديثنا في الطريق إلى دبي ، فهو يعرف أنني أكتب «شيئاً» عن أبوظبي ، وربما ، أحسَّ في حديثي استدراجا إلى موضوع يختلف عن الموضوعات التي نتناولها ، عادة ، ولكنه تجاوب ، بأريحية ، مع هذا الاستدراج .

قال محمد إن الجيل الإماراتي الجديد مشغول بسؤال الأصل

والهوية المحلية ، على نحو لم يعرفه جيل آبائهم الذي كان ينتمي ، بحكم الاتجاه السائد في المرحلة والتأهب للاستقلال عن بريطانيا ، إلى أفكار القومية العربية الفضفاضة .

يفسر المزروعي هذا الانشغال الذي يتجلى ، برأيه ، في أعمال الكتاب والشعراء والفنانين التشكيليين الجدد ، بأن هؤلاء لم يعرفوا أمكنتهم الأولى ، ولا طرز الحياة التي كانت سائدة قبل تدفق النفط ، فهناك ، والكلام له ، كتابات يتبدى فيها سؤال الهوية على نحو واضح وهناك كتابات تتضمنه في بنيتها المضمرة ، لكن أوضح تجل لهذا الانشغال ينعكس في مواقع الإنترنت العديدة التي خلقت قنوات نقاش سريعة ومباشرة لا توفرها منابر الإعلام التقليدية ، لهذا النوع من التعبير القلق ، ويبدو أن هناك عشرات المواقع التي أنشأها إماراتيون وإماراتيات تحاول أن تنشئ سردية للهوية والثقافة والمكان ، موادها الشعر النبطي ، الأزياء ، العامية «الإماراتية» ، الحكايات الشعبية ، وما شابه ذلك من عناصر تكوين «الهوية» .

أسأل المزروعي : من هم هؤلاء ، وإلى أي شرائح اجتماعية ينتمون؟

يقول : إنهم شبان وشابات عاديون ، ليسوا منخرطين في الحركة الثقافية ، وينتمون إلى شرائح اجتماعية مختلفة . لنقل إنهم مواطنون عاديون تقلقهم ضآلة عددهم بين جموع الوافدين الذين يصنعون مجتمعاً آخر غير مجتمعهم .

يستدل المزروعي على البحث عن الأصل والهوية عند هذا

الجيل باهتمامهم ، كذلك ، بالصور الفوتوغرافية التي تسجل جانباً من ماضي بلادهم وأهلهم لم يتجسد في أنساق تعبير مادية ملموسة . . أو قادرة على البقاء في ظل عصف التحديث السريع .

وقد لاحظت ، فعلاً ، في أكثر من مكان دخلته في أبوظبي انتشار صور بالأبيض والأسود لمفردات الماضي . أكواخ سعف النخيل ، نوق وجمال بأعنتها ورحلها وهوادجها ، صقور وصقارون ، أسلحة وحلي ومجوهرات ، مراكب صيد وغواصون إلخ . . إنها تلك الصور التي التقطت ، بعدسات مصورين غربيين ، غالباً ، لجوانب من حياة البدو والصحراء والبحر وصيد اللؤلؤ ، وللنشأة الأولى للمدن الحاضرة عندما كانت الأبنية الحجرية ، أو تلك المشيدة من المرجان ، تعد على أصابع اليد الواحدة . ولقد لفتت نظري الصور المعلقة في ممرات وردهات بعض الفنادق التي تبدو كأنها معرض دائم للحياة في هذه البلاد قبل النفط .

أوافق محمد المزروعي على انشغال بعض الكتابة السردية ، وربما الفنون التشكيلية والسينما الشابة الطالعة ، بسؤال الهوية (شاهدت فيلماً قصيراً حققه خالد بدر ونجوم الغانم عن آخر عبّار كان ينقل بمركبه المواطنين من جانب إلى آخر في مدينة دبي القديمة) ، ولكنني لم أجد ، وأنا المتابع لشؤون الشعر الحديث ، مثل هذا الانشغال عند شعراء جيله ممن يكتبون القصيدة بالعربية الفصحى . فهذه القصيدة بعيدة ، برأيي ، عن الأنساق الرمزية والمتخيل الجماعي الذي تجده ، مثلاً ، في القصيدة النبطية .

قصيدة الفصحى الإماراتية الحديثة لا تنهل من هذا المتخيل

الجماعي ، بل من هوية فردية وقلق وجودي قد تجد مثلهما في الإنتاج الشعري العربي الحديث ، بصرف النظر ، عن جغرافيته .

إنها قصيدة منشقة ، إذا جاز التعبير ، عن السياق الثقافي العام . فهي لا تستخدم لغته ، ولا صوره ، ولا أخيلته . . ولا تحظى ، بالتالي ، بتلقٍ واسع من قبل جمهرة «المواطنين» ، وهي ، تشبه ، في هذا أيضاً ، نظيرتها العربية . . مع فارق أن الشعر العمودي ، وما هو أدنى إليه ، أقرب للذائقة العامة في الحالة العربية ، فيما لا يزال الشعر النبطي يمثل ديواناً ، إذا جاز التعبير ، لمعظم الخليجيين .

وفي رأيي ، أن الشعر النبطي في الإمارات (وكذلك في معظم دول الخليج) هو ، إلى ذلك ، مستودع لرموز الماضي التي لا يكفُّ ساكن الأبراج الحديثة ، عن استدعائها . إنه نوع من ملاذ أيضاً في وجه حاضر لا يمثله تماماً . فالأبراج الزجاجية ، البورصات ، أحدث السيارات والموبايلات وأجهزة الكومبيوتر ، ليست سوى مظاهر خارجية لحياة «المواطنين» هنا ، ففي أعماقهم تسكن ثقافة ليست بعيدة عما عرفه آباؤهم قبل أن يقع هذا الانقلاب الدراماتيكي في حياة الصحراء .

شعراء القصيدة العربية الفصحى الحديثة هم أبناء حقيقيون ، لهذا الانقلاب ، لذلك لا يعكس شعرهم نسقاً عاماً ولا متخيلاً جماعياً ، بل هوية «شقية» قيد التشكل : هوية الفرد في المدينة الحديثة التي ، يبدو ، أنها ستكون هوية المستقبل .

لو أراد باحث غربي مثل الهولندي مارسيل كوبر شوك دراسة النزاعات التي عرفتها هذه البلاد وأنساق حياة أهلها الاجتماعية

واعتزازهم بقيمهم وتفاخرهم بأنسابهم ، أي باختصار : ما يشكل اجتماعهم ، لقام بدراسة الشعر النبطي ، لا الشعر العربي الحديث . فالأخير لا يمده بالخصائص المحلية التي تفي بغرضه ، ولا يعينه في مهمته «الأنثروبيولوجية» .

في جيل محمد المزروعي ثمة كوكبة من الشعراء الذين لا يقل شعرهم جودة عما يكتب في مراكز الشعر العربي الأخرى ، ولكن حضورهم في المشهد الشعري العربي ضعيف ، وهذا ، في كل حال ، موضوع آخر يحيل إلى قضية «المركز» و«الأطراف» . فمن هذه الأسماء ، إضافة إلى محمد المزروعي : أحمد راشد ثاني ، إبراهيم الملا ، خالد بدر ، عبد العزيز الجاسم ، عادل خزام ، ثاني السويدي ، أحمد العسم ، علي العندل (توفي) ، لكن اللافت في هذا المشهد الشعري هو حضور المرأة . فهناك من الشاعرات ما يضاهي عدد الشعراء أو يبزهم ، وتحضرني هنا أسماء مثل : نجوم الغانم ، خلود المعلا ، عائشة البوسميط ، الهنوف محمد ، مها خالد .

أما في الجيل السابق على جيل المزروعي فثمة اسمان معروفان ، في المشهد الشعري العربي الحديث : ظبية خميس (وهذا اسم متمرد في الشعر والحياة والمواقف ، ريادي ، أيضاً بل مبكّر في ريادته) وميسون صقر القاسمي . فهل من دلالة ، هنا ، أن يكون أكثر اسمين شعريين معروفين على نطاق عربي واسع ، من هذه البلاد المحافظة ، هما نسائيان؟!

# في الطريق إلى «العين»

وصل هاني الحوراني إلى أبوظبي قادماً من عمان بعد ثلاثة أيام من وصولي إليها ، مدججاً بالكاميرات ، ومصطحباً معه بعض ألبومات أعماله الفوتوغرافية .

للحوراني ، المصور ، عين الفنان التشكيلي التجريدي . الخطوط ، الألوان ، النتوءات ، الشقوق ، هي التي تشده إلى موضوعه . عينه تذهب مباشرة إلى التفصيلي والجزئي لا إلى الكلي . كان أحد ألبوماته مكرساً للمراكب القديمة التي رآها في رحلاته خارج الأردن ، وآخر لمقاطع من بناء زجاجي في لاس فيغاس في أمريكا . يصعب أن تصدق وأنت تقلّب الصور ، أن هذه الصور/اللوحات هي لجوانب من مراكب قديمة ، أو لأجزاء من برج زجاجي . فالتشكيل ، هنا ، خصوصاً لألبوم المراكب ، يحيلك مباشرة إلى العمل الفني التجريدي الذي تلعب فيه مساحات اللون المقطوعة بخطوط أو صدوع وفراغات دوراً رئيسياً .

كان علينا ، هاني وأنا ، أن نستعيد شريطاً طويلاً من حياتنا في العمل الوطني الفلسطيني ، وأن نربط التقطعات التي اعترته ، ونملأ ، ما أمكن ، فراغاته ، بعد نحو عشرين عاماً من انهيار برج

بابل البيروتي الذي ضم سحنا وأصواتاً وأحلاماً لم تجتمع ، من قبل ، في مكان عربي آخر . اكتشفنا ، أثناء أحاديث الليل الطويلة ، أننا تغيرنا . فلم نعد نشبه ، كثيراً ، ذينك الشابين المحتشدين بالأحلام المرسلة والأفكار الكبيرة حول تغيير العالم . اكتشفنا أن العالم لم يتغير ؛ بلى تغيّر ، ولكننا لسنا نحن من غيّره ، وإنما قواه الداخلية المحركة ، ديناميته التي لم نستطع ، على ما يبدو ، القبض عليها ، وأنه ، بمكر شامت وضاحك ، هو الذي غيرنا .

وبما أننا تحدرنا ، هاني وأنا ، من أصلين فكريين وسياسيين مختلفين ، بعض الشيء ، فلم يكن تغيّرنا بالسرعة والقدر نفسه . هو الذي تحدر من أصل أكثر مرونة ، وواقعية ، وقدرة على التكيّف وجد لنفسه مكاناً مريحا في «العالم الجديد» ، فيما كان تغيّري ، أنا الذي يتحدّر من أصل إيديولوجي أكثر تصلباً ، أبطأ ، أصعب ، فظللت ، على ما يبدو ، حائراً ، غريباً ، ألوب في منزلة بين المنزلتين .

لا أنا بقيت هناك .

ولا أنا وصلت إلى «هنا» .

ولكن هذه حكاية أخرى من حكايات عالم عربي ، تدفعه قوىً من خارج جسده الكبير المترهل ، إلى حيث لا يعلم أو يخطط ، فيما رأسه المثقل بصور الماضي يتطلع إلى الخلف .

في صباح اليوم التالي لوصول هاني الحوراني كان علينا الانطلاق إلى الوجهة الأولى في رحلتنا : مدينة «العين» ومحيطها . ولهذه المدينة ، بل للمنطقة الشرقية كلها ، أهمية خاصة في نشأة إمارة أبو ظبي ، إضافة إلى كونها واحدة من أقدم المستوطنات

البشرية في هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية .

«العين» اسم شائع ، أيضاً ، في معظم البلاد العربية . فهو يعني ، كما نعرف ، عين الكائن ، كما يعني نبع الماء . وكل مكان يتذرذر منه الماء ، ينبجس ويسيل قليلا ، يسمى عينا . هناك ، على امتداد العالم العربي الظامئ ، مئات البلدات والمواقع التي تحمل اسم «العين» مجرداً ، أو العين مرتبطاً باسم علم .

العين ليست بئراً ، ولا هي سيل ، ولا فلج ، إنها نبع يذرف ماءً مثلما تمتلئ العين بالدمع . تغرورق به . فيسيل منها . وفي بلاد ، كبلادنا ظامئة دائماً إلى الماء ، يكون لهذا الاسم ، ما إن يُنطق ، وقعٌ نديٌّ ، رطبٌ ، على نفوس لم تحتسب الماء أمراً مُسلَّماً به كما هو عليه الحال ، في أوروبا ، مثلاً ، التي تضيق نفوس أهلها ، من فرط الأمطار ، فتطير ، بالأجساد والأخيلة ، إلى مرابع الشمس والجفاف .

«العين» المدينة تعني الماء .

ولا شيء ، لا شيء ، أثمن من الماء في هذه المفازة الشاسعة من الصحراء ، في هذا المدى الذي تُبخِّر فيه شمسٌ فتاكةٌ سوائل الأجساد ونُسغ النبات .

كان إبراهيم العابد قد حدثني عن الدهشة التي أصابت صحافياً إنكليزياً عندما أجابه الشيخ زايد عن سؤاله عن أهم إنجازات بلاده بعد النفط ، فقال له : أصبح لدينا ماء!

كيف يمكن لإنكليزي يضرع أهل بلاده إلى السماء كي تتوقف عن سكب الأمطار على رؤوسهم ، كأنها لعنةٌ ، أن يفهم مثل هذا الجواب؟

سيفهمه في حال واحدة : أن يغادر فندقه المجهَّز بكل أدوات الراحة ، أن يترك وراءه زجاجات المياه المعدنية ، أن يتجاوز كل ما من شأنه أن يرمي ظلاً على الأرض . . أن تُلقي به سيارة على بعد عشرة ، أو عشرين كيلومتراً ، في أي اتجاه ، خارج المدينة . هناك ، سيعرف ، معنى المياه ، مثلما عرف ملك بابل ، في قصة لبورخيس ، الذي أشاد متاهة نحاسية لا مثيل لها من قبل ، معنى المتاهة الحقيقية عندما أطلقه الملك العربي في الصحراء!

منذ الصباح الباكر كان سائقنا «حنيف» ، يرابط ، بثوبه العربي الأبيض ، المكويّ جيداً ، في بهو الفندق . أخبرنا بوصوله وترك لنا حرية تحديد وقت الانطلاق . كنا اتفقنا أن نغادر الفندق في نحو التاسعة ، لكننا لم نفعل إلاّ بعد العاشرة ، فقد واصلنا ، هاني وأنا ، على مائدة الإفطار استدعاء صور ووجوه وأحداث من أيام بيروت .

غادرنا الفندق بسيارة «تويوتا» طحينية اللون ، يسوقها «حنيف» الذي لم نعرف ، بعد ، جنسيته ولا مدى تضلعه بالعربية أو الإنكليزية ، لكن هندامه المرتب ، طول قامته واعتدالها ، دقته وكفاءته في الحركة أعطت انطباعاً بثقة طلعت في محلها .

للذهاب إلى «العين» ينبغي سلوك طريق المطار . وهذا أحد أكثر الطرقات التي مررنا بها ، فجزيرة أبو ظبي لها مخرجان على البر ، الأول عن طريق «جسر المقطع» ، وهو الأقدم في الجزيرة ، والثاني «جسر المصفّح» الذي يمر من المنطقة الصناعية ، وهذان الجسران هما اللذان يربطان مدينة أبو ظبي بالبر الرئيسي ، وهناك عمل ، الآن ، على إقامة جسر ـ معبر ثالث لتوسيع مدى الحركة من الجزيرة وإليها .

ما إن تغادر مدينة أبوظبي ، التي تناطح عمائرها السحاب (لكن أين السحب في سمائها العارية؟) ، حتى يستعيد الفراغ سيادته على المدى . تخرج من عمودية البناء ، من حركة السابلة ، من تزاحم العلامات التجارية الفاقعة الألوان على الحوانيت ، من تدفق السيارات في شرايين المدينة ، إلى الفراغ المنتظر ضيوفه الطارئين .

الفراغ سيّدٌ ، لكن العمران يزحزحه ، بهمّة الجرافات والإسمنت والحديد المسلح ، عن عرشه . يدفعه إلى الوراء ، يرمي في أحشائه عضائد الخرسانة ، لكنه ، مع ذلك ، يظل موجوداً .

الفراغ أصل .

الموجودات طارئة .

لا مكان كهذا يصول فيه الفراغ ويجول .

اتركِ المدينة قليلاً ستجده ينتظرك هناك ، بصمته العظيم ، أو بصفير الريح في جنباته المترامية ، ستلفظ عيناك فوضى الصور ، الألوان ، هرطقة الكونكريت ، مخططات الهندسة وارتجالاتها ، لتكون أمام هندسة أحادية الضلع .

سيصفو ذهنك .

ويدبُّ بك شعور متقلب بين الزهد والسكينة وانعدام الحيلة . أما إذا ابتعدت أكثر داخل هذا الفراغ العظيم الذي يسمى الصحراء فسوف يدب بك الذعر ، وستدرك ، إن كنت قرأت قصة بورخيس «ملكان ومتاهتان» ، ماذا يعني أن تضيع إلى الأبد من دون أن يعثر عليك أحد ، فأين متاهة الملك البابلي النحاسية التي أمر كل

مهندسيه وصُنَّاعه ببنائها من متاهة الرمل الإلهية هذه؟

أفصحَت المتاهة ، أعني الصحراء ، عن نفسها بقوة مثلما فعلت عندما زرت «ليوا» في العام الماضي . كانت السيارة تطوي ، من دون صوت تقريباً ، الطريق طيّاً ، لتسهم في تكثيف سطوة الفراغ . الطريق مشجّرة ، لكن كثافة الخضرة أخذت تتضاءل بعد أن جزنا المطار قاصدين «العين» . الصحراء تحفُّ بالطريق من الجانبين ، لا تعترض انبساطها وتماديها إلاّ أعمدة الربط الكهربائي أو بيوت متناثرة هنا وهناك . . إشارات تحاول أن تتحدى الصحراء أو تتآخى معها .

تبعد «العين» نحو 165 كيلومترا عن أبو ظبي ، وبسياقة منضبطة ، للسرعة القانونية ، وتوقف في إحدى محطات البنزين (هي أيضا استراحة) للتزود بالوقود وشرب فنجان من القهوة والتسلح بزجاجات المياه المعدنية ، استغرقتنا الرحلة نحو ساعتين .

شاخصات الطرق ، على طول طريق المطار ، تحمل أسماء أمكنة عديدة في الاتجاهين ، لفت نظري منها اسم «المفرق» وهي بلدة تقع بين أبو ظبي والعين وقد ذكرني بمدينتي في الأردن التي تحمل الاسم نفسه ، لكنَّ كثرة أسماء العلم على هذه الشواخص ، لا تعني وجود مدن أو حتى بلدات كبيرة هناك . بعض هذه الأسماء يحيل إلى مواقع نفطية أو صناعية ، وبعضها الآخر أسماء بلدات وتجمعات سكانية صغيرة . فإمارة أبوظبي ، تتكون ، في الواقع ، من ثلاث مدن كبيرة ، أولها مدينة أبوظبي (العاصمة) ، وثانيها «العين» وثالثها «مدينة زايد» كبرى مدن «المنطقة الغربية» التي تقع فيها

واحة «ليوا» ، فضلاً عن عدد من الجزر قليلة الكثافة السكانية مثل «دلما» و«السعديات» و«أبوالأبيض» ، أو غير المأهولة إلاّ بآبار النفط والعاملين فيه مثل «داس» و«زركوه» و«أرزنه» .

كل ذهاب في عمق إمارة أبوظبي هو اقتراب من صحراء «الربع الخالي» . إنها الخلفية الرهيبة ، الجاثمة في الخلف بمتاهة رملية كبرى تتوزع على ثلاثة بلدان في شبه الجزيرة العربية ، لكن الذهاب إلى «العين» هو اقتراب ، أيضاً ، من عُمان ، بل قل هو تداخل بها .

هنا يتضح التداخل بين ما هو عُماني وما هو إماراتي الذي أشرت إليه في تضاعيف هذه الكتابة من قبل .

فهذه المدينة التي لم تكن في مطلع السبعينات سوى بلدة صغيرة من بلدات «واحة البريمي» عرفت تنازعاً مريرا على سيادتها بين السعودية وعمان والإمارات . عُمان والسعودية أنهيا نزاعهما على جزء من «واحة البريمي» بعد قرار لمجلس الأمن الدولي أعطى عُمان حق السيادة على جزء من الواحة ، فيما ظل النزاع السعودي ـ الظبياني قائماً حتى العام 1974 ، عندما وقع الطرفان «اتفاقية جدة» التي أقرت بسيادة إمارة أبوظبي على ست من قرى واحة البريمي بما فيها العين ، لكن مقابل تنازل أبوظبي عن «خور العديد» الرابط بين أبوظبي وقطر ، و80٪ من حقول «الشيبة» الغنية بالنفط والغاز ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا الأمر في نهاية الجزء الأول من هذا الكتاب .

هناك أكثر من سبب جعل الشيخ زايد يوافق على اتفاقية ،

يرى بعض المراقبين أنها مجحفة في حق إمارة أبوظبي ، منها ، كما أشرت ، سابقاً ، حرص رئيس دولة الإمارات على انتزاع اعتراف سعودي بدولته الوليدة التي لم تكن مملكة آل سعود قد اعترفت بها حتى بعد ثلاث سنين على قيامها واعتراف جامعة الدول الجامعة العربية بها ، ونيلها عضوية الأمم المتحدة . . لكن ، في ظني ليس هذا هو السبب الوحيد . فهناك سبب آخر . سبب شخصي . فـ «العين» هي مربع طفولته وشبابه ونقطة انطلاقه لحكم إمارة أبوظبي ، المنصب الذي مكّنه ، لاحقاً ، من توحيد سبع إمارات صغيرة تنازعت في ما بينها ، نحو ثلاثة قرون ، في دولة عصرية .

وإذا كانت واحة «ليوا» هي أصل السلطان في هذه الإمارة ، وأبوظبي عاصمته ، فإن «العين» هي ضلعه الثالث .

قبل ظهور البترول كانت «العين» مصدر غذاء أساسي لسكان إمارة أبو ظبي .

السمك من الساحل والخضر والتمور من «العين» .

كانت ، أيضاً ، مصيف الإمارة وسوق عمل ومصدر غذاء لعدد كبير من أبناء القبائل الذين كانوا يفدون إليها في موسم جني التمور .

إنها البقعة الأكثر اخضراراً في الإمارة قبل أن تبدأ عملية التشجير المستمرة مذ تدفقت عائدات البترول إلى يومنا هذا .

بلدة مياه جارية ،

وأشجار نخيل باسقة ،

وخضر وفواكه ، في وقت كانت فيه المياه والخضرة في محيطها

الصحراوي الممتد إلى «الربع الخالي» أندر من الكبريت الأحمر .

هذه أسباب جعلت لبلدة «العين» وجوارها أهمية حيوية في نشأة الكيان الظبياني وتطوره ، عدا كونها ، نقطة تقاطع استراتيجية للطرق القادمة من الداخل الصحراوي والساحل الشرقي لخليج عُمان والساحل الغربي للخليج العربي وسلسلة «جبال الحجر» الغربية .

إنها عقدة مواصلات لطرق التجارة وحركة الناس .

محطة استراحة .

سوق لسلع تباع فيها وسلع تشترى منها .

أو مقصد نهائي لأفخاذ ، أو بطون ، من قبائل الصحراء التي تضيق بها فسحة العيش .

فعلى بعد أكثر من ١٥٠ كيلومترا ، في كل اتجاه ، لم تكن هناك واحة أو بلدة تعرف حياة مستقرة سوى «واحة البريمي» التي تقع فيها «العين» .

# مدينة أفقية

هذه هي زيارتي الثانية إلى «العين» .

لكنَّ الأولى حدثت ليلاً .

في العام الماضي دعاني عمي «ماجد» الذي يقيم وعائلته في «العين» إلى زيارتهم ، ولمّا كان وقتي محدوداً فقد فضلت أن أقضي الليل عندهم وأعود إلى أبو ظبي في اليوم التالي . استأجرت سيارة من شركة «الغزال» في أبوظبي . كان السائق ، للمفاجأة ، سورياً ، أمضى نصف الطريق يتكلم بهاتفه المحمول مع أشخاص (سوريين على ما يبدو) عن أسعار تصريف العملة السورية ، وعن إيصال مبالغ معينة إلى فلان وأم فلان . . أما النصف الثاني من الطريق فقضاه يشكو غلاء المعيشة في البلد .

كان الرجل يبدو مأزوماً .

في ذلك الوقت كانت أسعار البترول متدنية ، فتدنت ، بالتالي ، أجور العاملين في القطاع الخاص ، بل فقد كثير من الذين لا يقومون بأعمال أساسية لمخدوميهم وظائفهم .

على رخصة السياقة التي يضعها في غلاف بلاستيكي شفاف أمامه قرأت اسم عائلة السائق السوري : «أبو نبّوت» . قرع هذا

الاسم جرساً في رأسي . استغربت المصادفة . فلعمي «ماجد» ، الذي يقلني إليه هذا السائق ، صديق قديم من أيام دراسته في جامعة دمشق يدعى «محمد أبو نبّوت» . أخبرت السائق بذلك ، فقال إنه أحد أبناء عمومته ، وقد فُقِدَ أثره بعد مواجهات «الإخوان المسلمين» السوريين مع النظام في منتصف ثمانينات القرن الماضي . سألته إن كان يعتقد أنه قُتل . فقال إنه لا يعرف . بدا واضحاً أن الرجل لا يريد مواصلة الحديث في هذا الموضوع . عندما أخبرت عمي عن تلك المصادفة الغريبة ، سألته عما جرى لزميله القديم ، فعلمت منه أن «أبو نبّوت» كان من الأسماء المطلوبة للنظام في سورية ففرَّ إلى الخارج ، وهو يعتقد أنه يقيم في الأردن ، أو في السعودية .

لم أر الطريق جيداً ، فالظلمة كانت حالكة .

الشيء الوحيد الذي رأيته هو صفّان من الأشجار المتناثرة ، قليلة الكثافة التي تحيط بالطريق ، ثم الأضواء المتلألئة التي لاحت لنا ما إن اقتربنا من المدينة . لم يكن السائق السوري يعرف المدينة جيداً ، فلم تنفع ، والحال ، إرشادات عمي له على الهاتف المحمول ، فانتهى بنا الأمر عند أحد مباني جامعة الإمارات وجاء عمي لاصطحابي بسيارته . كانت المدينة مُنارة جيداً . نظيفة . مرتبة ، كما هو الحال في أبوظبي ، ولكنها بدت لي أكثر انبساطا من العاصمة . مدينة أفقية لا عمودية . الأشجار ، ليلاً ، كانت كثيفة وقاتمة مما يوحي بوجودها الطبيعي ، المتأصل .

وها أنا أتحقق ، تماماً ، من ذلك .

عكس السائق السوري ، كان «حنيف» يعرف المدينة جيداً ، فقام بجولة صغيرة في وسطها وتوجه إلى هدفنا الأول : «جبل حفيت» الذي يبعد نحو عشرين دقيقة بالسيارة من وسط «العين» .

خرجنا من وسط المدينة وصرنا على أطرافها ولكن الخضرة المتواصلة في الشوارع ، وراء أسوار البيوت ، في مستديرات الطرق ، أدهشتنا ، هاني وأنا .

هذه فعلا مدينة خضراء .

قد يستغرب البعض إلحاحي على ذكر الخضرة والماء في هذه الرحلة ، ولكن الاستغراب ، لمن لا يعرف هذه البلاد ، سيتلاشى ، حتما ، ما إن يزورها .

لا يكفي أن ترسم صورة في ذهنك للصحراء وتقول : هذه صحراء .

لا يكفي أن ترى صوراً فوتوغرافية ، أو فيلماً ، حتى تكون قريباً من شساعة ولظى رمالها .

أن تتصور ذلك ، وأنت تجلس في بلاد تعتبر الماء والخضرة أمرين بديهيين ، عاديين ، لا يثيران أسئلة ، أو فضولاً ، لن يجعلك تقدّر أهميتهما ، ولا بالتأكيد ، يقرّبك متراً واحداً من الصحراء .

عليك أن تكون تحت عين الشمس التي تسكب نحاساً مصهوراً على الرؤوس لتعرف ماذا تعني الصحراء ، وأن تخوض في رملها وحصبائها الملتهبين لتدرك ما الذي يعنيه وجود الماء والخضرة .

كل نبتة ،

كل ظلة ،

كل قطرة ماء ،

جديرة بمديح غامر .

هكذا بدت لنا «العين» جنّة ، معجزة ، تلويحة خضراء للقادمين من المفازات والهجير ، فلا عجب ، والحال ، أن تنشأ فيها ، قبل تدفق كل هذه الثروة والتمكّن من التكنولوجيا التي شقت قلب الصحراء وذللت ما كان يبدو غير قابل للتذليل ، حياة محسودة يغير عليها المقذوفون في مناطق أقل حظاً من الماء والخضرة ويتقاتلون في سبيلها ، ولا عجب ، كذلك ، أن يقايض قائد بدوي بئر ماء وبضعة أفلاج بآبار نفط وبحر من الذهب الأسود!

فما الذهب الأسود أمام الذهب الأبيض؟

هل يروي امرءاً ، دابةً؟

هل يُنبتُ عشبةً؟

هل يُبرّدُ وجهاً ساطه الحرُّ؟

قد يقول قائل : ولكنه قادر أن يُحلّي مياه البحر ، أن يبتاع مياها معبأة بصفائح من فضة؟

ولكن هل تحلية المياه مثل المياه الحلوة؟

هل زجاجة الماء المعدني مثل ماء يتدفق بارداً ، رقراقاً من قلب الصخر؟

## «جبل حفيت»: عائلة من «المراقيب»

ويا طروش يللي ناحرين المراجيب
اتريضو لي وقصروا من خطاكم
واخذوا كلام الصدق ما به تكاذيب
وياموافقين الخير حنا وياكم
وهديت بيكم راجل لوادي سلاحيب
ولقيت بصة خامدة في جماكم( . . .)
واسعى مع الخلقان وارافق الذيب
ومن خوف لا ينقص عليكم عشاكم
ويا عيال ما سرحتكم مع الاجانيب
ولا عالصقعة كليتم غداكم ( . . .)
و احفيت رجلي في سموم اللواهيب
وخليت لحم الريم يخالط عشاكم
وقمت اتعكز فوق عوج المذاريب
وقصرت خطاي يوم طالن خطاكم ( . . .)

كان «جبل حفيت» يبدو كحشد من الأنصاب البدائية التي تحيط المدينة من الغرب . «حفيت» عائلة من الجبال المستندة إلى بعضها بعضاً بسلسلة فقرية واحدة . عائلة من الجبال «المراقيب» ، أو «مرقاب» واحد ، برؤوس متعددة ، وأعضاء توشك أن تتحرك في السراب المتلألئ .

قلتُ جبلاً ،

وقلتُ عائلةً من الجبال ،

وقلت سلسلةً فقريةً من المادة التي قدَّت منها أنصاب الآلهة ، ولكنني قلتُ ، أيضاً ، «مرقاباً» ، كما يمكن لشاعر بدويٍّ من بلادي ، أو من هذه البلاد ، أن يصفه . بوسع شاعر كهذا أن يستذكر «الذيب في عالي المراجيب» ، يمكن له ، كذلك ، أن يرى مخايل «الطروش» في السراب المنداح دوائر في الأسفل .

تذكرت ، عندما قفزت كلمة «مراقيب» (أو بلفظ آخر : مراجيب) إلى ذهني ، القصيدة البدوية التي كان يرددها أبي أمامنا وتتحدث عن نكران أبناء الشاعر البدوي المجهول (البعض ينسبها في الأردن إلى فريج السرحاني) لأبيهم . ليس هناك سبب لدى والدي ، على ما آمل ، لمقارنة مصيره بمصير الشاعر البدوي الذي أساء أولاده معاملته رغم أنه «أحفى» قدميه في سموم «اللواهيب» بغية توفير الطعام لهم . كان والدي يكرر ، خصوصاً ، البيت الأخير : وقمت اتعكز فوق عوج المذاريب وقصرت خطاي يوم طالن خطاكم(!) رغم أنه صلب العود ولا تزال خطوته أطول من خطانا . لا سبب لدي ، أيضاً ، لاستدعاء تلك القصيدة لولا تلك الكلمة

التي ذكرني بها الجبل المتوحد . الذاكرة تعمل بطريقتها الخاصة ، ولا خلاص ، على ما يبدو ، من تداعياتها أو عبئها أو . . لؤمها .

***

عالٍ ، بأكثر من وجه وقُنزعة وذراع ، وأردية تتقلّب بين الترابي المطفأ والأحمر كبطن سهلٍ من حوران ، يحدّقُ «حفيت» بنظرة طويلة ، متمهلة ، في المدى المنبسط أمامه حيث يغمر المدينة ، في الهاجرة ، سراب متراقص يشبه وعداً بمياه كاذبة .

فعندما تجتاز المدينة المرسومة بالأخضر تكون ، تماماً ، تحت أنظار الجبل .

قمم جرداء ، ذات تكوينات نحتية فطرية ، ولكن من كعبها الذي يتفتت من فرط الجفاف ينزُّ سائل الحياة ، إكسيرها .

فهناك عين تفيض ، حاملة معها أخلاطاً من المعادن والعناصر المداوية ، ذكرتني بـ «ماعين» في الأردن . الاسم مشترك أيضاً : ماء عين ، مدغومة . «ماعين» الأردنية مقصد شفائي ، و«عين الفايضة» في «جبل حفيت» كذلك .

نتوقف أمام البحرة الاصطناعية ، تحت النظرة الصارمة ، المحدقة لـ «حفيت» . هناك استراحة تحمل اسم الجبل . نبتاع مياهاً معدنية ، نشرب قهوة . ونظن ، هاني وأنا ، أن هذه نهاية المطاف ، مع أننا رأينا منشأة في قمة الجبل . نسأل «حنيف» ، فيقول : لا . . سنصعد إلى الجبل . فوق . نعود بالسيارة إلى طريق جيدة التعبيد ، لولبية الشكل . نرى طرفها ولكننا لا نرى التفافاتها الأفعوانية بين

الصخور المشقوقة ، على شكل زاوية قائمة ، أحياناً . نصعد بشيء من الصعوبة . تستطيع أن تشعر بالسيارة وهي تئن تحت ثقل الغيار الأول والثاني .

الوقت ظهراً .

الشمس شبه عمودية .

لا أحد زاحمنا على الطريق . الطريق كلها لنا . يطير بعض الطيور الذي يتخذ من شقوق الجبل وفتحاته أعشاشاً أو استراحات له ما إن يسمع هدير السيارة يقترب . نصل إلى فندق يحمل اسماً فرنسياً «ميركور غراند» نزلت ، ذات يوم في الإسكندرية ، في واحد يحمل الاسم نفسه ، وبين الفندق والصخرة المقابلة نرى نفقاً ؛ أو ممراً ، مغطى بسقف أحمر يؤدي إلى غرفة تبدو «مرقباً» تتربع ، وحدها ، على الصخرة المطلة على واحد من جروف الجبل .

لولا صلتها الواضحة بالفندق لاعتقدت أنها صومعة ، وذلك لتنائيها وعزلتها . صومعة صوفي! كلا . فالفندق الكبير الذي يتربع على إحدى قمم «حفيت» ، المسيج بالخضرة ، والذي يحمل اسماً أجنبياً ، يبدد هذا الانطباع . سأسمي هذه الغرفة المتصلة بالفندق من خلال ممر مسقوف ، «مرقباً» .

صخور «حفيت» مكرمشة ، منخورة في القمة التي وصلنا إليها . عوامل الحتّ والتعرية وصولات الريح فعلت فعلها فيها . أما النبات الذي نراه يحيط بالفندق ويسيل من أحد جوانبه فهو مستنبت ، بالتأكيد .

في الجبل نفسه ، في سفحه وحضيضه ، وعلى طول المدى

الذي يتراءى لك غامضاً ، مغبراً ، ثمة القليل من النباتات . هناك أشجار قصيرة ، شوكية ، عنيدة ، تطلع من بين الشقوق ، أو تتشبث بتربة منتزعة من قبضة الصخور .

الطريق إلى قمة «حفيت» وصولاً إلى هذه المنصة المعبّدة ، مربعة الشكل ، المحاطة بسياج حديدي حديث الدهان ، عمل إنشائي كبير . فهي تخترق قلب الجبل الصلد ، أو تلتف على زواياه . ببساطة تمكن ملاحظة اختلاف طقس «العين» عن طقس أبو ظبي . الحرارة هنا جافة . البحر بعيد . لا رطوبة . مثلما كان عليه الحال عندما زرت «ليوا» في العام الماضي . الحرارة صرف . صافية . لا تشوبها شائبة .

حركنا ، هاني وأنا ، الحاجز الحديدي المكتوب عليه بالإنكليزية كلمة «بوليس» ليحول ، كما هو واضح ، دون تجاوز المنصة المعبّدة ، ووقفنا على صخرة تحتها جرف كبير . ثمة من وصل إلى هنا وحاول أن يسجل ، كما هو الحال في مناطق نائية وغريبة كهذه ، اسمه دليلاً على عبوره المكان . . أو رغبة في خلودٍ مؤقت . خلودٍ عابر . فلا خالد هنا إلاّ هذه الصحراء التي تنبسط أمامنا كمشهد من فيلم خيال علمي عن كوكب مهجور ، سوى هذا الجبل المنتصب في قلب الصحراء منذ آلاف السنين .

قرأت على الصخرة اسم «نجيب» ، وثمة من نقش الحرفين الأولين من اسمه . لطالما رأيت أسماء العابرين ، هؤلاء ، منقوشة في مناطق أثرية في الأردن ومصر وسورية ولبنان .

هناك ، أيضاً ، في ممرٍ وعرٍ تحت الصخرة يؤدي إلى الجرف

الحاد ، آثار أقدام . أستغرب من شقّ هذا الممر الذي لا تبدو له وظيفة . فمن المستبعد أن يكون طريقا للرعاة ، فلا يبدو أن هناك ما يُرعى في هذه البقعة الجرداء . لعلهم الصيادون . فقد علمت أن «جبل حفيت» مقصد معلوم لهواة صيد الطيور ، كما أنه موطن للماعز البري العربي النادر . . وقد سبق للرحالة الإنكليزي «ثيسغر» الذي خيَّم ، مع رفاقه «الرواشد» ، في سفحه ، أن اصطاد وعلاً بريّاً في أحد جنباته .

المنصّة المعبّدة (الساحة) مسيجة بسياج حديدي جديد مدهون بالأسود ، يلمع بين قضبانه وخوازيقه لون ذهبي فاقع . المقصود ، بالطبع ، أن لا يتجاوز أحد هذه الساحة . فهنا ينبغي أن تنتهي الرحلة بالسيارة . هنا تتوقف وتنظر إلى المدينة الأفقية ، والمدى الصحراوي الذي يحيط بها .

وصلت سيارة ، هبط منها رجل وامرأة أوروبيان ، توقفا قليلاً عند السياج ، المرأة التقطت بعض الصور ، ثم غادرا في اتجاه الفندق . لا بدَّ أنهما من نزلائه . كان هاني الحوراني ، في الأثناء ، منهمك ، بالتقاط الصور بأكثر من كاميرا . فتنه الجبل الذي لا مثيل له ، على ما أظن ، في إمارة أبو ظبي كلها ، وقد ذكّره بالجبال التي تحجب البتراء عن الناظرين ، فمثل «جبل حفيت» هناك في مدخل «البتراء» ، عين ماء تسمى «عين موسى» ، ينسبها البعض ، من دون بيّنة ، إلى النبي موسى .

الصمت مبطق . «حنيف» الذي زار المكان ، كما أخبرني ، أكثر من مرة ، فضلَّ البقاء في سيارته المكيّفة ، بعد أن اضطره اثنان من

المدخنين الشرسين لفتح شبابيك سيارته ، تقريباً ، طوال الرحلة .
الآن يمكنه معانقة المكيّف!

بدا لي فندق «ميركور غراند» مكاناً مثالياً للانقطاع عن العالم . للاسترخاء الكلي . إنه ضالة منشودة للذين يرغبون في هجر الضوضاء والتوحد بأنفسهم ، أو تأمل حيواتهم . . وسماع أصواتهم الداخلية المحجوبة بإكراهات الحياة والعمل في المدن الكبرى . . أو ببساطة للاسترخاء . وليس غريباً ، والحال ، أن معظم نزلاء الفندق القلائل أوروبيون . فلا شيء ، هنا ، يمكن أن يعكر عليهم هذه الخلوة . لا شيء ، فعلاً . فالمدينة بعيدة ، ولا منشأة أخرى في هذا الجبل سوى الفندق المجهّز بكل أدوات الراحة . يمكنهم أن يسمعوا ساعة الوقت وهي تدبُّ على الأرض بعقربها دقيقة بعد أخرى . لا بدَّ أن الزمن هنا طويل ، بطيء ، متمط ، لا شيء يهمز جنباته الكسولة . للزمن مقاييس عديدة . منها ، مثلاً ، ما يحدث فيه أو يمرُّ به . هنا لا شيء يمرّ لتعرف كم انقضى من الوقت . الشمس المتسيّدة السمت كلّه هي ساعة الزمن الكبيرة . . الساعات الأخرى لا معنى لها تقريباً .

لا أدري كم مضى من الوقت ونحن نقف على تلك الحافة من «حفيت» . جاءت سيارة أخرى من صوب الفندق . هبط منها ، أيضاً ، رجل وامرأة . اقتربا منا . كانا يتحدثان بالإنكليزية ، تأمّلا مشهد السهل المنبسط أمامنا . نظرا إلى الحواف الصخرية الناتئة للجبل . التقطا صوراً ، مثلما فعل الزوج السابق ، وغادرا .

أسمع في قلب الصمت تغريد طيور لا أراها . أحاول أن أرى

شيئاً يتحرك في هذا الفضاء المفتوح . فلا أرى شيئا . بلى ، هناك طائر يحلق في شكل دائري فوق بقعة معينة من الجبل . هل هو عُقاب؟ قد يكون كذلك لأنه بدا لي يتابع بعينه اليقظة شيئا ما ، ثم فجأة ، انقض على تلك البقعة التي كان يرصدها بتحليقه الدائري المثابر .

لكن تغريد الطيور يستمر . يقطع الصمت المتكاثف .

كانت الشمس حارة أكثر مما توقعنا . هاني يتعرّق بشدة . ينظر إلي فيستغرب عدم تعرقي مثله . أنا ذو جلد جاف . جلد صحراوي أصلاً . أراه يمسح عرقه وينظف نظارتيه . يرتدي قبعة بيسبول ليقى رأسه من اللفح . إنها تقريباً الثانية . كان هناك سراب ، وما يشبه الضباب في السهل الذي ينبسط طويلا تحت أقدام الجبل وصولا إلى الأفق الذي بدا غائما . هل هي حرارة الشمس؟ لكن للسهل ألوان متقلبة بين الصفرة والحمرة . بدا المدى العاري من أي بناء أو شجرة بحراً مفتوحاً . يفرغ هاني من التصوير ونعود أدراجنا . نهبط الطريق المتعرج ، الطويل . طريق جديد لا خدش فيه ، مزيّن بعلامات الترقيم . أرى حمامة تجلس ، على نحو متحفّز ، في تجويف داخل صخرة . لكنها لا تطير . تبقى على تحفزها حتى نتجاوزها . ثمة شعار مكتوب على لافتة بجانب الطريق يقول : «الكتابة على الجدران مظهر غير حضاري»! . لم تكن هناك كتابة على حيطان الخرسانة العالية التي تحمي الطريق من الانهيارات إلاّ هذه الكتابة التي تنهي عن الكتابة على الجدران . ولكن كلا . فعلى الصخرة المقابلة تماما لليافطة هناك من رشّ اسمه بـ«السبري» :

عمران! هل رشَّ «عمران» اسمه قبل وجود اللافتة البلدية أم نكاية بها؟ لا أدري .

على طول الطريق من سفح «حفيت» إلى المدينة تعود الأشجار والزهور المزروعة في حارات الشوارع لتبعث في النفس انتعاشاً يفتقده المرء في الجبل . حركة السيارات والمارّة قليلة في الشوارع . إنه وقت القيلولة . كان علينا أن نتغدى . قال «حنيف» إن هناك مطعما إيرانيا جيدا في فندق «الهيلتون» فذهبنا إليه .

كان المطعم إيرانياً ولكنَّ الذين يديرونه هنود! لم يكن الطعام جيداً . عرفت ذلك من صحن الخضرة الإيراني الشهير الذي يضم خليطاً من النعنع والشمرة والفجل والبصل الأخضر والكزبرة وشرائح رفيعة من الجبنة ، هنا كان الصحن خرطات خيار وبندورة غليظة وقطع سميكة من الجبنة . ربما كان علينا أن نتغدى في أحد المطاعم التي يغص بها السوق ، لكن «حنيف» قال إن هذا المطعم جيد ، ثم إننا نستطيع تناول الشاي أو القهوة في لوبي الفندق المكيّف . أظن أن الجو المكيّف . . أو الفخامة هما اللذان جعلاه يعتقد أن مطعم الفندق أفضل من مطعم السوق . أثناء الغداء عرفنا أن «حنيف» باكستاني الجنسية ، طبعاً لم يكن صعباً علينا تخمين ذلك . فاسمه وسحنته وطريقة لفظه للعربية تشير إلى ذلك رغم أنه يرتدي الزي العربي على أصوله .

عرفنا كذلك أنه قدم إلى هذه البلاد قبل نحو ربع قرن وكان يومها في الثامنة عشرة من عمره ، لذلك ، فهو يعتبر أبو ظبي «بلده الثاني» .

إنه ، فعلاً ، يحب البلد ، ويفضل بعض جوانبه على بلاده باكستان .

النظافة ، الترتيب ، النظام ، الأمان ، والاستقامة ، تفتن «حنيف» ، ويرى أنها متوفرة في الإمارات أكثر من أي بلد آخر عرفه . هو يكره ، مثلاً ، المساومة والمجادلة في الأسعار . هنا نادرا ما تضطر إلى ذلك ، لكن في الباكستان المساومة ضرورية ، يقول «حنيف» . .

الأمر ، كما شرح لنا ، لا يتعلق بالحصول على سعر أدنى للسلعة التي تريد شراءها ولكن بالصدق . الصدق في التعامل مهم جدا عنده .

حاولت أن أشرح لـ «حنيف» أن المساومة ليست ، بالضرورة ، ضد الصدق والأمانة ، بل نوع من فن البيع والشراء . إنها أشبه بلعبة شدّ الحبل بين البائع والمشتري ، ولكن بعضلات من نوع آخر : طول البال ، المكر المكشوف ، ذربة اللسان ، قناع الانصراف عن السلعة وأنت تريدها (كمشترٍ) ، وعدم الرغبة في البيع أو التنازل عن السعر وهو يريد أن يصرفها (كبائع) . . ثم إن المساومة تعني إقامة علاقة بين طرفي اللعبة تتجاوز البيع والشراء إلى معرفة الأشخاص ، هوياتهم ، اهتماماتهم إلخ . . لم يكن ذلك ، بالطبع ، مقنعاً ، أو ربما مفهوماً ، لـ «حنيف» . . ولعله رآها تتنافى مع الدين وهو الشخص المتدين الذي يؤدي الصلوات في مواعيدها .

أسأله : هل تشعر أنك غريب هنا؟

فيقول : لا . لا أشعر بذلك .

أسأله : ولكن هل تشعر أنك تُعامل كأجنبي؟

فيقول : لا . أعامل كمسلم .

لدى «حنيف» شعور بالامتنان للبلد . فهو ، مثل مئات الآلاف غيره ، يعيلون ذويهم في بلادهم الأولى من عملهم هنا . أفهم منه أن هذا هو شعور الغالبية العظمى من العمالة الآسيوية التي مكنّها عملها هنا من إدامة ، أو ترقية ، حياة ذويهم في بلادهم .

لكن «حنيف» ، مثل كثيرين غيره لم يعرفوا بلد هجرة غير الإمارات ، لا يعتبر حقوقه منقوصة هنا . فهو ضيف . وليس للضيف أكثر مما يقدمه أصحاب البلاد! فكرة أن تقيم في بلد كل هذه السنين ولا تملك حق الإقامة الدائمة ، أو أن لا يحق لأطفالك التعلم في المدارس الحكومية أو التطبب (كان ذلك ساري المفعول إلى فترة قريبة) في المستشفيات العامة مثلهم مثل «المواطنين» ليست مطروحة للنقاش عنده ، وربما لا يعتبرها حقاً من حقوقه .

ما يعرفه هو أن «المواطنين» أصحاب البلاد والمصالح وهو عامل أو موظف عندهم ، فهم لهم قانونهم وهو له قانونه!

لا أعرف بلداناً تسنُّ قانونين : الأول لـ «مواطنيها» والثاني لـ «العاملين» فيها سوى دول الخليج العربي ، ولا أدري إلى متى سيبقى هذا القانون سارياً في عالم أصبحت «حقوق الإنسان» شرعته ، وأحياناً ، ذريعته للتدخلات السياسية والحروب؟

كان «حنيف» ، كلما هممنا بجمع أغراضنا ، خصوصاً معدات هاني الثمينة ، يصر على تركها في السيارة . أكثر من مرة ردد علينا القول : اترك أغراضك هنا وستجدها في المكان نفسه ثاني يوم!

كانت عربية حنيف جيدة . . . ولكن لإدارة حديث بسيط ، أبعد من ذلك تصعب مواصلة الحديث معه . هاني الذي لا يعرف اللغة المهجنة التي طورها الآسيويون في تعاملهم مع أهل البلاد والوافدين العرب يتحدث معه ، بانطلاق ، باللهجة الأردنية ، فتستعصي على «حنيف» فأضطر ، بوصفي أكثر «تضلعاً» منه بهذه اللغة ، لتقريب المعنى إليه .

# متحف قصر العين

بعد الغداء كان علينا أن نزور بضعة مواقع أساسية في «العين» ، منها السكن الشخصي السابق للشيخ زايد قبل أن يتولى إمارة أبوظبي الذي تحول متحفاً يحمل اسم «متحف قصر العين» .

يقع القصر الذي جرى ترميمه بالكامل (إن لم تكن إعادة بنائه بحيث لم يعد يحمل من آثار الماضي شيئاً يذكر ، اللهم سوى طرازه) في جنوب شرقي العين التي كانت تجاورها ، سابقاً بضع قرى ، أصبحت ، اليوم ، جزءاً من المدينة نفسها .

الترابي المائل للحمرة هو اللون المميز لمعظم حصون وقلاع أبوظبي ، ولا يشذ «قصر العين» عن ذلك . . لكنه أكبر من سائر الحصون والقلاع التي رأيتها في منطقة «ليوا» . . وأكثر مهابة . فهذا ، بعد كل شيء ، هو الحصن الذي اتخذه الشيخ زايد مقراً له منذ العام 1946 عندما كان حاكماً للمنطقة الشرقية وحتى استلامه مقاليد الحكم في أبوظبي عام 1966 .

يتميز موقع الحصن ( . . أو القصر) بمجاورته واحة نخيل غنّاء تتخللها الأفلاج والسواقي التي تروي الواحة وتمدّ الحصن بالمياه العذبة ، وقد صار ، تقريباً ، في قلب المدينة التي تضخمت عمراناً

وسكاناً ومصالح بعد اكتشاف النفط وتدفق عائداته .

وفي وقت قيلولة كالذي زرنا فيه الحصن ، لم يكن ثمة زائر واحد . . بل كان الشاب الإماراتي الذي يعمل موظفاً هناك يغط على دكة خشبية في ممر ظليل بمدخل الحصن ، وقد أيقظه دخولنا فهبَّ لملاقاتنا وهو يعدل كوفيته الحمراء التي يلفها على رأسه ، وسألنا ، بعد أن اتخذ هيئة الموظف الرسمي ، عن غرض زيارتنا ، خصوصاً ، عندما شاهد كاميرات هاني الحوراني . . فقلنا له إننا صحافيان نريد أن نجري تحقيقاً عن الحصن ، فسألنا إن كنا نحمل «كتاباً» بهذا الخصوص (يقصد رسالة رسمية) فقلنا له إننا لا نحمل «كتاباً» . . فهذا متحف والمتحف ، على ما نظن ، لا يحتاج «كتاباً» .

واضح أننا أخطأنا في اختيار هويتنا ، فكلمة «صحافة» تثير ، حتى عند موظف بسيط كهذا وفي مكان سياحي لا أسرار فيه ولا من يحزنون ، ريباً وشكوكاً .

صحافة تعني سياسة .

وسياسة تعني مشاكل .

سألت الموظف الشاب عن اسمه ، تردد قليلاً ، ثم قال محمد نور البلوشي . . فقلت له : يا أخ محمد إنس موضوع الصحافة ، اعتبرنا سياحاً! فتركنا لشأننا وانصرف ، ولكن ليس من دون متابعتنا ، من موقعه في المدخل الظليل ، بين حين وآخر .

في مدخل «متحف قصر العين» لوحة تحمل تعليمات وإرشادات للزوار تشدد على النظافة وعدم مس المقتنيات ، أما على

عقد الباب الكبير فهناك كتابة قديمة بعض الشيء (أو تقلد الكتابة القديمة) تقول : بسم الله الرحمن الرحيم . . ادخلوه بسلام آمنين .

سنة 1384 لصاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان .

الواضح أن المقصود بذلك هو تاريخ بناء الحصن واسم بانيه . . ثم لوحة أخرى تقول إنه تمَّ افتتاحه ، بعد ترميمه ، برعاية الشيخ محمد بن زايد آل نهيان رئيس هيئة الأركان ، في محرم 1422 (أبريل/نيسان 2001) كمتحف للتراث .

القصر على هيئة بيت عربي قديم ، حيث تتوزع الغرف على الجوانب وتنفتح كلها على حوشه الذي تنتصب فيه خيمة حديثة الصنع تحاكي الخيمة التي كان يستقبل فيها الشيخ زايد زواره عندما كان حاكماً لهذه المنطقة . قد تكون الشجرة الكبيرة ، المعمّرة نسبياً (لعلها من فصيلة «الغاف») ، وسيارة «اللاندروفر» الرمادية المكشوفة هما ما تبقى من إرث تلك الأيام ، فعدا ذلك ، كل شيء جديد .

يذكر «ثيسغر» ، عند زيارته الشيخ زايد في المنطقة الشرقية أواسط أربعينات القرن الماضي ، أنه كان يملك واحدة من سيارتيْ «الاندروفر» الإنكليزيتين اللتين توافرت عليهما أبوظبي في ذلك الوقت ، وقد رفض «ثيسغر» استخدام مطية بلاده الميكانيكية في جولاته عندما عرضها عليه الشيخ زايد وفضلَّ عليها مطيته الأثيرة : الناقة!

ولعل هذه السيارة الرمادية التي نخر الصدأ جوانبها أن تكون السيارة نفسها التي رفض «ثيسغر» امتطاءها . فليس هناك معلومات مكتوبة عنها ولم يعرف محمد البلوشي ، عندما سألته ، شيئا عن

«ثيسغر» ، ولم يؤكد ، والحال ، أنها السيارة نفسها التي أشرت إليها .

الخيمة المنصوبة في أحد أطراف الحوش ضخمة ، جزؤها السفلي مصنوع من النسيج الذي تصنع منه بيوت الشَّعر البدوية التقليدية ونصفها العلوي من مادة بلاستيكية مقوية بيضاء . . وهي تضم مجلساً عربياً كاملا : بسطاً ، وحشيات ذات ألوان خضراء وحمراء وزرقاء فاقعة تتخللها نقوش ذهبية ، فضلاً عن أدوات صنع القهوة وشربها ، التي لا يكون المجلس مجلساً ، ولا الشِّق (القسم الرجالي من الخيمة البدوية في الأردن) شِّقاً من دونها .

البيوت الموزعة على جوانب الحوش تمثل مجالس رسمية ودور سكن لأفراد العائلة . في المجلس الرئيسي ، وهو بناء مستطيل الشكل ، ثمة لوحة كبيرة معلقة في الواجهة يظهر فيها شيخان بلباسهما العربي التقليدي ، الأكبر سناً بينهما يشبه الصور الملتقطة لـ «زايد الكبير» ، فليس ثمة معلومات عن هوية الشيخين أو الفنان الذي رسم اللوحة . . وعلى حوائط المجلس الأخرى علقت خناجر وعصيٌّ وبنادق قديمة الطراز . أرضية المجلس مفروشة بالسجاد ، والفرشات والأرائك الممتدة على طول الحوائط الثلاثة ، حمراء اللون تتخللها نقوش سود وبيض وخضر ، أما في الوسط فينتصب موقد النار الكبير وعليه دلال قهوة نحاسية مختلفة الأحجام .

هذا مجلس تقليدي نموذجي .

وقد رأيت مثله في مدينة «نزوى» العُمانية التي زرتها قبل أعوام مع عدد من الكتاب العرب واستضافنا في أحد مجالسها ممثل الوالي الذي أتخمنا بالقهوة والحلوى العمانية الشهيرة . . بعد سؤالنا

عن «الأخبار» استمراراً لتقليد قديم يسأل فيه المضيف ضيفه عن «الأخبار» ، وهي ، غالباً ، عن الطريق والناس الذين قابلهم والكلأ والماء . لكن مجلس الشيخ زايد الذي أعيد ترميمه ، جدراناً وأبواباً وفتحات تهوية ، ليماثل صورته ووظيفته القديمتين ، تضمّن إضافة لم تكن من أصله : إنها مكيفات الهواء! وفوق إطار المكيّف الموجود في صدر المجلس هناك راديو خشبي قديم ماركة ILMENAU .

البناء التقليدي هنا يستخدم مواد البيئة ، ومصمم ، بصورة رئيسية ، لمكافحة الحر ، جدرانه سميكة ، ومنافذ الضوء فيه مدروسة ، لمكافحة سطوع الشمس الذي لا يقهر . بدا المجلس معتماً بعض الشيء على الرغم من وجود خمس نوافذ صغيرة ذات مصراعين ، لكن برودته المرتفعة ، نسبياً ، قياساً إلى الخارج سببها ، بالتأكيد ، المكيّفات الثلاثة التي جعلته مثل أي مكتب أو بيت . . أو سيارة في الإمارات اليوم .

أنهيت جولتي في القصر وخرجت كي أدخّن سيجارة عند المدخل ، فالتدخين ممنوع حتى في حوش القصر ، هذا ما قاله محمد البلوشي لهاني حوراني عندما رآه يستل سيجارة محاولاً إشعالها .

حاولت أن أتحدث مع محمد عن تاريخ القصر (أو الحصن) ، ولكنه لم يكن يعرف الكثير ، أو ، لعله كان يعرف ولم يشأ أن يتحدث إلى صحافي لا يحمل كتاب تكليف رسمياً . كان مقتضباً جداً ، وحرص على أن يوصل إليَّ إحساساً بصرامة تصرفني عن حداثة سنّه وقصر قامته الملحوظ . والاقتضاب والصرامة خصلتان ممتدحتان في الرجل في عرف البدو . اسم محمد العائلي يشير ،

بوضوح ، إلى جذوره البلوشية . و«البلوش» الذين يرجع أصلهم إلى منطقة بلوشستان الموزعة بين باكستان وإيران اليوم ، لهم وجود قديم في منطقة الخليج العربي ، وهم ، كما لاحظت في عُمان والإمارات ، أقرب الأقوام الآسيوية إلى أهل البلاد . قد يكون السبب تحدّرهم ، أصلا ، من مجتمع قبلي ذي بنية وأعراف مماثلة لقبائل الخليج العربي ، الأمر الذي سهل انخراطهم ، بالكامل ، في المجتمعات المحلية ، أو لعله ما عرف عنهم من إخلاص للأسر الحاكمة في الخليج والشجاعة التي يقال إنهم يتحلون بها .

ظلت حرارة الشمس مرتفعة على الرغم من أننا دخلنا العصر .

جلست تحت إحدى الأشجار المزروعة في الباحة الخارجية للقصر ، بانتظار هاني .

كان رجل عجوز يلفُّ رأسه بعمامة ملوَّنة ، يجلس تحت ظل شجرة أخرى بالقرب مني ، ويلمس بيده ، من حين لآخر ، غصناً متدلياً ، كأنه يلمس شيئاً مباركاً . بيده التي براها الزمن يتحسس الأوراق الخضر العفيّة ، من دون أن يقطع واحدة منها أو حتى يضغط عليها . يتحسسها برفق ، وهو شبه ساه .

هل كان يفعل ذلك لملامسة هذا اللون النادر ، هذه الأوراق النضرة التي يسري فيها نسغ الحياة؟ أم أنه ، ببساطة ، كان يقتل الوقت بانتظار ابن أو قريب سيأتي ويقله؟

أميل ، بقوة ، إلى الاعتبار الأول . . فذلك يذكرني بجدتي التي نادراً ما ترى عرقا أخضر ولا تمسَّه ، تفْركه برفق ، لتشم رائحته . وسواء كان الرجل من مدينة «العين» أو من محيطها ، أو

حتى من مدن عُمان المجاورة . . فإن الخضرة ، عنده ، ليست شيئاً عادياً يمرُّ به المرء مرور الكرام ، خصوصاً ، لمن هم في سنّه ممن عرفوا المكان وقد كان أقل خضرة من الآن . لم تفقد هذه الشجرة ، هذا الغصن المتدلي ، تلك الأوراق الخضراء ، هذه الظلة الواقية تحت شمس لا تحجبها غيمة ، شيئاً من معجزتها .

# مدينة النخيل والقلاع

لا تدهش لكثرة النخيل في منطقة «العين» فهي ، أصلاً ، أرض نخيل وأفلاج ، كما أنها منطقة القلاع والحصون . وحيثما يوجد النخيل والمياه ، وجها الحياة النضران في محيط مقفر ، تكون القلاع والحصون .

يمدّنا تاريخ «واحة البريمي» التي تقع في قلبها «العين» بمادة غزيرة عن صراعات طويلة ، ومريرة جرت حولها لم تنته ، رسمياً ، إلاّ قبل نحو ثلاثين عاماً ، فهي منطقة نفوذ وتداخل بين القوى الثلاث الرئيسية في الجوار : عُمان التي كانت تبسط اسمها ، تاريخياً ، على كل الساحل وأجزاء واسعة من الداخل ، والسعوديون الذين تمددوا خارج هضبتهم «نجد» وجردوا السيف مصحوباً بتعاليم محمد بن عبد الوهاب المتشددة ، على جوارهم ، وقبيلة «بني ياس» التي أخذت تظهر كقوة رئيسية في الساحل كما هو شأنها في «صحراء الظفرة» .

انتهى الأمر بـ «واحة البريمي» التي كانت تضم تسع قرى إلى التوزع على كيانين سياسيين : عُمان التي انتزعت «البريمي» نفسها وقريتين أخريين من السعوديين ، بحكم دولي ، وإمارة أبوظبي التي

اضطرت إلى التنازل عن «خور العديد» للسعودية مقابل اعترافها بـ «دولة الإمارات العربية المتحدة» والاحتفاظ بـ «العين» وقراها ، كما أسلفنا القول .

طبيعي في منطقة متنازع عليها وذات تاريخ متشابك إلى هذا الحد ، أن تكثر القلاع والحصون ذات الأغراض الدفاعية . شيوخ «بني ياس» أقاموا عدداً من الحصون في هذا الإقليم الذي أخضعوا جزءاً منه لمشيختهم ، وكذلك فعل مشايخ القبائل الأخرى التي تحالفت مع «بني ياس» تاريخياً ، أو طلبت حمايتهم في لحظة معينة من تاريخ الصراع على الواحة مثل «الظواهر» و«بني نعيم» ، كما فعل العمانيون ، على الطرف الآخر من هذه المنطقة المتداخلة الحدود ، الشيء نفسه .

وفي الوقت الذي لا نجد في أبوظبي ـ الجزيرة سوى ثلاثة حصون وأبراج أهمها «قصر الحصن» ، فإن «العين» تضم نحو أربعة عشر حصناً وقلعة ومربعة ، هذا عدا عشرات البيوت القديمة التي تتخذ أشكال قلاع وحصون صغيرة تعود إلى «الظواهر» أو «بني هلال» أو «الدرامكة» . . وغيرهم من وجهاء قبائل المنطقة .

هذا الفارق بين حصون عاصمة الإمارة وقرى «العين» يعني أمرين : الأول أن أبوظبي لم تكن تحتاج ، إلى قلاع وحصون لحمايتها لأنها لم تكن مكاناً مطموعاً فيه من قبل القوى المتنافسة على الساحل ، فضلاً عن أنها تستمد حمايتها من موقعها كجزيرة .

ـ الثاني ، أن «العين» هي المكان الجدير بالحماية لتوافرها على أهم ثروات ذلك الأوان : الماء والزراعة ، وقد مكّن الوضع المادي

المتقدم لوجهاء هذه الواحة ، قياساً لما كان عليه الأمر في جزيرة أبوظبي الفقيرة آنذاك ، من بناء قلاع وحصون وبيوت حجرية فيما كانت عشش السعف هي الطابع السائد لمساكن المواطنين العاديين في أبوظبي الذين يعمل معظمهم بالصيد والغوص .

ولا تنافس منطقة «العين» في عدد الحصون والقلاع إلاّ عواصم المشيخات التي انخرطت في صراعات الساحل الطويلة مثل الشارقة ورأس الخيمة . . ولنتذكر أن الثغرين الأخيرين هما معقل قبيلة «القواسم» ، القوة العربية الضاربة ، على ساحل عمان (أو الساحل المتصالح ، كما سماه الإنكليز) لأكثر من قرنين . حتى «ليوا» ، الواحة الكبرى في صحراء «الظفرة» والموطن الأصلي لقبيلة «بني ياس» لا تضم أكثر من ثماني قلاع أقل ضخامة ومهابة من قلاع «العين» .

هكذا كنا نرى الحصون والقلاع موزعة على القرى التي كانت تتشكل منها منطقة «العين» حتى الفترة التي سبقت استخراج النفط ، وأصبحت فيما بعد جزءاً لا يتجزأ من المدينة . كان أكبر الحصون التي رأيناها في جولتنا «حصن الجاهلي» (أو الياهلي . . باللفظ المحلي) ، وهو أكبر من «حصن المويجعي» الذي كان مقر إقامة الشيخ زايد ، وأكثر تفننا في طراز عمارته التي تنحو منحى دفاعياً صرفاً ، فيما لـ «حصن المويجعي» طبيعة سكنية وإدارية .

بني «حصن الجاهلي» المسيج بسور كبير تقطعه من ثلاث زوايا أبراج دائرية ، أكبرها مكون من ثلاث طبقات ، الشيخ زايد بن خليفة (زايد الكبير) في حدود العام 1898 . طبعا ، الحصن في

صورته الحالية خضع لترميم شامل ، شأنه شأن معظم الحصون والقلاع التي ترتبط بتواريخ حاسمة أو شخصيات أساسية في نشأة الكيان الظبياني .

على مدخل «حصن الجاهلي» ثمة بيتان من الشعر يتحدثان عن باني الحصن ، وفي وسط البيتين هناك تاريخ البناء بالسنة الهجرية : 1316 (1898م) .

وفي وسط مدينة «العين» ذات البناء الأفقي التي لا تتجاوز عمائرها ، وفق تخطيط منهجي للمدينة ، أربعة أو خمسة طوابق ، هناك «متحف العين» الذي كان في الأصل حصناً كبيراً بناه والد الشيخ زايد بن سلطان عام 1910 ، وذلك قبل أن يصبح حاكماً لمشيخة أبوظبي لفترة وجيزة (1922 ـ 1926) . . وكان يسمى «الحصن الشرقي» .

وللحصن ـ المتحف ثلاثة أبراج دائرية كبيرة ، تعلوها مغازل الرمي ، وفتحات للرماية ، ومثل «حصن الجاهلي» ، هناك على بوابته الخشبية السميكة التي تتخللها مسامير حديدية مدببة بيتان من الشعر يسميان بانيه الذي «لاح نجم سعده» ويتنبآن بمجده الباقي على «رغم المعاند» ، لكن المفارقة أن حكم سلطان بن زايد لمشيخة أبوظبي لم يدم سوى أربع سنين على عكس والده «زايد الكبير» الذي حكم بلاده نحو 54 عاما أو ولديه شخبوط (1928 ـ 1966) وزايد (1966 ـ 2004) .

# بحثا عن أرض النخلة

لا أظننا قادرين على تصور حياة أولى ، ثم أخرى أكثر تطوراً ، حول عيون وآبار وأفلاج الجزيرة العربية لولا هذه الشجرة الصابرة ، المباركة : النخلة .

فهي ، على ما يبدو ، من أقدم الأشجار المثمرة هناك ، حيث يرجع بعض المصادر تاريخ مرافقتها لإنسان ذلك المكان ، طعاما وظلا ومادة لسكنه وأدوات حياته وأعماله اليومية ، إلى أكثر من ستة آلآف سنة .

للنخلة الصدارة هنا .

لأنه ، على ما يبدو ، في البدء كانت النخلة .

هناك أكثر من رأي حول المكان الأول الذي طلعت فيه النخلة وانتشرت ، لاحقا ، على نطاق أوسع .

أقدم الوثائق البشرية يرجع أصل النخلة إلى بلاد ما بين النهرين (العراق) ، ولكن ثمة من يقول إن أصلها هو الجزيرة العربية ، وتحديداً ، سواحلها المطلة على الخليج ، ومن هناك انتقلت إلى بلاد السومريين .

في عام 1949 نشر عالم السومريات الأمريكي الشهير صامويل

نوح كريمر في «المجلدات الشرقية» ترجمة لنص سومري يتحدث عن نشأة أول نخلة في الكون ، وقد ترجم هذا النص إلى العربية الشاعر العراقي شوقي عبد الأمير في كتيب بعنوان «ميلاد النخلة» صدر العام الماضي .

ترقى الرقم السومرية التي انكب عليها كريمر إلى الثلث الأول من الألف الثاني قبل الميلاد ، وبذلك يكون أقدم نص يتحدث عن ولادة النخلة يصل إلينا .

بعد قراءتي للنص خطر لي أن أتصور ولادة هذه الشجرة السامية على هذا النحو :

«أنكي» كبير آلهة السومريين فوق «زقورة أور» ينظر إلى أرض العراق فيرى المياه تتدفق والطين يخفق بالحياة والمصائر الدراماتيكية التي تحبل بها هذه الأرض فيلحظ شيئاً ناقصاً في جنته الأرضية .

شيء ما ينقص أرض السواد التي يتدفق فيها الرافدان كشريانين مفتوحين من الخير واللعنات .

لا نعرف ماذا كان ينقص هذه الأرض في نظر كبير الآلهة ، فعناصر الحياة التي تتكرر في الأساطير السومرية تعلي من شأن النعجة ـ الأم ـ (بسبب حليبها على الأرجح) والشعير والكتان ، أهو النخلة؟

شجرة باسقة ذات ثمار حلوة؟

شجرة شاملة المنافع؟

لعل هذا ما دار في خلده .

فها هو يأمر الغراب أن يمثل بين يديه .

الغراب الذي كشف لقابيل كيف يواري جثة أخيه القتيل «هابيل» تحت الثرى ، لينشأ أول قبر على الأرض ، هو نفسه الذي توكل إليه مهمة غرس أول نخلة أيضاً .

يأمر «أنكي» الغراب أن يسرق كحل سحرة «أوريدو» المخبأ في الوعاء اللازوردي في غرفة الأمير الذي لا بد أنه يضم أفضل مقتنياته ومنها قارورة الكحل .

يقول له : خذ القارورة واسحق الكحل سحقاً ، ثم ابذره بين الحواشي المتاخمة للأهوار حيث ينبت الشجر المعمّر ، فيصدع الغراب لأمر سيده ، يسحق الكحل وينثره بين الحواشي المتاخمة للأهوار لتطلع شجرة لم ير أحد مثلها قط .

هكذا تولد النخلة على يد الغراب!

من الكحل وليس من أي شيء آخر .

لا تقول لنا الأسطورة لماذا الكحل ، تحديداً ، هو البذرة الأولى للنخيل .

هل لأنه ثمين؟

أم لأنه زينة العين؟

ولكن ، من المؤكد ، أن للأمر علاقة بالعين ، لذلك صار لسعفها شكل الحاجب .

أما مواصفات هذه الشجرة التي «لم ير أحد مثلها قط» فهي بحسب الملحمة السومرية :

«لسانها الطلع يعطيك لبّاً ،

لحيتها ، الألياف تعطيك حصيراً

فسائلها التي تحيط بها تعطيك أدوات القياس ،
أهي لهذا موجودة في أراضي الملك :
جريدها يرافق الأوامر الملكية ،
تمرها يتدلى أعذاقاً بين سعفها الكثيف ،
تمرها نذور
في معابد أكبر الآلهة» .

لكن مايكل رايس صاحب كتاب «آثار الخليج العربي» يجادل قائلا إن النخلة قد جلبت إلى أرض السومريين من خارج العراق . ولأنه يعتبر «دلون» ، الحلقة الحضارية الغامضة المعاصرة للسومريين ، قد قامت في البحرين وجوارها ، فهو يرى أن النخلة قد وصلت إلى أرض العراق من هناك . لكن رايس المتحمس لأطروحته الدلونية لا يقدم دليلاً مادياً على أصل النخلة «الخليجي» ، سوى كونها ظهرت على الأختام الدلونية . وحتى النصوص التي يستشهد بها للربط بين سومر ودلون هي سومرية ، ولا تقطع في كون دلون أرض النخلة الأولى .

ففي نص شعري يتحدث عن مدينة «نيبور» ، مسكن الإله السومري «إنليل» ، يظهر صراحة أن «نيبور» ، وليست «دلون» ، هي أرض النخلة ، يقول النص :

«مدينتي نيبور وجدت قبل دلون
وقد نبتت فيها شجرة النخيل» .

هذا ، طبعاً ، اعتراف سومري بأهمية «دلون» كي تقارن تلك الترنيمة المزجاة للإله «إنليل» بلاد سومر بـ «دلون» . لكن عند العرب ، في طورهم الإسلامي ، تصور آخر لولادة النخلة ، فهناك

حديث منسوب للنبي محمد يقول : أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من فضلة طينة آدم .

وفي تفسير هذا الحديث ، ضعيف الإسناد ، أكثر من رواية أكثرها تواتراً هي تلك التي أوردها نعمة الله الجزائري في كتابه «الأنوار النعمانية» وجاء فيه أن الله أمر الملائكة أن يضعوا التراب الذي سيخلق منه آدم في المنخل فنخلوه ، فما كان منه صافيا اختاره لطينة خليفته على الأرض وما بقي في المنخل صنع منه النخلة ، ولذلك سميت النخلة بهذا الاسم!

وبصرف النظر عن كيف ولدت النخلة في مأثورات المنطقة العربية ، وعمن هي الأرض الأولى للنخلة ، فإن منطقة «العين» التاريخية ، عرفت حياة حضارية مماثلة لما كانت عليه الحلقات الحضارية للمدن ـ الدول ، يدل على ذلك مقتنيات متحفها الآثارية ، والشواهد الباقية على الأرض في غير مكان في الإقليم ، وتظهر النخلة شجرة الحياة (بحسب تسمية السومريين) على أختامها .

هناك في الإمارات اليوم ، نحو أربعين مليون نخلة ، نصيب إمارة أبوظبي منها قرابة 33 مليوناً .

لـ «العين» مليون حاجب متقوس .

لكن لم تتدل العناقيد ، بعدُ ، ولم تكتنز .

فقبل قليل كان موسم اللقاح ، هذا الزواج الذي تبرم مواثيقه الخصيبة أيد مدربة ، تعرف متى وكيف تضع سرَّ الذكورة في الأنثى ، ولهذا السبب اعتبر العرب أن النخلة شبيهة بالإنسان على

هذا الصعيد ، وسيطرح هذا القران ثماره في أول الخريف ، بعد أن يكون قد امتص ، لنضجه واكتنازه وحلاوته ، كل حرارة الصيف .

رأيت في أبوظبي عملية تلقيح النخلة .

بدا الأمر لي مثل مراسم زواج كامل الطقوس .

يدرك ، من دون شك ، ذلك الملقح الإماراتي ما هو مقبل عليه .

يعرف أنه يجمع بين الذكر والأنثى في رباط قدسي ستكون نتيجته تلك العناقيد التي تتدلى ، كثيفة ، غامضة ، بين السعف .

يصعد ذلك «المأذون» إلى الشجرة الأنثى وبيده أسرار الذكورة على شكل أزهار بيضاء . إنه غبار الطلع الذكوري الذي يتطلع إلى دخول جرح الأنثى . يرتقي أكثر من عشرة أمتار ليصل إلى النخلة البالغة ، فيربط حزمة الأزهار الذكرية هناك بشرائط من سعف النخيل . ثم ، وحدها ، تبدأ عملية التلاقح . تطرح النخلة عند جني الثمر ما معدله 190 كيلوغراما من التمر .

كان ذلك ، لي ، عملا تام السحرية والغموض والقداسة .

لكن عمل الأيدي الخشنة ، المعروقة ، لزراعة النخيل وتكاثره سيسلم زمامه إلى المختبرات . ففي «العين» ، اليوم ، مختبرات لاستنساخ النخلة من خلال الأنسجة الداخلية ، حيث يمكن الحصول على آلاف الفسائل المطابقة ، تماما ، للصفات الخلقية للنخلة الأصل . ويبدو أن هذا الجهد العلمي الذين تحتضنه «العين» يشارك فيه علماء فرنسيون ، نقلوا أنشطتهم من مختبراتهم في جنوب فرنسا إلى العاصمة الثانية (الصيفية) لإمارة أبوظبي .

# نشأة قديمة

من يزور «العين» ويظن نفسه في مكان جديد أنتجته الثروة البترولية سيكون مخطئاً تماماً . من يظن هذا الظن عليه أن يذهب ، مثلنا ، إلى سفح «حفيت» ليرى قبور البشر الذين عمروا هذا المكان ، وكان طول الواحد منهم نحو 178 سنتم للرجل ونحو 172 سنتم للأنثى!

فإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على أن شعباً قوي البنية ، يعرف بصورة ملحوظة رغدا في العيش ، قد عاش هنا .

على زائر العين أن لا يغره «الهيلتون» أو «روتانا» أو «الإنتركونتنتال» أو الأبنية الأنيقة ، المتناسقة الحديثة . . ليقول : ليس هناك شيء قديم هنا . فهو إن استدل على قدم المكان بقصور شيوخ «بني ياس» أو «مربعات» وبيوت «الظواهر» و«الدرامكة» فلن يصل في تاريخ هذا المكان أبعد من مئتي سنة .

ولكن كلا .

ليس هذا ما تقوله القبور الجماعية ذات الطراز المعماري الخاص في سفوح «حفيت» ولا في «حديقة الهيلي» ولا في «القطارة» . وإذا كان بالإمكان الاعتماد ، علمياً ، على مايكل رايس فقد قامت

في منطقة «العين» حلقة حضارية قد تكون سابقة لـ «دلمون» . فإن وافقنا على هذا الرأي المدعم باللقى والآثار التي وجدت في المكان ، وبعضها معروض ، لحسن الحظ ، في «متحف العين» ، سيكون لزاماً علينا ، عندها ، التحلي بمنظور أوسع للمنطقة . سيكون ضرورياً التفكير في عُمان التاريخية التي تعد واحدة من أكثر الحلقات الحضارية قدماً وغموضاً في منطقة الجزيرة العربية ، وكانت تبسط اسمها على أجزاء واسعة من سواحل الخليج العربي .

# الرحلة الثالثة

# في «رأس الخيمة» وديار «الشّحوح»

## 2004

# النَدْبَة

لا تعجب كيف انبثق هذا الجاز
من الصحراء وفعل الشّاي في الرؤوس
ما يفعله إكسير مُقَطّر بين أعمدة الهيكل .
الدَبَقُ الذي يربط الشفتين بإحكام
سيذكّرك بقوة وترٍ وحيدٍ يهيجُ جروحاً
مطمورةً تحت طبقةٍ خفيفةٍ من الغبار .
حشرجاتُ الحناجر تقرعُ طبولاً
تترجّعُ هديراً بين «جبال الحجر» ؛
الأزمنةُ تكرُّ كصليل سيوفٍ قصيرةٍ
والفراغُ الذي يتفشى حول نبتةٍ
ألهبتْ خيالَ شعراء قدامى
يبتلعُ علامات تركها خلفهم ممسوسو الرمال ،
الرّيح تنفخُ في أبواقٍ تختصرُ أطوارَ النّهار
برقصةٍ من حركتين :
وهو
وهيَ
وهو
وهيَ .

# في الطريق إلى «رأس الخيمة»

سمعتُ باسم «الشّحوح» في مناسبتين لا رابط بينهما ، الأولى عندما ذكر اسم «مروان الشّحي» في عداد المنخرطين في «غزوة» أسامة بن لادن الأمريكية ، والثانية عندما نشبت أزمة بين بعض «الشّحوح» والمغني الإماراتي «عبد الله بالخير» على خلفية غنائه لـ «الرواح» الشّحي .

وبين تلك المناسبتين كنت قد شرعت في كتابتي عن أبوظبي ، فقرأت ، لهذا الغرض ، كتباً عدة وضعت عن الخليج العربي عموماً ، والإمارات على نحو خاص ، بينها كتاب «عرب الخليج» الذي يَردُ فيه وصف الشّحوح بأنهم «جماعة من العرب غريبو الأطوار إلى حد ما ، يعيشون في شبه جزيرة مُسَنْدم» .

كان ذلك القول منسوباً ، على ما أظن ، إلى المقيم البريطاني في مسقط «برترام توماس» .

وهذا رجل بينه و«الشّحوح» واقعة مشهودة .

جماعة من العرب غريبو الأطوار؟

ماذا يعني ذلك؟

هل خانت الترجمة وصف «المقيم البريطاني» ، أم أن برترام

توماس أراد لصق صفة «غرابة الأطوار» بقوم قاوموا سلطة التاج البريطاني على ديارهم ، وأبوا إلاَّ أن يكونوا أحرارا في «رؤوس الجبال»؟

الواقعة المشهودة بين «توماس» و«الشحوح» ، التي لعلع فيها رصاص وجرى دم وأفشت بين «رؤوس الجبال» رائحة البارود ، تجرِّد وصف «المقيم البريطاني» من حيدته ، وتجعله ، رغم «اهتمامه بالصحراء وأقوامها» ، طرفا في صراع القوة الذي لم يتوقف على ساحل الخليج العربي .

ورغم أن متن كتابي هذا منصبٌّ على إمارة أبوظبي ، مكاناً واجتماعا ، لا على الإمارات ككل ، إلاَّ أن ما نسب إلى «الشحوح» من صفات وخصال وخلفيات تاريخية ، جعل كتابتي تخرج عن «سياقها» وتتمدد في اتجاه أكثر المناطق عزلة في «دولة الإمارات» .

فهم قبائل تستوطن واحدة من أوعر مناطق الخليج وأكثرها منعة ، ولهم في تاريخ المنطقة ، بل والتاريخ الإسلامي ، «وضعية خاصة» . ويبدو أن مكانهم الوعر والمنيع قد جعلهم أقل اختلاطا بالآخرين عكس معظم القبائل التي استوطنت الساحل .

وما جعل هذه الرحلة مرغوبة أكثر تعرفي إلى الإعلامي الشاب «محمد الشّحي» . فقد كان للطفه ، وحماسته كي أزور دياره ، أثرهما في إنجاز هذه الرحلة .

وكان «محمد» ، أول «شحيٍّ» أقابله .

طبعاً ، لم يكن فيه شيء من «غرابة الأطوار» التي وصفت بها قومه ، كما أن «لهجته الإماراتية» كانت أقرب إلى تلك «اللغة

الوسطى» التي يستخدمها المتعلمون العرب للتغلب على حاجز لهجات محلية يصعب التواصل ، بطلاقة ، مع بعضها .

بعد عودتنا من منطقة «العين» بتنا ليلة في أبوظبي وانطلقنا ، هاني الحوراني وأنا ، إلى «رأس الخيمة» ، غير أن «حنيف» لم يسرّه المشوار كثيراً ، وبالأخص عندما علم أننا سنبيت هناك أكثر من ليلة . فقال لي «حنيف» : أستاز أمجد . . هاي غريه . . في شارع شارعين وبس . نرجع شارجة أو دبي ، دبي أحسن . . فيه كل شي تريد!

الرحلة إلى أقصى طرف من إمارة «رأس الخيمة» يعني أننا سنمرُّ من كلّ الإمارات الشمالية الواقعة على ساحل الخليج العربي ، باستثناء «الفجيرة» ، الإمارة الواقعة على خليج عُمان .

لسبب آخر غير سبب «حنيف» وافقت أن نبيت في «دبي» . فأنا أرغب ، فعلا ، في الوقوف على مرويات تشبه الأساطير عن تلك الإمارة التي أخذت تشهق في السماء بالأبراج والعمائر ذات الأرقام القياسية ، وتتمدد في البحر والصحراء على السواء ، جاعلة من بلدة صغيرة قامت على جانب مرفأ قديم ، «مدينة عالمية» ترطن بمئة لسان ولسان .

ولكننا لم نتمكن من حجز غرفة واحدة لنا في أي فندق من فنادق دبي!

استغربت الأمر ، فقال لي محمد الشّحي : لا تستغرب ، فنحن الآن في عطلة نهاية الأسبوع التي يبلغ فيها إشغال الفنادق أقصاه ، حيث يتدفق المصطافون من السعودية وقطر وعُمان على نحو

خاص ، لقضاء العطلة هناك ، فضلا عن التدفق المتواصل الذي تشهده المدينة لرجال أعمال وخبراء وعمال من كل أرجاء العالم .

وبدلاً من دبي حجزنا غرفاً في فندق بالشارقة . . فمن هناك يمكننا العودة إلى «رأس الخيمة» متى شئنا بسهولة أكثر مما لو نزلنا في فندق في دبي . . وكان هذا صحيحا .

في صباح يوم الخميس غادرنا مع «حنيف» قاصدين إمارة «رأس الخيمة» ، وكان «محمد الشّحي» قد سبقنا إلى بلدته «القليعة» ، من أعمال «غليلة» ، في الليلة السابقة .

تبعد إمارة «رأس الخيمة» عن أبوظبي نحو 270 كيلومترا ، وقد استغرقت رحلتنا إلى أقصى طرف من «رأس الخيمة» ، حيث كان علينا أن نلتقي «محمد الشّحي» ، أكثر من ثلاث ساعات .

لم تكن هذه المنطقة مألوفة تماماً لـ «حنيف» ، خصوصاً ، بعد أن أخذنا نقترب من «رأس مُسَنْدم» والحدود الإماراتية ـ العُمانية .

مررنا في الطريق بمنطقة «جبل علي» التابعة لإمارة دبي ، فطرف من الشارقة ، كان هذا هو الجانب الأسهل والأسرع في الرحلة بفضل «طريق الإمارات» الذي يجنّب الذاهبين إلى الإمارات الشمالية مشقّة المرور بقلب «دبي» الغاص بالسيارات ، ولم يكن هذا هو الحال ، في الإمارات الصغيرة الأخرى : عجمان ، ورأس الخيمة ، حيث تتراجع ، على نحو ملحوظ ، حركة العمران والسيارات ، فتنبسط الأرض والزمن معا .

الاختلافات التي يلحظها المرء في رحلة كهذه من أبوظبي واضحة ، سواء تعلق الأمر بالغنى والحداثة العمرانية أم بالطبيعة ،

فباستثناء «دبي» ، و«الشارقة» ، إلى حد ما ، فأنت تدخل إمارات صغيرة ، أقلّ سكاناً وغنى بما لا يقاس من أبوظبي ودبي ، لكن الطبيعة تعوّض ، نسبيا ، بالطبع ، هذا الفقر بغناها وتنوعها .

معلوم ، بطبيعة الحال ، أن الثروة البترولية في الإمارات تتركز ، أساساً ، في إمارة أبوظبي ، وبدرجة أقلّ فأقلّ في «دبي» و«الشارقة» ، فيما لا تملك الإمارات الشمالية الأخرى شيئاً يعتدّ به على هذا الصعيد .

الاختلاف بيّنٌ أيضا في التضاريس .

ففيما يندر أن تجد جبالاً صخرية في كل من أبوظبي ودبي والشارقة ، تصبح الجبال سمة أساسية لإمارة «رأس الخيمة» ، حيث سلسلة «جبال الحجر» التي تشطر شبه جزيرة «مسندم» وتمتد نحو ٨٠ كيلومتراً شمالاً وجنوباً بعرض يصل إلى 32 كيلومتراً ، فتخترق عُمان لتصل إلى الطرف الشرقي من شبه الجزيرة العربية ، وفي سفوح المناطق الشمالية من هذه السلسلة التي تصل في أعلى ارتفاع لها نحو 2438 مترا تقع مدينة «رأس الخيمة» .

هذا تمايز في الطبوغرافيا لا مثيل له في الإمارات إلاّ في منطقة «العين» حيث ينتصب «جبل حفيت» ككتلة صخرية متوحدة قبل أن يتصل بسلسلة «جبال الحجر» .

وفي رحلة لي سابقة إلى مدينة «نزوى» العُمانية ، ذكرت بعض شواردها آنفاً ، كانت سلسلة «جبال الحجر» ترافقني ، كفقاريات صخرية عملاقة ، على طول الطريق صانعة واحداً من أبرز مظاهر المكان العُماني . إنها «الجبال» نفسها التي لا بدّ أن

الشاعر العماني سيف الرحبي استلهمها في عمله المسمى بالاسم نفسه .

سيلفت نظرك وأنت تمرُّ في منطقة «جبل علي» تمدد العمران والمنشآت الصناعية في هذا الصوب من إمارة «دبي» وصولا إلى الصحراء .

رأينا شبكة هائلة من الأعمدة الكهربائية التي بدت كمتاهة حقيقية من الأعمدة والأسلاك التي تصفر بين جنباتها ريح خفيفة . . تذكرت متاهة «بورخيس» الرملية التي أشرت إليها أكثر من مرة في غضون هذه الكتاب . لفت هذا المشهد نظر هاني حوراني ، فقال لي : يمكن لمن يعتبر «الانستليشن آرت» (التجهيز) فناً ما بعد حداثيّ ، أن يرى في متاهة الأعمدة والأسلاك المتراصفة هذه واحدة من أضخم أعمال «التجهيز» في العالم .

كان «هاني» محقاً . فهو مشهد غريب . «تجهيز» هائل في متحف مفتوح لا حدود له ، حيث تتنصب أعمدة الكهرباء وأسلاكها حديثة الإنشاء في قلب فراغ صحراوي كبير كما لو أنها حقل من نباتات حديدية ، مستقيمة ومتساوية الطول ، تغطيها عرائش من الأسلاك التي حط عليها بعض الطيور .

كان بالإمكان ، أيضا ، رؤية آليات تحفر وأعمال بناء تقوم في غير موضع وغبار يتصاعد في الجو . . وعمال بخوذات بيض وبذلات عمل زرقاء يحوّلون هذه الصحراء التي لا أثر فيها لنبتة غير أشجار الحديد والإسمنت ، ضواحي سكنية لقادمين ، من كل صوب ، إلى أحلام الثروة السريعة . إنهم صانعو أسطورة الخرسانة

المسلحة المجهولون تحت شمس تقف عنيدة فوق الرؤوس .

سألت «حنيف» عن هذا الحراك الميكانيكي الدؤوب ، والأبنية التي لا تزال على العظم ، بعضها قائم بخمس أو ست طبقات وبعضها أطول من ذلك ، فقال : فيه حركة وايد . فيه بزنس وايد استاز أمجد . كلو يروح دبي .

ويبدو أن دبي الأولى المسماة «ديرة» (نشأت حول المرفأ القديم) لم تعد قادرة على استيعاب المزيد من العمران الذي تمدد منذ زمن طويل إلى «بر دبي» وتعداه في كل اتجاه ممكن . . «دبي» التي أرى تمددها الاخطبوطي ونحن نعبر الطريق ، لا تشبه «دبي» التي أخذني أبي إليها قبل نحو اثنتين وعشرين سنة ليريني «أعجوبة» أول «مول» تجاري يدعى «الغرير» ، وذلك عندما جئت لزيارتهم في إمارة «أم القيوين» . كانت المدينة مقسومة ، يومذاك ، ببساطة إلى منطقتين : «ديرة» ، و«بر دبي» ، لكنها اليوم أكثر امتداداً في الأرض وتطاولاً في الفضاء وتعدداً في أسماء المناطق ، التي انتُزعتْ من البحر والصحراء على السواء ، مما كان يجنح إليه خيال الحالمين . حاول «حنيف» أن يحدثنا عن إمارة تناطح الفضاء وتقهر الصحراء وتصنع أرقاما قياسية على أكثر من صعيد . . فتعثر في الكلام . فما يجري في «دبي» يصعب وصفه بمعجمه العربي البسيط . لو كنت أعرف «الأوردو» لربما وقفت على تصوره الحقيقي لمدينة يعدها أجمل مدينة في العالم ، والأكثر تمدينا وغنى .

فهمت منه (وهذا ما يعرفه أي قارئ للصحف العربية) أن دبي تشهد طفرة اقتصادية كبيرة ، الأمر الذي يستلزم عمراناً

متزايداً . ومثل أبوظبي ، ليس أمام «دبي» سوى التوسع قُدماً داخل البحر (ردمه) أو إلى الوراء : في الصحراء . وباستثناء البحر ، فكل المدى ، هنا ، صحراء أصلاً . ولكنها لم تعد ، اليوم ، كذلك ، بعد هذا الهبوب العمراني العاصف على مدى عشرين أو ثلاثين كيلو مترا خارج مجال المدينة القديمة التي قامت حول «خورها» الطبيعي الذي لم يكن طوله يتجاوز سبعة كيلو مترات ، وهذا يذكرني بمدينة «العقبة» الأردنية التي لم تكن تبلغ إطلالتها على مياه الخليج المسمى باسمها سوى سبعة كيلو مترات قبل أن تنتقل إليها «عدوى» دبي الاستثمارية ، فتأخذ في جرِّ البحر إلى اليابسة لصنع مساحات مائية لم تعرفها من قبل .

لا أظن أن هناك مكانا في العالم يشهد هذه الحُمّى العمرانية ، بالسرعة والكثافة اللتين تعرفهما «دبي» .

معظم المدن والأمكنة تبنى بالتدريج .

تبدأ من بؤرة معينة ، ثم تشرع بالتمدد ، على شكل أشعّة أو دوائر متداخة ، حسبما تتيحه لها ثروتها ، طبوغرافيتها ، إلاّ في دبي (وأبوظبي بدرجة أقل) حيث يتاح لك أن ترى لأول مرة ، ربما ، المكان وهو يؤهل ، دفعة واحدة ، من كل جنباته . . شيء يشبه استديوهات الأفلام التي تبني مدينة بشوارعها ومرافقها دفعة واحدة ، وتملأها بالكومبارس . . ولكن حتى هذا المثال الهوليودي لا يصلح لتقريب صورة ما يحدث في «دبي» إلى أذهاننا .

لا أتحدث ، هنا ، عن مشروع سكني ، أو تجمع تجاري أو حتى عشرة أو عشرين تقام هنا أو هناك ، بل عن عشرات الأحياء بكامل

مرافقها تنهض دفعة واحدة . ليس هذا ، بالطبع ، حال «الشارقة» التي كانت تعتبر ، من قبل ، العاصمة الثقافية للإمارات ، وكان الزائر يقرأ على بقعة خضراء في ميدان «الاتحاد» هذه العبارة التي تحضُّ على الاسترخاء و«فرد» السحنة : ابتسم أنت في الشارقة!

قُسِّمتْ مدن الإمارات الرئيسية ، من قبل الصحافة المحلية ، إلى وظائف لم تعد جائزة ، اليوم ، إلاَّ من قبيل المجاز أو النوستالجيا إلى زمن ولى . فأبوظبي هي العاصمة السياسية والإدارية ، ودبي العاصمة الاقتصادية ، فيما الشارقة عاصمة للثقافة . . أما «رأس الخيمة» فتخلع عليها الصحافة المولعة بالوصف والتصنيف لقب «العاصمة التاريخية» .

هذا التقسيم الفضفاض لا يصلح اليوم لوصف حال المدن الثلاث الأولى ، حيث اختلطت الوظائف والأغراض بعضها ببعض ، فيما اكتفت «رأس الخيمة» ، حتى الآن ، بأمجاد مسطرة في كتب التاريخ .

القول إن أبوظبي هي للإدارة وسياسة الدولة غير دقيق اليوم ، ففيها مما هو ثقافي وتجاري بقدر ما فيها من الإدارة والسياسة . فماذا نقول عن «المجمع الثقافي» الذي يلعب دورا رياديا في محيطه ، وماذا عن ذلك العدد المعتبر من مراكز البحث والدراسات المهتمة بشؤون وقضايا متنوعة تبدأ بالشأن الاستراتيجي والسياسي ، مرورا بالتراث الشعبي ، وانتهاء بأبحاث البيئة والتاريخ الطبيعي للبلاد .

أما سمعة دبي التجارية والمالية التي طبقت الآفاق فهي صحيحة تماما ، ولكن التجارة والمال ليسا على ما يبدو ، كل دبي . .

أو هذا ، في الأقل ، ما لا ترغب إمارة آل مكتوم أن يكون صيتها الوحيد ، فهناك ، فعاليات ثقافية وفنية تعرفها هذه الإمارة لا تعرفها عاصمة عربية كبيرة ، تبدأ بالأنشطة الفنية الترفيهية التي تصاحب تدفق المال ونبض التجارة كـ «شهر التسوّق» ، وتنتهي بمهرجانها السينمائي حديث النشأة ، مرورا بـ «مهرجان الإمارات الثقافي» و«مدينة الإعلام» التي تحتضن عددا كبيرا من القنوات الفضائية العربية والأجنبية . ناهيك ، بالطبع ، عن «جائزة الصحافة العربية» ، و«جائزة سلطان العويس الثقافية» .

لم تعد الشارقة المدينة الإماراتية المعقود لها لواء الثقافة ، وإن ظلت تحافظ على تميزها في نمط العمران ذي الطابع العربي والإسلامي واهتمامها الخاص بالفن التشكيلي والمسرح .

الإنتاج الثقافي والفني هو ، إلى جانب الشغف ، مال أيضا ، مثلما هو انفتاح على «الآخر» واقتراحاته الفنية والجمالية ، وتقبّل لـ«الأعراض الجانبية» ، المؤلمة أحياناً ، التي ترافق التحديث وتنبثق منه .

المال والانفتاح أوفر ، بما لا يقاس ، عند شقيقتي «الشارقة» أبوظبي ودبي . . وكذلك الانفتاح المتسارع ، بلا تحفظ ، تقريبا ، على ما يحفل به العالم من جديد ، خصوصا ، بعد أن أثّرتْ في الشارقة ، أكثر من أي إمارة أخرى ، رياح السلفية الوهابية القادمة من السعودية ، فجعلتها تتشدّد في «أسلمة» قوانينها وتشريعاتها المحلية ، وهذا ما تضمنه لها الصيغة الفيدرالية للدولة . فهل بلا دلالة يا تُرى أن ينتصب في «شارع الثقافة» بالشارقة مجسّم كبير للقرآن!

ومثلما لم نمرّ في وسط مدينة «دبي» ، لم نمرّ كذلك من داخل «الشارقة» . كنت أرى ، لأول مرة ، هذا الجانب الخلفي من المدينة . وهو جانب صناعي صرف . لكنه لا يقارن ، البتة ، بما هو عليه الحال عند جارتها الأقرب : دبي .

الثروة المالية ، الحراك الاقتصادي والتجاري والكثافة البشرية تتركز كلها ، تقريباً ، في إمارات ثلاث هي : أبوظبي ، دبي ، والشارقة ، ثم تدخل ، بعد ذلك ، إمارات صغيرة وبسيطة على غير صعيد كعجمان وأم القيوين . (وفي الأخيرة أقام أهلي نحو أربعة عشر عاماً) حتى تصل إلى «رأس الخيمة» . . مقصد هذه الرحلة . . فتجد نفسك في مكان له قسمات خاصة .

***

لـ «رأس الخيمة» وقع خاص في الإمارات ، وفي محيطها الخليجي الأوسع ، وهي مختلفة في طبوغرافيتها وبيئتها الطبيعية عن شقيقاتها الأخريات .

إنها أكبر الإمارات الشمالية حجما وأكثرها سكانا ، وهي إمارة جبال شاهقة ووديان ونخيل عامر . إنها قلعة «القواسم» المنيعة أيام عزّهم البحري . أي في الزمن الذي أطلق عليهم الإنكليز اسما ينطبق عليهم قبل غيرهم : القراصنة .

كما أنها الإمارة التي تقع على مدخل الخليج العربي .

بوابة هذه البحيرة العربية الكبيرة التي سال على شواطئها ، وفي عرضها ، دم وعرق وزيت غزير ، وتدفقت عبرها سفن التجارة القادمة من أعماق الشرق الآسيوي حاملة إلى أناس الشمال البارد

والقاتم التوابل والبخور والشاي والأقمشة والمعادن النفيسة ، وناقلة في الاتجاه المعاكس الأطماع والمدافع وأدوات الاستعباد . . وشيئاً من «الحداثة» التي تمشي ، عادة ، في ركب التطور الصناعي والاقتصادي والاجتماعي .

غزاة
وفاتحون
وقراصنة
وأساطيل تجارية وحربية
وجوابو آفاق ؛
لؤلؤ
وحرير
وعطور
وأفاويه
شاي ؛
وبارود
وسيوف
واسطرلابات
وخرائط ،
وجوه وسحنات وألسنة
من كل لونٍ وشكلٍ مرّت من هنا .

فهنا مدخل الخليج الذي كان شريان التجارة ومحط أطماع القوة ، قبل أن يكتشف الغرب مداخل بحرية أخرى إلى عمق قارة

التجارة والنهب مطلقي السراح : آسيا .

تحتل رأس الخيمة نحو 64 كيلومتراً من ساحل الخليج العربي وتمتد إلى الداخل نحو 128 كيلومترا وتشترك في الحدود مع «أم القوين» و«الفجيرة» و«الشارقة» وسلطنة عُمان .

وهي الإمارة الرابعة ، بعد أبوظبي ودبي والشارقة ، من حيث المساحة والسكان ، لكنها أكثر تنوعاً منها في الطبيعة والتضاريس ، ولعلها ، أيضاً ، أكثر قدماً من حيث النشأة والتاريخ حيث تتردد في جنباتها وأمام سواحلها أصداء مواجهات كبرى .

يقسم «الخور» الأمامي الإمارة إلى قسمين : شرقي وغربي . في مناطق القسم الشرقي تقع «النخيل» و«العريبي» و«المعيرض» و«المعمورة» ، فيما يضم القسم الغربي مدينة «رأس الخيمة» ، عاصمة الإمارة المسماة باسمها ، أما في أقصى الشمال فتقع منطقة «شعم» التي تضم بلدتي «الرمس» و«خور خوير» .

وإلى هذه المناطق الأخيرة ، بل إلى تقاطع حدود «رأس الخيمة» مع عُمان توجهنا ، بعد جولة في وسط العاصمة .

***

قليلة هي الأشياء في «رأس الخيمة» التي تذكرك أنك في مدينة نفطية .

المقياس دائماً أبوظبي ، دبي ، وبدرجة أقل الشارقة .

فلا أبراج متراصة ، يتلامع في جنباتها الزجاج الملون ، تندفع إلى السماء ، ولا شوارع عريضة جيدة التعبيد ، ولا محال تحمل أسماء ماركات تصلها بباريس أو لندن أو ميلانو ، ولا سيارات

فارهة قد لا تجد لها مثيلاً في شوارع الدول المصنّعة نفسها .

لكن هذا الوصف الذي يدل على أحوال «رأس الخيمة» المتواضعة ، على غير صعيد ، قد لا يطول . أنفاس الاندفاعة الشرهة إلى الاستثمار في العقار والزحف على أي بقعة خالية امتدت ، بلهبها التنينيّ ، من دبي ووصلت إلى «رأس الخيمة» . فقد اكتشف حكام الإمارات الشمالية الفقيرة ميزة في بلادهم لم تكن في الحسبان : الأرض والبحر ، والأهم ، قربها من دبي . فبعد أن بلغت دبي حد الإشباع ، على الصعيد العقاري ، أو تكاد ، صارت أموال الاستثمار تتجه إلى الإمارات المجاورة التي لم تعرف حُمّى العقارات التي عرفتها دبي . كثير من الذين يعلمون في دبي يقيمون (بسبب ارتفاع أجور السكن أو اكتظاظ المدينة وصعوبة الحركة داخلها) في الشارقة ، أو حتى في «عجمان» و«أم القيوين» وصولاً إلى «رأس الخيمة» . الوقت الذي يستغرقه الذهاب الى أبعد هذه المدن عن دبي قد يكون أقصر من الانتقال من جهة إلى جهة أخرى داخل هذه المدينة - الورشة . كما أن فورة النشاط الاستثماري وتدفق أنواع جديدة من العمالة «الراقية» وذات الرواتب العالية ، دفعا المستثمرين إلى البحث عن أرض «بكر» لدولارتهم ودراهمهم .

فهمت من «محمد الشحي» أن إمارة «رأس الخيمة» أقرَّت ، بحماسة من ولي عهدها ، قانوناً يتيح للأجانب تملك العقارات فيها ، وهي بذلك تحذو حذو دبي التي كانت أول إمارة تقرُّ قانوناً محلياً كهذا . وقد بدأت رياح الاستثمار العقاري المحلي والعالمي

تهب على «رأس الخيمة» من خلال مشروع «قرية الحمرا» العقاري السياحي الذي بدأ بالقرب من فندق «قلعة الحمرا» المطل على مياه الخليج العربي ، مستلهما الصيغة نفسها لـ «مدن دبي» وتجمعاتها العمرانية السياحية .

كما فهمت من «محمد» أن أسعار الأراضي أخذت في الارتفاع ، وقد لا يطول الوقت حتى تتحول «رأس الخيمة» مقصداً استثمارياً و«سياحياً» يتشبه بدبي ويقلدها . كان يمكن لنا ، أثناء جولتنا في المدينة الصغيرة ، أن نرى بدايات ذلك العصف العقاري ، وإن لم يكن بضراوة ما يحصل في إمارة آل مكتوم . ورغم مطامح أولي الأمر في «رأس الخيمة» التحول إلى دبي ثانية ، فإن عاصمة الإمارة لا توحي ، حتى الآن ، بذلك .

الأمر المشترك الذي يعطي انطباعاً بالوحدة بين مدينة «رأس الخيمة» وعواصم الإمارات الأخرى ، هو الملمح الآسيوي الذي يغلب على العاملين في الحوانيت والمارّين في الشارع .

وهذه خصيصة إماراتية بامتياز .

لهذا السبب تشعر أنك ما زلت في الإمارات .

ولولا هذا الملمح لظننت أن الشارع الرئيسي لمدينة «رأس الخيمة» هو في مدينة «الزرقاء» الأردنية .

فالاحتشاد ، هنا ، سيّد الموقف .

احتشاد لا يعرف الانسجام : محال صغيرة ، متراصة ، تبيع أو تشتغل في كل شيء تقريبا ، من البقالة إلى البنشر مرورا بالطعام ، والأدوات الكهربائية والصيدلة والعطور .

وهذا هو حال شارع الكراجات في مدينة «الزرقاء» الأردنية ، المزدحم بالمحال المتنافرة ، العامر بحركة الناس وأصواتهم ، وروائح الشواء أو الفلافل ، المجلل بالغبار ، الضارب في صفرة الصحراء ، الجاف ، صيفاً ، حتى العطش .

حياة نابضة ، ذات طابع شعبي تقيم صروحها الملفّقة من كل شيء ، وتقريباً ، من كل مكان ، في شارع المدينة الرئيسي وفي أسواقها الشعبية .

رائحة النفط بعيدة .

روائح الأسماك والخضر والشواء والكاري أقرب .

هناك مُشتَركٌ آخر بين مدن دولة الإمارات . إنه دلال القهوة التي تنتصب في ميادين عامة أو في دوارات . لا تكاد تخلو مدينة في الإمارات من دلة قهوة كبيرة . فهذه محاولة لإعطاء طابع «تراثي» للمكان الذي يعصف به التحديث السريع . رفع صورة للهوية وسط أبراج الزجاج والكونكريت . فقد رأيت في مدينة «العين» دلة قهوة كبيرة تحيط بها سبعة فناجين . الفكرة واضحة ، بل ساذجة في وضوحها : الفناجين السبعة ترمز إلى الإمارات السبع التي تتكون منها الدولة الاتحادية . وهنا في «رأس الخيمة» دلة قهوة أيضاً ، لكن الساعة التي تنهض على شكل خيمة بيضاء في وسط أحد أبرز دواويرها هي التي تحاول أن «تترجم» اسم المكان في صنيع «تشكيلي» مباشر لئلا يخطئ زائر المدينة في اسمها . فهذا هو اسمها منتصب في وسط دوار كبير عند أحد مداخل المدينة تعلوه ساعة! الساعة ، التي لم أفهم ، تماما ، دلالتها موجودة ،

كذلك ، في معظم مدن الإمارت . كانت دواوير الساعات في معظم مدن الإمارات موجودة قبل أن يتحول الزمن إلى مال تنافسيٍّ ، قبل أن تحسب الدقيقة بالدرهم ، قبل أن تلهث الساعات وأنفاس المهندسين المعماريين والمدنيين والصناع الماهرين والعمالة العضلية لتحويل البحر المردوم بالإسمنت والحصى ، أو الصحراء الشاسعة ، إلى فيلل وبيوت قد تتجاوز أسعارها عقارات لندن أو باريس .

توقفنا ، بناء على طلبي ، في الشارع الرئيسي قرب بسطة صغيرة لبيع الشاي . فأنا من محبي الشاي على الطريقة الهندية الذي يسمى في الإمارت «كرك» ، وهو قريب ، إلى حد ما ، مما يسمى في لندن «شاي لاتيه» . قال «حنيف» : استاز أمجد هدا مو بزين . مو بنظيف . فقلت له : لن نموت من كاسة شاي يا حنيف . هاني يريد قهوة . إنه مدمن قهوة كما لاحظت . كان البائع الهندي يستخدم أباريق ذات لون نحاسي . ولديه كمية كبيرة من علب حليب «أبو قوس» المنتشر بكثرة في منطقة الخليج . علمت من «حنيف» أن كلمة «كرك» تعني «كثيف» أو «ثقيل» . وخطر لي أن السوريين يسمون الشاي الثقيل «أكرك عجم» . فلا بدَّ أن هناك علاقة بين «كرك» القادمة من لغة «الأوردو» وبين «أكرك» التي تعطيها كلمة «عجم» نكهة فارسية . ولكن ليس هناك وجه شبه بين «أكرك عجم» السوري و«شاي كرك» الهندي - الإماراتي . فالأول شاي عادي ولكنه ثقيل . شاي مزاج . شاي قبضايات أحياء دمشق القديمة . كمية الشاي فيه كبيرة ومغلية وليس هناك مادة مضافة إليه ، فيما «شاي كرك» هو خليط عدة أنواع من الشاي

يضاف إليه حبٌّ «الهال» والزعفران والسكر والحليب السائل . . المعلّب غالبا ، يغلى على نار هادئة لفترة قد تصل إلى ثلث ساعة ، ويسكب بالكاسة من مسافة حتى تتكون له رغوة .

***

بدءا من هذه اللحظة كان على «حنيف» أن يبقى على اتصال دائم مع «محمد الشّحي» . فهنا تنتهي «علومه» الجغرافية الراسخة ويبدأ ضرب الأخماس بالأسداس .

البحر قريب .

ولكن علينا أن نسدّد حركتنا في اتجاه تقاطع البحر مع الجبل .

بل إلى النقطة التي يضيق فيها البرّ حتى ليصبح مجرد شارع محصور بين ساحل الخليج العربي و«رؤوس الجبال» .

دخلنا أكثر من قرية صغيرة ثم خرجنا منها لأن «حنيف» لم يلتقط الإشارات الأرضية ، ولا تلك المبثوثة إليه من محمد الشّحي بالهاتف المحمول ، فصار علينا أن نعلّم المكان ببقالة هنا ، أو باسم مصنع للبلاط هناك .

عدنا أدراجنا الى الشارع الرئيسي الذي يفترض أن يؤدي بنا الي «غليلة» ، بعد أن كنا مررنا بـ «شمل» و«ضاية» و«خور خوير» . كنا نمر بمناطق شهدت أولى المستوطنات البشرية بالقرب من ساحل البحر من دون أن نعرف شيئا عن قبورها الجماعية وأوانيها الفخارية وحليها الذهبية المنمنمة . سنعرف ذلك ، لاحقا ، عندما نلتقي رجلا مهتما بإرث منطقته هو «سعيد لحة» .

كانت أشجار النخيل والرّمان والأكاسيا ، والسّدر تنتشر

بكثافة . . كذلك كانت الأبقار والثيران الصغيرة بقرونها المعقوفة ، التي تذكرك بالثيران الإسبانية ، تجول في الشوارع . سيقول «محمد الشحي» عندما أسأله عن تلك الثيران التي تسرح في شوارع غير معبَّدة ، إنها مستجلبة من الخارج ، فالأبقار والثيران ليستا من دواب بيئتهم أصلا .

هذا أول مظهر ريفي ، طبيعي أراه في الإمارات .

ثمة بيوت إسمنتية متناثرة . . وفراغات كبيرة بينها ، تشغلها أشجار . . أو أرض ما زالت تتمسك ببعض الأعشاب التي عصفت بها الشمس . . ثمة أولاد يلعبون كرة في الشوارع وعلى فانيلاتهم أسماء ورموز لكرة القدم العالمية أو المحلية . . آخرون يقودون دراجات هوائية . . وثمة آسيويون يرتدون وزرات ملوَّنة ، بجذوع سمر شبه عارية يطلعون من وراء صف من المحال المغلقة ، تخفي وراءها مرفأ صغيرا لصيد الأسماك .

رائحة السمك قوية جداً .

كأننا في مسلخ للسمك .

عند مفترق انتظرنا «محمد الشّحي» الذي لم يلبث أن جاء بسيارة «تويوتا» حديثة ذات دفع رباعي . بدا «محمد» ، الذي ترجل من سيارته ليسلم علينا ، أكثر خفّة وانسجاماً مما كان في أبوظبي ، رغم أنه ما برح يرتدي الثوب الأبيض الناصع الذي يرتديه جميع الإماراتيين والغترة والعقال ، وهما ليسا ، كما لاحظت ، من مستلزمات الزيّ الشحيّ حيث «العصامة» هي غطاء الرأس الشائع .

إنه الآن في مكانه الأول ، الذي يتخفف فيه المرء ، عادة ، من المواضعات التي تفرضها الوظيفة في مدينة لا تتسامح مع النزعة الفردية . . أو المسلك المتحدّر من الأمكنة الأولى .

المدينة مرجل كبير .

تنصهر فيه الفرديات كي تنسجم مع القوام العام .

تنحبس الألسنة القادمة من الأطراف لصالح لسان المدينة .

هنا ، سأعرف أن لمحمد الشّحي لسانا آخر ، لا يمكن تداوله ، بسهولة ، في أبوظبي .

فهناك ، عليه أن يرتدي لسان المدينة فوق لسانه الأول .

التنازلات التي يقدمها المرء خارج مداره الأول عديدة ، فعليه أن يتوافق مع الأنماط السائدة في الملبس والحديث والمسلك الذي تفرضه المدينة على القادمين إليها من الهوامش والأطراف .

هنا ، في هذا الصوب النائي من الخليج العربي ، أو لنقل ، عند فوهته الصخرية ، وبين قومه ، يستعيد «محمد الشحيّ» لسانه وخطوته .

كان وقت صلاة الظهر .

الشمس لابثة بقرصها الكبير المتوهج في السمت .

لا غيمة واحدة في هذه السماء المفتوحة على المطلق ، لكن سلسلة «رؤوس الجبال» التي تنتصب شبه عمودية وراءنا تشعر من يمشي بجانب أقدامها المفلطحة بالحصار . لا شك أن البحر أرحب وأرحم من هذه الجدران الصخرية ، الجرداء التي لا يلوح فيها منفذ واحد إلى ما يتوارى خلفها . ولأنني عرفت أننا وصلنا إلى آخر

نقطة للخليج العربي (لماذا لا أقول أول نقطة؟) ، حيث يبدأ بعدها بحر آخر هو خليج عُمان ، فقد خامرني شعور بنهاية الأرض .

قال «محمد» ، مؤكداً ، هذا الشعور عندي : إنكم وصلتم إلى نقطة الحدود الإماراتية ـ العمانية ، حيث يستلزم الذهاب إلى «رأس مسندم» ، الذي كنا عازمين على الذهاب إليه ، فيزا عُمانية لغير حاملي الجوازات الخليجية . . أو الأوروبية!

ولهذا السبب ، بالذات ، لم نستطع الذهاب إلى «رأس مسندم» لأن «هاني» يحمل جواز سفر أردنيا ، ويحتاج إلى «فيزا» من السفارة العُمانية في عمَّان . اكتفينا بالاقتراب من نقطة الحدود الإماراتية حيث توجد مفرزة صغيرة من الأمن الإماراتي بالقرب من حاجز يراد له أن يشكل حدا وطنيا بين بلدين ، ولكنه ، لسبب ما ، لم يبد لي كذلك ، مع هذا لا يشبه هذا التقاطع العماني ـ الإماراتي ، مثيله في «العين» . فالأخير حدٌّ ملفّق . شارع واحد وتكون في عُمان .

هنا ، ثمة هذه الجبال العاتية .

هنا تنتهي مياه وتبدأ مياه أخرى .

قادنا محمد إلى بيت ذويه في بلدة «القليعة» التابعة لـ«غليلة» ، وهو بيت إسمنتي كبير ، حديث النشأة .

الأشجار في حوشه .

النخلة ، طبعاً ، أهمها .

بدا لنا البيت فارغاً من الناس .

لم نسمع صوتاً ونحن نجلس في صالة الضيوف ، حسنة الترتيب

والأثاث . جيء لنا ، ما إن دخلنا ، بمياه باردة وعصير . طلب «حنيف» أن يتوضأ ، فأرشده محمد إلى الحمّام ، ثم صلى ، على ما يبدو ، في مكان داخلي . كان الوقت بين صلاتي الظهر والعصر .

كان ذوو «محمد» ، الذين لم نر منهم أحدا ، حتى الآن ، قد أعدوا لنا وليمة كاملة ، ولكننا لم نأكل في صالة الضيوف ذات الطراز الغربي ، بل في غرفة داخلية ، مستطيلة الشكل ، مفروشة على الطريقة العربية . إنها على ما يبدو مجلس العائلة .

الأكل ، هنا ، كعهده في بيت أهلي ، ما زال على الأرض .

كان جهاز التلفزيون الضخم مضبوطاً على قناة «الجزيرة» التي يبدو أنها تستقطب أعلى نسبة مشاهدة في العالم العربي ، خصوصاً ، لمتتبعي الأخبار والبرامج السياسية . فلم يعد «تلفزيون أبوظبي» الذي انطلق ، بقوة ، قبل الحرب الأمريكية ـ البريطانية ، على العراق ، وظل كذلك أثناءها ، بالزخم نفسه . تراجعت تغطياته من حيث الكثافة والنبرة ، وظل هذا الميدان حكراً على «الجزيرة» التي أخذت تنافسها قناة «العربية» ، سعودية التمويل ، والتي تبث من مدينة الإعلام في دبي .

لكن الناس ، هنا ، كما فهمت من «محمد» ، يطمئنون إلى أخبار «الجزيرة» أكثر من المحطات الأخرى . فهم ، معادون ، تماما ، للوجود الأمريكي في العراق ، وتعاطفهم واضح مع القوى التي تناهضه ، شأنهم في ذلك ، شأن معظم العرب .

يقول «محمد» إن الشعور القومي والديني قوي بين السكان هنا .

وقضايا كفلسطين والعراق تتوافر على القومي والديني معاً . ورغم أن أهالي الإمارات هم من بين أكثر العرب علما بأن المسلم ليس ، بالضرورة ، عربياً ، حيث يقيم بينهم مئات الآلاف من المسلمين الباكستانيين والأفغان والبلوش ، لكنهم ، مع ذلك ، يكادون يربطون ، على نحو آلي ، بين العروبة والإسلام!

ولا ينسى الناس هنا أن من بينهم طلع القائد الإسلامي الشهير «المهلّب بن أبي صفرة» ، غير أنهم يرفضون ، في المقابل ، ذكرهم في عداد «المرتدين» عن الدين الإسلامي في مستهل خلافة أبي بكر . . وهذا أمر سأتطرق إليه لاحقا .

جاء «محمد» بالطعام السخيِّ ، الشهيِّ من الداخل . رائحة البهارات الهندية سبقت الطعام .

كانت الوليمة الفعلية مكونة من طبقين كبيرين هما : «عيش ولحم» و «عيش وسمك» ، الأول نوع من «الكبسة» ، الطبق الشهير في منطقة شبه الجزيرة العربية ، والذي تعكس توابله القوية أصله الهندي ، أما الثاني فيتكون من الأرز ومرق السمك ، ولعله هو أيضا ، نوع من «الكبسة» ولكن بالسمك بدل لحم الضأن أو الدجاج .

ويبدو أن هذين هما الطبقان الأساسيان هنا . فالسمك من بحرهم القريب الذي كانوا يقيمون ، كما يقول «محمد» ، بالقرب منه صيفاً ، واللحم من أغنامهم أو ماعزهم التي كانوا يرحلون بها شتاء إلى الوديان والجبال .

وهنا ، في «رأس الخيمة» حيث الأمطار أغزر ، والأرض

أخصب ، يمكن الجمع بين البحر والبر . وهو ما كان صعباً ، إن لم يكن مستحيلا ، فعله في جزيرة أبوظبي أو دبي ، حيث لا توسط بين البحر والصحراء .

لم يجلس معنا إلى الطعام أحد من عائلة «محمد» . خمَّنت أن والده ليس في البيت . بعد أن فرغنا من الطعام اللذيذ فتح لنا «محمد» طريقا إلى الحمام .

# الماضي والحاضر

بدأنا جولتنا في «القليعة» من بيت أهل «محمد» القديم .

لم يكن البيت القديم بعيداً عن بيتهم المبني على الطراز «الغربي» الذي يعكس ، كغيره من البيوت المتشابهة ، التغيرات التي طرأت على حياة السكان هنا . كل بيوت «الشّحوح» القديمة في القرية تتبع ، تقريباً ، طرازاً واحدا . فالبيت ينبغي أن يكون مسورا بحائط من الحجر والطين . هناك دائما حوش ، وحظيرة للماشية ، والبيت نفسه . عندما أقول البيت ، أقصد الغرفة .

كان بيت ذوي «محمد» الذي يرقى إلى ما قبل قيام دولة الإمارات العربية المتحدة بوقت قصير ، مهجورا بالطبع ، وشبه مهدم ، ولكنهم ما زالوا يحتفظون به . هناك غرفة ثانية مبنية بالقرب من ، وليس لصق ، الغرفة الأساسية ، وهي تبدو أحدث . قال محمد إن الغرفة الجديدة بنيت لوالده عندما تزوج .

قبل ذلك ، كان أهله يعيشون في الغرفة القديمة .

الغرفة تتوافر على المستلزمات الرئيسية الموجودة في كل بيت : موقد للنار ، سدة طينية صغيرة لوضع الأواني وشباك . للبيت باب حديدي . وهذا هو الفارق الوحيد عن البيت القديم ، باستثناء

ذلك : الجدران المبنية ، من الحجر والطين ، السقف المرفوع على جذوع الأشجار ، المغطى بملاط من الطين والقش ، هي نفسها في البيوت القديمة .

كان البيت القريب من كتف الجبل ، محاطاً ، أيضا ، ببضعة بيوت مشابهة ، هجرها أهلها ليقيموا بيوتا أقرب إلى ساحل البحر . فلم تعد رحلة الشتاء والصيف ، بعد الاستيطان النهائي في بيوتهم الإسمنتية الجديدة وارتباطهم بالمدارس والمياه الجارية والكهرباء ، والاتصالات السلكية والمكيّفات والبقاليات الصغيرة المنتشرة بين البيوت والأشغال القريبة أو البعيدة ، ممكنة بعد اليوم . لم يعد ممكنا نقل الحياة التي ترفّهت واستقرّت ورمت جذورها في البلدة الحديثة إلى «رؤوس الجبال» التي تُركت للطيور الجارحة وصفير الريح . . وبضعة «شحيين» رفضوا الهبوط من بين تلك النتوءات التي تلوح لنا حادة كأنصال سكاكين .

صارت حياة «رؤوس الجبال» من الماضي .

حكاية تروى للأبناء والأحفاد في ليالي السمر .

سألت محمد وهو يغلق غرفة والده بمفتاح حديدي ويضعه في جيب «كندورته» : لماذا تحتفظون بهذا البيت؟

فقال : فقط للذكرى ، فهو ، كما ترى ، مهجور ، وصار مسرحا طلقا للماعز .

كان في البيت شجرة ، سأرى كثيرا مثلها في هذه المنطقة . شجرة متقشفة الأوراق ، ذات خضرة قاتمة مغبرّة .

سألت «محمد» عنها ، فقال : إنها شجرة «السُّمر» .

# في أصل «الشّحوح» وتسميتهم

أسأل «محمد الشّحي» ، ونحن في طريقنا إلى «وادي غليلة» ، عن أصل تسمية قومه بـ «الشّحوح» فيقول إن هناك روايتين لهذه التسمية . واحدة تردّها إلى واقعة «الردّة» التي حدثت في خلافة أبي بكر وكان سكان «دبا» كما يقال ، في عدادهم ، فأرسل إليهم أبو بكر جيشاً وقاتلهم وقتل منهم من قتل وساق الآخرين أسرى إلى «المدينة» ، فتدخل عمر بن الخطاب عند أبي بكر للحيلولة دون تطبيق الحدّ عليهم ، قائلا للخليفة إنهم مسلمون ولكنهم «شحوا» بأموالهم . . أما الرواية الثانية فترجع التسمية إلى كون مناطقهم شحيحة بالموارد .

لا يبدو «محمد» متأكداً من أصل التسمية ، ولعله مثل معظم «الشحوح» يميل إلى الرواية الثانية ، ففكرة أن يكون قومه الأوائل من «المرتدين» غير مستساغة لديهم أبداً ، خصوصاً ، وأن معظمهم من أتباع المذهب «الحنبلي» .

لا تزر وازرة وزر أخرى .

هذا ما يقوله القرآن .

فإن كان سكان «دبا» ، عاصمة الشحوح ، اليوم ، والحاضرة

العامرة قبل الفتح الإسلامي ، قد ارتدّوا ، مع غيرهم من عرب شبه الجزيرة ، عن الدين الذين رأوا أنه انطوى بوفاة نبيِّه ، فهذا لا يضير المتحدرين من أصلابهم ، فذلك تاريخ قديم طوته القرون .

ولكن ماذا يقول المؤرخون عن واقعة الردة في «دبا» وما هو أصل تسمية القبائل التي تستوطن رؤوس الجبال بـ «الشحوح»؟

يؤكد ياقوت الحموي ، صاحب «معجم البلدان» ، واقعة الردّة ، ويقول إن رأسها كان «لقيط بن مالك» الذي يرجع الإخباريون العرب نسبه إلى «مالك بن فهم الأزدي» ، الشخصية اليمانية شبه الأسطورية الذي قاد قومه إلى عُمان بعد انهيار سد مأرب ، وقد انتهز «لقيط» هذا وفاة الرسول ليرتدَّ عن الإسلام ، فأرسل إليه أبو بكر جيشاً كبيراً فهزمه وقتل أعوانه واقتاد من بقي حيا منهم إلى «المدينة» ، فتدخل عمر بن الخطاب ، كما سبق القول ، للحيلولة دون قتلهم ، قائلاً لأبي بكر إنما القوم «شحوا» بأموالهم .

وفي عداد الأسرى ثمة طفل صغير سيكون له شأن في حروب صدر الإسلام ، في ما بعد ، هو «المهلَّب بن أبي صفرة» .

إذن الواقعة ، كانت أكبر تحد يواجه الإسلام بعد وفاة الرسول لذلك كان القصاص الذي حاق بمن ارتدّوا كبيراً ، فلو قدِّر لحركة «الردة» النجاح لربما كُتب للإسلام تاريخ آخر غير الذي نعرف اليوم . هكذا حوّل عمر بن الخطاب ، بتدخل دبلوماسي غير معهود فيه ، واقعة الارتداد إلى إمساك عن دفع الزكاة . . أو «شح» يد .

وتظل لفظة «شحيح» أفضل وأبقى ، لمن وقع في الأسر ، من لفظة «مرتد» ذات النذير التكفيري المخيف . ولكن «فالح حنظل»

أحد المؤرخين العرب المعاصرين المهتمين بتاريخ الإمارات ينافح بشدة في كتابه عن «الشحوح» ضد ردة أهل «دبا» وجوارها ، ككل ، وينسبها إلى بعض قبائل هذه المنطقة الذي التصق به اسم «الشحوح» . . ولكنه لا يقول من هي هذه القبائل التي انتحلت اسمهم .

ولكن المؤكد أن «دبا» كانت بلدة مزدهرة وسوقاً شهيرة قبل الإسلام . فياقوت الحموي يصفها بالقول : «إنها سوق من أسواق العرب بعُمان ( . . .) مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها وأشعارها ، وكانت قديما قصبة عُمان» .

وحسب أكثر من مؤرخ عربي قديم ، فقبائل هذه المنطقة هم من «الأزد» اليمانيين . ولما عدت إلى المؤرخ العُماني «السلامي» ، أحد مصادر رحلتي عن عُمان ، وجدته ينسبهم إلى «مالك بن فهم» الذي قاد قبائل «الأزد» اليمنية بعد خراب سد مأرب إلى عُمان الخاضعة يومها للجيش الفارسي ، فوقعت بين الفرس و«الأزد» حرب انتهت بهزيمة «الفرس» على يد «مالك بن فهم» وقبيلته ليصبح الزعيم اليمني ملكاً على عُمان التاريخية التي كانت تضم مناطق واسعة مما يسمى ، اليوم ، دولة الإمارات العربية المتحدة .

ويبدو أن واقعة «الردة» في مدينة «دبا» التي تقع ، اليوم ، بين «الفجيرة» و«الشارقة» وتعتبر العاصمة التاريخية لقبائل «الشحوح» تحظى بإجماع المؤرخين العرب .

وإذا كان «الشحوح» يرفضون فكرة أن يكونوا انحدروا من أصلاب مرتدّين عن الإسلام فإن رفضهم للروايات (الاستشراقية

خصوصاً) التي تشكك بأصلهم العربي أشدّ قوة .

حتى اللحظة كان «محمد» يتحدث إليَّ باللهجة نفسها التي سمعتها منه في أبوظبي . . ولكن الأمر سيختلف ما إن نصل إلى «وادي غليلة» لزيارة أقارب له ما زالوا يعيشون بجانب مساكنهم الأولى ، ويحافظون ، إلى حد ما ، على صلة مع حياة أهل «رؤوس الجبال» السابقة .

لاحظت أثناء تجولنا في «القليعة» وجوارها وجود عدد كبير من سيارات «نيسان» متشابهة في لونها وطرازها . فسألت «محمد الشحي» عنها فقال إنها شحنة اشترتها إيران من اليابان في بداية الحرب الطويلة مع العراق ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى ميناء «بندر عباس» على الجهة المقابلة للخليج بسبب اشتعال أوار الحرب فانتهى بها المطاف هنا .

# تحت «رؤوس الجبال»

في «وادي غليلة» وتحت «رؤوس الجبال» التقينا «علي الشّحي» ابن عمة «محمد» . كان يعرف أننا قادمون فلاقانا في ظاهر مساكنهم التي تنهض على بسطة من الأرض بين الوادي و«رؤوس الجبال» مباشرة . لم تكن تلك المساكن تؤلف قرية . بل بضعة بيوت متفرقة تفصل بينها فراغات تشكل ما يشبه الحرم بين تلك البيوت الإسمنتية حديثة النشأة . يمكن لك أن ترى صهريج مياه بالقرب من كل بيت . منظر يشبه ما هو عليه حال بعض التجمعات البدوية الصغيرة في البادية الأردنية التي لا تزال تتشبث ببعض البداوة ونمط إنتاجها .

كان لـ «علي» ، الذي يواصل حياة قريبة من تقاليد أهله الأولى ، هيئة مميزة بدت لي مختلفة عن «محمد» الذي صار أقرب ، سمتا ومسلكا ، إلى سكان أبوظبي . تمدين «محمد» واضح ، قياساً إلى ما يبدو عليه «علي» من ملامح جبلية ، فضلاً عن اختلاف زييهما ، فمحمد كان يرتدي ، ربما بسبب وجودنا ، الزي الشائع في مدن الإمارات ، خصوصا الغترة البيضاء والعقال ، بينما كان «علي» يلفّ رأسه بكوفية تسمى «العصامة» . لـ «علي» وجه

يشبه المنحوتات السومرية . تكوينه واضح وقاطع ، خصوصاً عيناه وأنفه وجبهته ، لكن سمرته التي لوَّحتها الشمس ليست قاتمة بل مشربة قليلا بالحمرة . مربوع القامة ، لكنَّه كتلة من الحركة ، فلم يتوقف عن الحركة طوال الوقت الذي قضيناه في «قريته» . فمرة يصعد تلة ليرينا أين تتوضع المناحل البرية في «رؤوس الجبال» ، ومرة يهبط إلى سفح ليرينا بيوتهم القديمة ، ومرة يهشُّ على ماعزه الذي كان يبحث عن عشب بين الصخور حولنا . كان قليل الكلام . كأن حركته النشطة كانت تعويضاً عن الكلام والشرح ، فبدل أن يشرح لنا شيئا كان يقفز إليه ويرينا إياه .

بعد أن رأيت «علي» قلت في نفسي هذا هو ابن المكان ، تسهل معرفة هؤلاء الأشخاص من تلك العلاقة التلقائية مع محيطهم . كل حركة مصوبة تماماً إلى هدفها ، وكل خطوة في موضعها ، ففيما كان علينا أن ندقق في مواقع خطانا ونحن نصعد معه جانباً من الجبل كان «علي» يصل إلى ما يريد مغمض العينين ، هذا فضلاً عن الانسجام الداخلي العميق الذي تلحظه بينه ومكانه . وأبناء الأمكنة ، من أمثاله ، لا يغادرون أمكنتهم بسهولة حتى وإن كانت على جانب كبير من الضنك . ليس هناك اليوم ، بطبيعة الحال ، ضنك حقيقي في الإمارات ، ففتات الثروة الهائلة التي تتدفق على هذه الدولة الصغيرة يطال الجميع ، ولكن الضنك ، إن وجد في حالة «علي» ، فهو نسبي تماماً . وهو ، كما علمنا من «محمد» ، خبير في معرفة كيف ومتى يصل إلى واحدة من ثرواتهم الطبيعية في تلك المناطق : المناحل البرية التي يبنيها

النحل ، فرارا من أيدي البشر في أعالى الجبل .

ولكن . . هيهات .

فأيدي البشر لها بالمرصاد .

يبذل «علي» جهدا عضليا مضنيا للوصول إلى المناحل البرية في «رؤوس الجبال» . كانت يداه مشققتين من أثر صعود القمم الحادة كالسكاكين . وهذا أمر يعد نادرا بين سكان المدن الكبرى في الإمارات . فهناك لا يعمل «المواطنون» بأيديهم ؛ إذ ثمة من ينوب عنهم في الشقاء العضلي . لكن الأمر يختلف في مناطق البادية والأرياف البعيدة ، خصوصا ، في الإمارات الفقيرة كرأس الخيمة .

المناحل البرية ثروة ولكن الوصول إليها دونه خرط القتاد ، فالنحل الذي يقتات من شجرتهم الشهيرة «السمر» ، أو «السدر» ، يختار مناطق يصعب الوصول إليها بين هذه القمم الصخرية الحادة ، ولكن النتيجة المادية مجزية . فقد يصل سعر كيلو غرام العسل الذي يبتاعه أثرياء المدن الكبرى في الإمارات إلى ألف أو ألف وخمسمئة درهم (نحو 300 إلى 400 دولار) .

فهذا عسل طبيعي مئة بالمئة ، لا يد للإنسان فيه ، اللهم ، سوى جمعه من تلك المناطق الوعرة النائية . لكن «علي» يشكو ، مثل غيره من أهل «غليلة» ، من التأثيرات المدمرة التي تشكلها المصانع والكسارات الموجودة في منطقتهم على بيئتهم الطبيعية . ليس على الأشجار والزهور التي يقتات منها النحل ، بل على كل شيء في المحيط . وقد رأينا آثار هذا التلوث على الأشجار ، الصخور ، شبابيك البيوت ، السيارات . فغبار مصنع الإسمنت

والكسارات يكاد يتخلل كل شيء . لذلك فإن «علي» متشائم من استمرار كثير من المظاهر الطبيعية في واديهم ، ومنها ، بطبيعة الحال ، الأشجار والزهور البرية ، والطيور النادرة ، على قيد الحياة طويلا . فالغبار والتذرر سيأتيان ، مع مرور الوقت ، على كل ذلك ، فضلا عن تأثيرهما المدمر على صحة الإنسان ، وقد فهمت منه أن أمراضاً صدرية ، من بينها الربو ، أخذت بالانتشار بين سكان المنطقة ، الذين كانت حياة «رؤوس الجبال» تمنحهم بنية قوية وأجسادا سليمة . رأيت مصنع إسمنت ضخماً . . ورأيت الدخان يتعالى من فوهاته المصوبة نحو السماء ، ورأيت غباره الأبيض القاتل يتذرر على كل شيء في محيط المنطقة ، ورأيت المواد التي يلفظها تشكل جبلا بالقرب من مدخل الوادي . ويبدو ، كما فهمت ، من «علي» و محمد» أن المنطقة تقع ، كلها ، تحت تأثير تلوث بيئي فادح بسبب وجود عدد كبير من المصانع والكسارات التي تواصل نفث دخانها وغبارها في الجو ، ويخشى الناس الذين التقيتهم في المنطقة أن يأتي اليوم الذي تتحول فيه المناطق الزراعية في «رأس الخيمة» ( . . . وكان هذا رأس مال الإمارة قبل اكتشاف بضعة آبار بترول) إلى مناطق جرداء .

وبسبب هذه الظاهرة الخطيرة فإن الناس هنا ، يقولون ، بشيء من التندر ، إنهم صاروا يبتاعون التمور من الشارقة! أن يشتري أهل «رأس الخيمة» التمور من الشارقة ، يعني أن الآية انقلبت تماماً . فرأس الخيمة مشهورة ، أصلا ، بتمورها وخضرها ومياهها المعدنية قبل أي شيء آخر .

# البيوت. الأقفال

بيت أهل «محمد» الذي رأيته في «القليعة» ليس نموذجاً للبيت الشّحي التقليدي في «رؤوس الجبال» . كان ينبغي أن أرى بيوت ذوي «علي» في «وادي غليلة» لأقف على البيت الشّحي الأصلي .

قد يكون برترام توماس هو الذي قال إن «الشحوح» يسكنون كهوفاً ، بعد أن قال إنهم قوم «غريبو الأطوار» وقدم لهم صورة أقرب إلى الوحشية في كتابه «مخاطر الاستكشاف في الجزيرة العربية» . البيت الشّحي التقليدي ليس كهفا ، الشيء الوحيد الذي يشترك فيه مع الكهف هو انعدام المنافذ باستثناء مدخله الرئيسي ، وهو لا يسمى عندهم بيتاً بل «قفلاً» . . وهذا هو بيتهم الشتوي .

و«القفل» ، لغة ، يعني الغلق .

والبيت الشّحي مغلق فعلا .

بالقرب من المساكن الحديثة لأهل «علي» ، التي تتوضع في بسطة من الأرض تسمى «الوعبة» وتحت أقدام الجبل المخرمشة ، كانت هناك بضعة «أقفال» قادنا «علي» إلى واحد منها . من شروط بناء البيت «القفل» أن يكون ثلثاه تحت الأرض وثلثه فوقها . فعندما

تراه من الخارج لا يخطر لك أنك أمام بيت يتوافر على «مرافقه» الكاملة ، لا يخطر ببالك ذلك لأنه لا يرتفع أكثر من متر أو متر ونصف المتر عن سطح الأرض .

فتح «علي» أحد البيوت ـ الأقفال ودلف إليه شبه مقرفص ، ثم دخلت بعده بانحناء أكثر مما فعل «علي» . في الخارج كانت الشمس لا تزال ساطعة وقوية ، ولكن ما إن دخلت حتى هبّتْ رائحة رطوبة وتراب وحطب . بدا البيت - القفل مظلما بعض الشيء . . ثم بعد قليل رحت أتبينه . إنه ، أيضا ، غرفة ، مثل بيت «محمد» في «القليعة» وله ، تقريبا ، تقسيم الحيِّز الضيِّق نفسه . هناك مكان لموقد النار وما يمكن أن نسميه ، تجاوزا ، المطبخ ، ومكان للجلوس . . ولكن من دون فاصل بينها . . مع فارق أن بيت ذوي «محمد» له نافذة ، وهو فوق الأرض ، أما هذا البيت - القفل فهو بلا نافذة ، أو كوة تطل على الخارج . إنه مقفل تماما . سقفه مشيد من خشب السدر أو السمر ، تعلوه طبقة من الطين وبينهما أوراق «السخبر» .

يقول «علي» إن العائلة كانت ، كلها ، تطبخ وتأكل وتسمر وتنام في بيت أو بيتين من هذا الطراز . سألت «علي» : وكيف يخرج دخان الموقد؟ فقال : بفتح الباب أو تسرب الدخان من السقف! كان بجانب البيت ـ القفل ، «صيرة» من الحجارة والخشب تهجع فيها الماشية التي تقتنيها العائلة أهمها الماعز . إنه شيطان القطعان . فهذا مكان جبلي لا تصمد ، في وعورة تضاريسه ، الأغنام ، ويستحيل ، بطبيعة الحال ، تربية الأبقار . كانت «رؤوس

الجبال» تلمع بضراوة تحت شمس لا يبدو أنها مستعدة للتزحزح ، جبال عالية ، حادة لا يلوح فيها عرق أخضر . لكن ثمة طيور تحلّق في الأعالي ، قد تكون من فصيلة «الشواهين» ، فلم يستطع «علي» تحديد جنسها ، ولكن المدهش في الأمر أنه لا يزال هناك بعض «الشّحوح» الذي يتخذون من تلك الذرى العالية مسكنا لهم .

قال «محمد» إنهم قلة ما زالو يواصلون حياتهم القديمة ، وهم ، تقريباً ، منقطعون عن العالم الخارجي .

ولكن كيف يتصلون بـ «العالم الخارجي»؟ أقصد كيف يحصلون على الطعام والشراب والدواء وما شابه ذلك؟

يقول «محمد» إن هناك طائرات عمودية عسكرية تقلهم في رحلة أسبوعية إلى المدينة ليتمونوا منها . حاولت أن أتصور كيف يمكن أن تكون الحياة هناك ، فلم أفلح .

هذا ، بالطبع ، خطأ .

فكلمة الحياة عندي لها مراجع وتجليات ليست صالحة ، بالضرورة ، هناك . ليست الحياة هي ما نعرف . فهناك ، بالتأكيد ، حيوات لا نعرفها ، أو في أضعف الإيمان ، لا تناسبنا .

# اللهجة الشحيّة

كان «علي» يقرّب كلامه من اللهجة التي يتحدث بها «محمد» ، فأفهم كلامه ولكن الصعوبة ، إن لم يكن الاستغلاق ، هي في فهم ومتابعة حديثه إلى «محمد» . كان هذا هو السبب في قلة كلام «علي» معنا . كان طليقا تماما وهو يتحدث مع ابن خاله . أعترف أنها من المرات النادرة التي تستغلق عليَّ لهجة عربية . فللشحوح أكثر من لهجة خاصة لا تشبه اللهجات المتداولة في الإمارات ، ولكن أصعبها ، بل قل أبعدها عن العربية ، هي التي يتكلم بها «المكازرة» ، لكن «علي» و«محمد» ليسا من هذه القبيلة ، بل هما يعتبران لهجة «المكازرة» غير مفهومة لهما ، وذلك ، حسب قول «محمد» ، بسبب دخول كثير من الكلمات الفارسية القديمة عليها .

أول ما لفت نظري إلى هذه اللهجة هو التمييل الذي يعطي لها طابعاً ليناً وناعم الوقع ، يتناقض ، تماماً ، مع محيطهم الطبيعي القاسي ، ويتناقض ، كذلك ، مع ما هو شائع عن «الشّحوح» من شدة البأس . الكسر والإمالة في بعض الحروف جعلاني أسمع صدى للهجة اللبنانية ، لكنه صدى ضعيف ، على ما يبدو ، إذ لا

يتعدى الأمر الاشتراك في «الإمالة» في بعض الحروف ، مثل كلمة «آدمي» التي ينطقها اللبنانيون «إيدمي» وهي كذلك عند الشّحوح ، كما يحوّل أهل طرابلس في شمال لبنان حرف «الألف» أحياناً ، إلى «واو» خفيفة ، ويظهر ذلك ، واضحا ، عندما ينطقون بعض الأسماء مثل اسم «عادل» الذي يصبح عندهم «عودل» و«قاسم» الذي يصير «قوسيم» ، وهو ، بالضبط ، ما يفعله الشحوح ، لكن لا اللبنانيون ولا غيرهم من العرب ، على ما أعلم ، يقلبون حرف «العين» إلى «همزة» ، فمحمد كان ينادي ابن عمته «علي» : «ألي» ، فهذا قلب أعجمي بالكامل .

ويبدو أن تلك المنطقة من الخليج العربي التي شهدت غزاة أوروبيين وآسيويين ، وبحكم قربها الشديد من بلاد فارس ، قد دخل على لهجتها الكثير من الألفاظ غير العربية . ويصل الأمر بالرحالة والأنثربولوجي والسياسي البريطاني برترام توماس ، الذي أسهم في إخماد آخر ثورة شحيّة للاستقلال بمناطقهم في العقد الرابع من القرن العشرين ، إلى حد القول إن لهجة «الشّحوح» هي مزيج من عناصر عربية وفارسية مع وجود عدد كبير من الألفاظ غير محدد الجذور . ويرى توماس أن تركيب هذه اللهجة أقرب إلى الفارسية القديمة منه إلى الفارسية الحديثة .

ولكن هذا الكلام ، حسب العميد «سعيد لحة» الذي سألتقيه في هذه الرحلة ، قد ينطبق على لهجة قبيلة «كمزار» التي تقطن بالقرب من خليج «هرمز» ، وليس على كل قبائل «الشحوح» ، على الرغم من أن «لحة» الذي فرغ ، لتوّه ، من بناء قرية للتراث الشحي

في «القليعة» أطلق عليها اسم «قرية زايد للتراث» ، لا يقبل فكرة تحدّر «الشّحوح» من أصول غير عربية ، وينفي ، بشدة ، ما يروج عن وجود دم برتغالي يسري في عروقهم . أما المؤرخ «فالح حنظل» العراقي الأصل ، الإماراتي الجنسية ، الذي وضع كتبا عدة عن تاريخ الإمارات والخليج العربي ، فيقينه بعروبة «الشّحوح» لا يشوبه شك . فعند «حنظل» تقع على حماسة مشبوبة لإثبات الأصول العربية لهذه القبائل لا تقل عن حماسته في ردّ تهمة «الردة عنهم» .

يغريني التاريخ ، أقرأه ، غير أنني لست مؤرخاً كي أغوص في تفاصيل لا تقدم في واقع حال هذه القبائل ولا تؤخر ، ولا يهمني إثبات شيء على هذا الصعيد ، فما أنا إلاّ عابر بينهم وفي مكانهم ، والعابر لا يعوّل عليه ، ولكن من المؤكد أن هؤلاء القوم لا يقلون اليوم عروبة عن أكثر الأقوام العربية تشبثا بأصلها العربي القح ومفاخرة به ( . . . من هم هؤلاء؟ وأي خرافة هو العرق النقي؟) ولا يقلون ، كذلك ، تشبثاً بالإسلام في أكثر صوره تشدداً (فمعظم الشحوح حنابلة) عن غيرهم من العرب المسلمين .

وأميل هنا ، إلى الانطباع الذي وقر عند ب . ج . سلوت صاحب كتاب «عرب الخليج» الذي يصف الروايات التي تتناول أصل «الشحوح» وواقعهم الاجتماعي بأنها روايات «غريبة وقاسية» ، ويرجّحُ أن يكون «الشحوح» قبائل محلية سكنت في هذه المنطقة منذ وقت طويل وكانوا حلفاء لمملكة «هرمز» على الجانب الفارسي من الخليج ، ولكنهم تراجعوا تدريجيا إلى أماكن

يصعب الوصول إليها .

ويبدو أنه كانت هناك مجموعات منهم ساندت البرتغاليين ضد إمام «اليعاربة» العماني ، فهم ، كما يظهر ، ظلوا يرفضون أي سيادة خارجية عليهم ، أما وجودهم في جزيرة «لارك» فهو ، برأي «سلوت» ، دليل على علاقتهم بمملكة «هرمز» . ويختتم «سلوت» ملاحظاته عن «الشحوح» بالقول «إنهم قبيلة عربية ، سنية تشوب لغتها ثقافة فارسية أثّرت بشكل فعال في ألفاظها» .

قلت لمحمد قبل أن نغادر «وادي غليلة» : ما هي أكثر الألفاظ التي تستخدمونها تميزا عن اللهجات المحلية الإماراتية؟ فاجأب : هناك كثير من الألفاظ . وأشار إلى حجر كبير في كعب الجبل وقال ، نحن ، مثلا ، نسمي هذا الحجر الكبير «قارة» ، ونسمي الجد والجدة : «حباتي» و«حبوتي» ، ونقول عن الضرب «لفح» (هناك في في الأردن من يقول لمن يضرب شخصاً إنه «لفحه») ونسمي محمدا ، «حما» ، فأنا أنادى هنا «حما» وليس «محمد» ، ونقول «أونا» بدل «أنا» و«إستم» بدل «أمس» وتقريباً ، لا نلفظ حرف «الثاء» الذي يصير «تاءً» ويجري بعض المدّ على الحروف المفتوحة بحيث تصبح «ألفاً» ويمكن لحرف «الهاء» أن يصبح «حاءً» فنحن نقول «حنوك» بدلا من «هناك» .

يعتذر «محمد» عن تخييبه أملي في إجابتي على نحو قاطع على أسئلة لا يعرف جوابها ، ولعله فوجئ بأسئلتي المتواصلة عن أصولهم ولهجتهم وعاداتهم التي يعتبرها ، طبعا ، طبيعية .

نحن ، عادة ، لا نفكر بأنفسنا كـ «غرباء» أو «مختلفين» ، لكن

الآخرين هم الذين يفكرون بذلك ، ويذكروننا بهذا الاختلاف الذي لا يملك ، معظمنا ، عليه جوابا . الاختلاف صنعة الآخر . بلا «آخر» ، من أي نوع ، لا اختلاف ، أو في الأقل لا يرتقي الاختلاف حد الاشارة إليه بالبنان .

لم أعرف ، مثلا ، أنني مختلف عن معظم طلاب مدرستي إلاّ عندما كان يزورني بعضهم في بيت أهلي ، فتتحدث إليهم أمي بلهجتها البدوية فلا يفهمون تقريبا كلامها . عندئذ أشعر بـ«الاختلاف» ولكن أمي لم تكن تشعر بذلك ، بل لعلها كانت تعتقد أن الآخرين هم المختلفون . هم «الخطأ» . هم الذين لهم لسان أعوج . وما أزال أذكر لخمة أحد زملاء الدراسة في المرحلة الثانوية الذي سألته أمي ، على سبيل فتح الحديث أو المجاملة ليس إلاّ :

ـ ولدمن أنت؟

دمجت أمي كلمتي «ولد» و «من» في كلمة واحدة ، فلم يفهم الشاب . قلت له إن أمي تسألك : أنت ابن مين؟

ومن الناحية اللغوية كان سؤال أمي صحيحاً أكثر من «ترجمتي» له إلى لغة السياق السائد ، فهي سألته : ولد مَنْ أنت؟

يعرف «محمد» أنني أزور دياره بوصفها ، أصلا ، مختلفة عن باقي ديار الإمارات ، ولكنه لم يوطد النفس على التفكير في ذاته بوصفه مختلفا وإن حصل ذلك ، فهو لم يكن متضلعا بمعجم هذا «الاختلاف» .

خطر لي وأنا أسأل «محمد» أسئلة لا تنتهي عن أصول قومه ولغتهم وعاداتهم ، والملاحظات التي رحت أسجلها حيال كل ما

اعتقدت أنه «مختلف» أو «غريب» إنني لا أختلف كثيرا ، عن أولئك المستشرقين الذين كانوا يخضعوننا إلى الدرس والفحص ، كما لو كنا كائنات من كوكب آخر . كأننا لا نختلف ، في نظرهم ، عن النباتات أو الحيوانات النادرة التي كانوا يرسلونها إلى متاحفهم لتحدد فصائلها وأجناسها .

تذكرت أمي الأكثر بداوة بيننا ، فأزعجتني الفكرة . تذكرت أيضا ذلك الولد «الشراريّ» الذي يدعى «غانم» ، ابن صفي في المرحلة الإعدادية ، حيث كان مُدرّس اللغة العربية يوسعه ضربا كي ينطق اسمه بالغين وليس بالقاف ، ولم يستطع .

عندما سنعود إلى «القليعة» مرة أخرى وأرى أقارب وجيران محمد مجتمعين للاحتفال بعرس أحدهم سأتذكر قولة برترام توماس عن «الشحوح» بأنهم قوم «غريبو الأطوار» ، فلا أجدُ شيئاً من «غرابة الأطوار» هذه ، بل سنقابل باحتفاء من لدن بعض الشباب الذي سيصر على أن نبقى لحضور العرس . وراح أكثر من واحد منهم يتسابق لشراء المرطبات لنا من الدكان الصغير الذي كانوا يتحلقون أمامه ، كما كنا نتحلق أمام الدكاكين في أحيائنا الفقيرة ، يضحكون بملء أفواههم ، منتظرين الليل الذي سيخيم بعد قليل ليبدأ الحفل الذي سيغنون فيه «الرواح» و«الندبة» .

تساءلت في نفسي : ألم يكن برترام توماس بسحنته البيضاء و«ثقل» لسانه يبدو للشحوح غريب الأطوار ، أيضاً؟

***

نحن ، الآن ، في أواخر شهر نيسان (أبريل) وهذا يعني ، أننا ما نزال في فصل الربيع ، لكن الفصول هنا مجازية ، باستثناء فصل الصيف . تذكَّرتُ محمد السويدي الذي قال لي ، ساخرا ، ذات مرة عن المناخ في أبوظبي : لدينا فصلان ، الصيف وجهنم!

طبعا ، أبوظبي أكثر ضراوة في مناخها من «رأس الخيمة» ، التي تعد مصيفا قياسا بالإمارة الجنوبية الكبيرة . للربيع ، هنا ، ملامح أوضح ، يدل عليها اخضرار بعض البقع التي يترصدها الماعز وينقضّ عليها ، وكذلك انخفاض درجة الحرارة النسبي . لكن الربيع ، هنا ، مع ذلك مجازي . فما هو أجرد وأصفر أكثر مما هو معشوشب ومخضر .

في «وادي غليلة» قطف «محمد» بعض الزهور الصفر الضاربة في الجفاف من نبتة عشبية ترتفع نحو نصف متر عن الأرض ، وقال لي إن لهذه النبتة منزلة خاصة عندهم . لم أعرف النبتة ، وإن كانت رائحة زهورها مألوفة لدي .

سألت «محمد» عن اسمها ، فقال : نحن نسميها ، محليا ، «نبتة الحلول» ولعل اسمها الشائع أكثر هو «السناء مكي» وهي تطلع بعد نزول الأمطار فيجمعها أهلنا في ذلك الوقت من العام ويسقوننا نقيعها كل صباح أربعاء .

ـ لماذا كل صباح أربعاء تحديدا؟

لم يعرف محمد .

قلت له : وما هي فائدتها؟

فقال : إنها مليّن للمعدة .

ظل اسم هذه النبتة الذي قال «محمد» إنها «السناء مكي» يدوّم في ذهني ، فوقع التسمية ليس غريبا . . فهناك نبتة تدخل في عداد الزهورات التي يشرب نقيعها الناس في بلاد الشام تسمى «سلمكة» . لا بدّ أن تكون هي نفسها : السناء مكي . . السلمكة . . واضح أن الاسم واحد ، لكن الناس ، عندنا ، لا يشربون الزهورات في يوم محدد من الأسبوع ، بل في أي وقت ، خصوصا ، عندما يصابون بالزكام أو أمراض المعدة .

ويبدو أن لـ «السلمكة» ، في الاستخدامات الراهنة ، فائدة أخرى ، خصوصا ، عند النساء اللواتي يفدن منها في إنقاص الوزن . . فهل بسبب «السلمكة» كان يوصف الرجل الشّحي بالرشاقة وخفّة الحركة وسرعة الانقضاض على أعدائه؟

أشك بذلك .

فطبيعة منطقة «الشّحوح» الجبلية القاسية كافية وحدها لجعله أرشق رجل في العالم ، هذا فضلا عن أن الطعام لم يكن متوفرا ومشبعا بالمواد الدسمة والحراريات كما هو عليه طعام معظم البشر اليوم .

والد «محمد» الذي جاء للسلام علينا عندما وصلنا إلى بيتهم لم يكن رشيقاً ، بل ممتلئاً ، لكن طوله وصلابة عوده وثيابه الفضفاضة لا تظهر ذلك بوضوح . ولمناسبة ذكر والد «محمد» فقد علمت من ابنه أنه متزوج للمرة الثانية ، رغم أنه ، على ما بدا لي ، قد يكون في سني أو أصغر قليلاً .

طبعاً ، تعدد الزوجات ليس له علاقة بالعمر ، بل بأمور

شخصية واجتماعية عديدة .

لم أسأل «محمد» لماذا فعل والده ذلك .

فهذا سؤال شخصي تماماً ، فضلاً عن كونه أمراً شائعاً في منطقة الخليج ، إذ نادراً ما يكتفي الرجال بامرأة واحدة . يفعلون ذلك لـ «تجديد» السرير ، أو لتكبير الذرية في بلاد تعاني من اختلال مريع في نسبة «المواطنين» إلى «الوافدين» .

ومشاكل الزواج والعنوسة تناقشها الصحافة الخليجية هذه الأيام باستفاضة . ولعل من المفيد أن نذكر أن الدولة ، هنا ، تسهم في زواج «مواطنيها» سواء تعلق الأمر بالمهر أم بالسكن ، وتشجع ، خصوصا ، زواج «المواطنين» من «المواطنات» ، بعد تفاقم مشكلة العنوسة عند البنات «المواطنات» وزواج العديد من الإماراتيين من عربيات أو أجنبيات .

# قرية للتراث الشّحي

أراد «محمد الشّحي» أن نلتقي واحداً من وجوه بلدته «القليعة» . إنه العميد المتقاعد «سعيد لحة» المتفرغ ، بعد خروجه من الجيش ، لجمع التراث الشّحي والمحافظة عليه ، وأقام لهذا الغرض «قرية» لتراث قومه على حسابه الخاص في منطقة «غليلة» . كان واضحا أن «القرية» التي أخذنا «محمد الشحي» إليها مشيدة بجهد شخصي . بساطة البناء توحي بذلك . تطالعك «القرية» التي بناها العميد «لحة» على أرضه ، من بعيد . العلم الإماراتي الذي يرفرف عليها يعطيها ، من بعد ، طابع منشأة حكومية ، لكننا ما لبثنا أن تبينا «هويتها» . فهي تحاول أن تقتفي أشكالا من البناء «التقليدي» . فأول ما نراه ، ونحن نتقدم إلى «القرية» ، غير علم الإمارات وصورة كبيرة للشيخ زايد ، مدرجات حجرية تشبه المزارع الصغيرة في جبال اليمن ، حيث تتحول أرض الجبل الوعرة إلى «مساكب» صغيرة متدرجة محميّة بالحجارة لتفادي انجراف التربة القليلة مع مياه الأمطار . هذه طريقة في الزراعة هنا أيضا . لكن أدراج العميد «لحة» الحجرية لا زرع فيها . إنها مجرد ديكور لما كان يفعله المزارعون الشّحيون في منطقة «رؤوس الجبال» .

بثوبه الإماراتي وحطته البيضاء وعقاله الأسود ، وليس بالزيِّ الشّحيِّ ، يستقبلنا العميد «سعيد لحة» أمام «القرية» . مدخل «القرية» مبني من حجر بركاني رمادي ذكّرني بحجارة «حوران» . المدخل عال . ببرجيه الصغيرين على الجانبين له شكل قلعة أو حصن قديم . هناك مدخلان صغيران للراجلين . المدخل الرئيسي مصمم ، على ما يبدو ، لدخول سيارات أو حافلات كبيرة . يأخذنا العميد «لحة» إلى «مجلسه» الذي يشبه أي مجلس إماراتي في شكله المستطيل . الفرق بينه وبين المجلس الإماراتي الحديث وجود «الأسلحة الشحية» المعلقة على الجدران (سيوف ، خناجر ، بنادق ذوات طلقة واحدة) . . والمكتبة . فالعميد المتقاعد «سعيد لحة» رجل مولع بالتاريخ . ولا يخفي زهوه بمعرفته الإنكليزية وجمعه مراجع مكتوبة فيها عن تاريخ المنطقة عموما ، وما يتناول ، ولو عرضاً ، قومه «الشحوح» . . فضلا عن معرفته ، الشخصية ، ببعض «الرحالة» الأجانب الذين زاروا المنطقة ، حديثاً ، وكتبوا عنها .

من أول لحظة أراد الرجل أن يعبر لنا عن جديته وصرامته ، خصوصاً ، عندما لاحظ أن هاني الحوراني ، الذي أخذ يلتقط له صوراً من دون استئذان ، يتكلم بلهجة أحسَّها ساخرة . . أو متباسطة أكثر من اللازم . على الفور «ردع» باني «قرية زايد للتراث» «هاني» عن مواصلة «تبساطه» ، وردَّ الحديث بيننا إلى مكانه الطبيعي : الوقار المصحوب بتقطيبة حاجبين تليق بعميد ركن متقاعد وباني متحف يسرد إلى صحافيين طرفا من تاريخ قومه وفنونهم .

لم يكن هاني الحوراني يسخر . فهو يتحدث على نحو متقطّع ، يلفظ كلمات ويأكل أخرى ، ويبتسم فيبدو كلامه لسامعه ، خصوصا ، لضابط مثل العميد «لحة» ، ساخرا .

كان «سعيد لحة» يعرف أننا «صحافيان» . كاميرات «هاني» المعلقة بعنقه وصدريته الكاكية المليئة بالأفلام والبطاريات ، ومسجلي ودفتري وقلمي أكدت له ذلك . فاتخذ ، لهذا السبب بالذات ، سمتاً رسمياً . «الصحافة» هنا . وعندما تحضر «الصحافة» يحضر التدوين والتوثيق ، وبحضور هذين يحضر التاريخ!

هكذا ، تأكد لي أن الحديث مع العميد المتقاعد ، الذي التحق بقوات الأمم المتحدة في أكثر من بلد منكوب في العالم ، لن يكون سهلا ، وأن علينا الالتزام بالجدية التي تقتضيها وظيفتنا .

وعلى عكس توقعه للحديث بيننا ، خصوصا ، ونحن في «قرية للتراث» سألت العميد «لحة» ، من دون مقدمات ، عن «مروان الشحي» ، ففوجئ بسؤالي . فهو لم يتوقع ، على الأغلب ، أن يبدأ حديثنا بالقائد المفترض للطائرة التي ضربت البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي . قلت للعميد «لحة» إن سؤالي ينطلق من كون اسم «الشحوح» تردّد ، على نطاق عالمي ، من خلال «مروان الشّحي» .

فقال العميد «لحة» بامتعاض : إنها سمعة سيئة على كل حال ، فنحن لسنا هكذا .

سألته إن كان يعرف أهله . فقال : نعم ، إنهم يقيمون في منطقة «النخيل» في «رأس الخيمة» .

ثم سألته : هل تعتقد أن ذويه كانوا على علم بميوله الدينية

المتشددة . فقال : لست متأكداً ، ولكني لا أظن ذلك . فهم أناس عاديون مثلنا وقد تفاجأوا عندما سمعوا اسم ابنهم في عداد أسماء الذين نفذوا اعتداءات 11 سبتمبر . صمت العميد «لحة» لحظة ثم قال : انظر كيف ألحق بنا شخص واحد كل هذا الضرر .

فقلت له : ماذا تقصد؟

فقال : صار اسمنا على لوائح الإرهاب ، كما صار جواز السفر الإماراتي المحترم يخضع للتدقيق الشديد في الغرب .

سألته إن كان «مروان» حالة معزولة ، أم يمثّل تيارا في أوساط شاب «الشّحوح» ، أو شباب الإمارات عموماً؟

هزَّ «العميد لحة» يده كأنه يطرد روحا شريرة وقال : أبداً ، أبداً . . شبابنا موالون كلهم لحكامنا . ليس عندنا مشكلة على هذا الصعيد ، وإذا كانت هناك أفكار خاطئة ومضللة وصلت إلى شبابنا فهي لا تذكر . نحن قوم مسلمون مسالمون ، ثم إن السياسة هي من اختصاص الحكام والمسؤولين الحكوميين .

فقلت له : ولكن ، أليس هناك من يعترض على سياسة معينة للدولة أو على الحكام ، أليس هناك من لا يقبل بالأوضاع الراهنة ، أو لديه ، في الأقل ، مشكلة مع الحكم؟

فقال العميد لحة : لدينا طرقنا التقليدية في حل المشاكل ، والاستماع إلى الشكاوى هو من خصال حكامنا . أبوابهم مفتوحة ومجالسهم كذلك .

تطلع إليَّ العميد «لحة» وقال معززا براهينه على الانفتاح القائم بين الحاكم و«المواطنين» : هل تريد ، الآن ، أن تقابل حاكم

«رأس الخيمة»؟

فاجأني عرضه . فقلت له : يسرّني ذلك . ولكن ربما في ما بعد . فقال «العميد لحة» وقد اكتسب كلامه زخماً بعد أن سجل نقطة لصالحه : يمكنك أن ترى بعينك وتسمع بأذنك كيف تدار الأمور هنا بين «المواطن» والحاكم .

فقلت له : ولكن ماذا عن الدولة ، يبدو أنكم ما زلتم تفضلون الحلول العشائرية على الحلول التي يلحظها القانون؟

فقال «لحة» : هناك قضايا لا تحتاج الى الدولة وقانونها . فالحكام قادرون على التدخل السريع وحل القضايا التي لا تتعارض مع القانون ، أنا رجل عسكري ، أفضل الضبط والربط ولكن الشيوخ يهمهم أن يسمعوا المشاكل والاعتراضات التي لا يخوض فيها الإعلام من أصحابها . . هذه طريقة سريعة ومباشرة في العلاقة بين الحاكم والمواطن تتفق ، تماما ، مع تقاليدنا .

وللبرهنة على عدم وجود برتوكول رسمي ثقيل بين «المواطنين» والحكام قال العميد لحة : اليوم اتصل بي الشيخ (يقصد حاكم «رأس الخيمة») وقال إنه قادم لزيارة القرية ولكنه انشغل ، في آخر لحظة ، بقضية أخرى ، فعاد واتصل معتذرا .

عبَّر العميد «سعيد لحة» عن سعة صدر أكثر مما ظننت ، وجارى أسئلتي التي لم يتوقع أن تكون مدار الحديث بيننا . فقد فهم من «محمد الشحي» أننا مهتمون بتراث «الشّحوح» ومنطقتهم وتاريخهم . وهذا هو «اختصاصه» الآن . وكي يغير مجرى الحديث قام إلى المكتبة وجاء ببضعة كتب ، واحد منها باللغة الإنكليزية

عن «رأس الخيمة» . قدم لي الكتاب الأخير وقال إنه يعرف «شيرلي كيه» ، الآثارية الإنكليزية التي كتبته ، وقد ساعدها في إعداده . فتح العميد «لحة» آخر صفحة في الكتاب وأشار إلى اسمه الذي ذكرته «شيرلي كيه» في عداد الذين ساعدوها في عملها هذا . عنوان الكتاب «بورتريه لرأس الخيمة» ، وهو كتاب سياحي يعتمد على المعلومة العامة المستقاة من التاريخ والبحث الأركيولوجي والمصادر الحكومية ، أما صوره الفوتوغرافية ، وبعضها رائع ، فبعدسة السيدة «كيه» التي أقامت برفقة زوجها الضابط الإنكليزي الرفيع في دبي في منتصف ستينات القرن الماضي وصورت نحو ثلاثين فيلما وثائقيا عن المنطقة العربية لتلفزيون دبي . وككل كتاب من هذا النوع ، لا يتجاوز عمل «شيرلي كيه» حدود وظيفته : تقديم المعلومة التاريخية والأركيولوجية والصورة الجذابة ، من دون أن يتورط سردها في السؤال السياسي أو الاجتماعي لواقع اليوم . كأن ما تعرفه بلادها من ديموقراطية وحقوق إنسان ومشاركة شعبية في السلطة وعدم احتكار الخير العام بيد نخب عائلية هو منجز غربي بامتياز ، ولا تعني أسئلته ، التي لا بدّ أن تكون ملحوظة بقوة في دول الخليج العربي ، خرّيجة جامعة كيمبريدج ودارسة اللغة العربية في مدرسة «شملان» في لبنان . فليست هذه من «مهام» كتابها الذي يضرب صفحا عن حياة بشر اليوم وأسئلتهم . وبهذا المعنى لا يختلف سرد «شيرلي كيه» عن سرديات «ثيسغر» إلا في كونها أكثر تضلعا منه بالأركيولوجيا . أما الفتنة بالصحراء ، الفتنة بالأمكنة «البكر» فهما هما .

طلب منا العميد «لحة» أن نقوم بجولة في «القرية» . فنحن جئنا إليه لهذا الغرض وليس للحديث عن شاب «طائش» وضع اسم «الشّحوح» تحت مجاهر الدول العظمى ومجسّات مكافحة الإرهاب . قال «سعيد لحة» ونحن نتوسط الباحة الخارجية : صنعت كل هذا من مالي الخاص . وحرك يده على نحو نصف دائري كما لو كانت كاميرا تلتقط مشهدا بانوراميا لبيوت حجرية وأخرى مصنوعة من القش . ثم أضاف : الحكومة ، الآن ، مهتمة بما قمت به ، وقد أصبحت «القرية» جاهزة للافتتاح . لم تكن قرية سعيد الشحي مفتتحة بعد . كانت جاهزة كما يبدو لنا . ولكنه كان ينتظر افتتاحا رسميا من قبل حاكم «رأس الخيمة» .

قسَّمَ العميد لحة قريته إلى أقسام تعكس أنماط الحياة التي كان يعيشها «الشحوح» وملأها بالأدوات التي كانوا يستخدمونها . سألته : من أين أتيت بالأدوات التي يبدو أنها انقرضت هذه الأيام؟ فقال : بعضها من عندي وبعضها الآخر أخذته أو ابتعته من مواطنين شحيّين يعيشون في المنطقة . رأينا بيوتا من القصب تشبه تلك التي يقيمها المزاعون في بلادنا على أطراف «الصحاري» أثناء نضج المواسم الزراعية (الخيار ، الفقوس ، البطيخ ، الشمام) . قال «لحة» إنها نموذج لبيت «الصّفة» الشّحي . فقلت له : ولكن البيت الشّحي هو «القفل» . فقال : «القفل» هو بيت الشحوح الشتوي ، أما «الصّفة» فهو البيت الصيفي . لاحظت تقاربا بين الكلمتين : الصيف والصّفة . قلت للعميد لحة : هل من صلة لغوية بين الكلمتين؟ فقال : طبعا ، إنها تسمية عربية قديمة لهذا النوع من

البيوت ، وهذا ينطبق على كثير من ألفاظ لهجتنا التي يراها البعض غريبة أو غير عربية .

لفتت نظري حفرة كبيرة مسيجة بالحجارة . ثمة حجارة كبيرة مرمية داخلها ، أيضا . فقد شاهدت مثلها أثناء جولتنا في «وادي غليلة» . كما أن هناك مثلها بالقرب من جبل «حفيت» في «العين» . قال العميد لحة : إنها نموذج للقبور الجماعية التي عرفتها منطقتنا قبل نحو أربعة آلاف سنة . لا بدَّ أنكم شاهدتم في «وادي غليلة» مثلها . نظر «لحة» إلى «محمد الشّحي» وقال : أليس كذلك يا محمد؟ فرد الأخير بالإيجاب . حدثنا «محمد الشحي» فعلا عن هذه القبور الجماعية القديمة الموجودة في منطقتهم . كان ذلك عندما مررنا برجم من الحجارة في الوادي ، لكن «محمد» لم يكن متأكدا من عمرها الحقيقي ومن هم المدفونون فيها وإلى أي فترة تاريخية ينتمون . «القبور الجماعية» في «العين» معتنى بها . فقد اكتشفها وأشرف عليها آثاريون أجانب وتحولت مزارا سياحيا . ففي «حديقة الهيلي» رأيت مدفنا جماعيا له شكل برج دائري سميك . المدهش في أمر ذلك المدفن الذي أعيد ترميمه ، على صورته الأولى ، تلك الرسومات التي تزين أحد مداخله . فهناك رسم لرجل يمتطي حمارا وخلفه شخص راجل يحمل بيده عصا ، ورسم لشخصين متعانقين . ذكرتني تلك الخطوط النحيلة في مدخل «مدفن الهيلي الكبير» برسومات الكهوف . لكن هنا تحت «رؤوس الجبال» لم ألحظ اهتماما بهذا البعد التاريخي . المنطقة نفسها بدت لي مهملة أصلا .

ولا توجد رسومات على المدافن التي تحولت رجما من الحجارة فوق بعضها البعض . يقول «العميد لحة» عن نموذجه للمقابر الجماعية في منطقة «غليلة» وصلته بمدافن «العين» : هناك ، طبعا ، تشابه . فطريقة الدفن الجماعي كانت سائدة في المنطقة . أسأله عن عمر المقبرة الجماعية في منطقته ، فيقول : إنها تعود إلى أربعة آلاف سنة خلت . وهناك بالقرب منه مستوطنة بشرية . واضح طبعا صلة المدفن بالمستوطنة . ويجد «لحة» صلة بين المستوطنات البشرية التي قامت في مناطق ما يسمى ، اليوم ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، من حلقة «جزيرة أم النار» الحضارية في أبوظبي وصولا إلى مدافن «غليلة» الجماعية . الحلقة الأبرز في هذه السلسلة من الاستيطان البشري الأولى في المنطقة توجد في «شمل» و«ضاية» .

هناك الكثير من الحليّ التي كانت تستخدمها المرأة الشّحية في «قرية» العميد «سعيد لحة» ، وقد بدت لي شبيهة بالحليّ الهندية . التعريقات التي تطبعها تعطيني هذا الشعور ، لكن العميد «لحة» يقول إنها ذات مصدر محليّ قد يكون متأثرا بالحليّ الهندية ، فالصلة بين الخليج العربي والهند تمكن ملاحظتها في المطبخ وألوان القماش والحليّ والعطور . لكن حليّ الرجال أوضح في شكلها العربي ، خصوصا الخواتم التي تحمل أسماء أشخاص أو كتابة عربية . الفضة ، طبعا ، هي المادة المفضلة للحليّ الشّحية مثلما هي كذلك في الحليّ العربية والإسلامية عموما . الشّحيون يميلون إلى استخدام الفخّار في أوانيهم . رأينا في نماذج «العميد لحة» للبيوت الشّحية ومطابخها الكثير من الفخار . النحاس موجود كذلك . وقد

ظلت أواني النحاس دارجة في العالم العربي حتى وقت قريب قبل أن يتم التحول إلى الألمونيوم . . والبلاستيك .

يعرف «لحة» كيف يقص ويسرد . كأنه راوٍ قديم . ولعله سرد المعلومات والقصص التي رواها لنا عشرات المرات من قبل ، فهو يحفظها عن ظهر قلب . وعندما صرنا خارج «قريته» أشار إلى قمة جبل لم نره جيدا وقال : هناك يرقد قبر الولي «زهير» . وقص علينا حكايته : فقد لفظ الموج ، ذات يوم بعيد ، جثة رجل إلى الشاطئ . حدث ذلك قبل فترة الاحتلال البرتغالي لشواطئ الخليج . لاحظ الأهلون أن الميت مسلم (لأنه مختون على الأغلب ، فقد كانوا يحددون دين الرجال الذين تلقيهم الأمواج إلى شاطئهم من هذه العلامة فمن كان مختونا دُفن في مقابر المسلمين ومن كان بلا ختان دُفن في مقابر اليهود!) . كانت هناك أمطار غزيرة فلم يستطع أهالي «غليلة» دفنه فتركوه على الشاطئ . استمر هطول الأمطار الغزيرة أسبوعا ، فلما توقف المطر عاد الأهلون إلى الشاطئ ليجدوا جثة الرجل بلا أي تغيير يذكر . جثة طازجة ، كأن صاحبها توفي توا ، فاستنتجوا من هذه الأعجوبة أن الرجل صالح ، أو ولي ، فسموه «الولي زهير» ودفنوه في رأس الجبل فصار قبره ، مذاك ، مزارا يتبرك به أهالي المنطقة . لم أناقش «العميد لحة» في أعجوبة الرجل الصالح . اعتبرتها مثله أعجوبة . فهناك العديد من «الأعاجيب» في بلادنا يصعب مواجهتها بـ «المنطق» ، لأن لها «منطقها» وموقعها الخاصين في المخيال الشعبي .

أقمت فترة قصيرة في دمشق بعد خروجي من حصار بيروت ،

وفي يوم خريفي تحدثت الصحف عن أعجوبة في حي «باب توما» الدمشقي العريق الذي تسكنه أكثرية مسيحية . كان هناك تمثال للسيدة العذراء ينزُّ زيتا . تقاطر بشر كثيرون ليروا الأعجوبة من بينهم وزير الدفاع السوري ، آنذاك ، مصطفى طلاس . كان صديقي الكاتب الأردني موفق محادين هو الذي قال لي دعنا نرى تلك الأعجوبة ، ولما لم يكن لدي ما أفعله في «عطالتي» الدمشقية فقد ذهبت معه إلى البيت الذي حدثت فيه أعجوبة العذراء . رأينا موكب العماد مصطفى طلاس يخرج من الحي . كان الناس يقفون بالطابور أمام البيت ، فدخلنا مع الداخلين . وضع سكان البيت تمثال العذراء الخشبي الصغير على صينية فيها قطن . كان القطن مبللا بالفعل وله لون يميل إلى الصفرة . لاحظنا أن بين المتبركين من هو مشلول ومن يبدو متخلفا عقليا ومن تستند إلى قريبة لها . كثرة من أصحاب البلاء والحاجة جاءوا إلى هذا البيت لينالوا بركة العذراء التي تنزُّ زيتا . لم نر زيتا ينزُّ أمامنا . كل ما رأيناه تمثال خشبي صغير للسيدة العذراء ، وقطعة قطن مبتلة على صينية .

قصة «الولي زهير» التي حدثنا عنها «العميد لحة» جعلتني أفكر ببضعة أشياء منها :

– أن شاطئ الخليج العربي الذي تصارعت للسيطرة عليه قوى أوروبية عديدة كان يشهد جثثا غارقة لغير المسلمين ، فهناك مقبرة ، فعلا ، في «غليلة» تسمى «مقبرة اليهود» دُفن فيها «غير المسلمين» ، فهل كانوا يهودا حقا ، أم أن غير المسلم ، في نظر أهالي «رؤوس الجبال» ، هو يهودي بالضرورة؟ ولِمَ لا يكون مسيحيا؟

فاليهود يختتنون ذكورهم مثل المسلمين!

– معظم «الشّحوح» اليوم يتبعون المذهب «الحنبلي» ، كي لا يقولوا عن أنفسهم «وهابيين» ، فمن المعروف أن «الوهابيين» أجبروا معظم قبائل ساحل الإمارات على اتباع مذهبهم بالقوة ولم يشذّ عن هذا الأمر سوى قبيلة «بني ياس» الحاكمة في كل من أبوظبي ودبي التي تمسّكت بمذهبها «المالكي» .

– «الوهابيون» ، وهم يمين «الحنابلة» ، يعتبرون زيارة القبور والتبرك بها بدعة ، فلا بدّ ، والحال ، أن تكون قصة «الولي زهير» سابقة على اتباع «الشّحوح» المذهب «الحنبلي» . . أو أن «حنبليتهم» اللاحقة لم تؤثر ، كما يبدو ، على هذا الطقس التبرّكي .

كان الحديث مع «العميد لحة» قد انبسط في ختام ضيافته لنا . فمازحته قائلا : هناك من يقول إنكم من بقايا البرتغاليين؟ ضحك ومسك لحيته السوداء بيده وقال : هل أبدو لك برتغاليا؟

فقلت له : وكيف يبدو البرتغاليون؟

## عن المؤلف وأعماله.

أمجد ناصر شاعر وكاتب وصحافي أردني ، عمل في الصحافة العربية في كل من بيروت وقبرص ولندن . يشرف حالياً على القسم الثقافي في صحيفة «القدس العربي» الصادرة في لندن .

صدرت له تسع مجموعات شعرية وثلاثة كتب في أدب الرحلة وله رواية قيد الطبع . نال عن مخطوطة هذا الكتاب جائزة «ابن بطوطة» عام 2009 ، كما نال جائزة محمد الماغوط للشعر . شارك في عدد كبير من المهرجانات الشعرية العربية والأجنبية وترجمت بعض كتبه الى الانكليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية .

شارك في عضوية لجان تحكيم صحافية وأدبية عربية وأجنبية عديدة منها جائزة «يوليسيس» الالمانية المرموقة للريبورتاج الأدبي ، جائزة عبد المحسن القطان ، جائزة الصحافة العربية في دبي ، جوائز صندوق دعم الثقافة العربية .

كرست لتجربته الشعرية أعداد خاصة من مجلات «الشعراء» ، «أفكار» ، «نقد» ، كما صدر حديثا عن دار الفارس كتاب يتناول تجربته الشعرية وضعه الناقد المغربي رشيد يحياوي بعنوان «معابر أمجد ناصر» .

من أعماله :

- مديح لمقهى آخر (شعر) .
- رعاة العزلة (شعر) .
- وصول الغرباء (شعر) .
- خبط الاجنحة (أدب رحلة) .
- سُرَّ من رآكِ (شعر) .
- مرتقى الأنفاس (شعر) .
- حياة كسرد متقطع (شعر) .
- طريق الشعر والسفر (شهادات شعرية) .
- تحت أكثر من سماء (أدب رحلة) .
- فرصة ثانية (سرد شعري) .
- حيث لا تسقط الأمطار (رواية) .

L E A V I N G L I W A

TRAVELS

# الخروج من ليوا
# يليه في ديار الشحوح

◆ « ليس هدف هذه الرحلة أبعد من تقليب صور العاديّ في نظر المقيمين في المكان ، فلن أكتشف أرضًا لم تطأها قدم من قبل ، ولن أقطع البلاد طولاً وعرضًا على ظهر ناقة كما فعل رحّالة أجانب في فترة التحوّل من بيت سعف النخيل إلى بيت الباطون والحجر ، ومن الجمال إلى سيّارة الدفع الرباعيّ ، ومن القلّة في كلّ شيء إلى وفرة حوّلت المكان معرضًا مفتوحًا لكلّ ما ينتج في العالم .

لا ، ليس هذا مقصد هذه الرحلة ، أوّلاً : لأنّ المكان الظبيانيّ ( والخليجيّ عمومًا ) ، الذي وصفه أولئك الرحّالة الأجانب ، لم يعد كما كان عليه ، وثانيًا : لأنّ الفتنة بالصحراء والبداوة ، عند بعض هؤلاء الرحّالة ، كانت ضربًا من « التطهّر » من « أدران » الحضارة والمدنيّة ، أو درسًا أنثروبولوجيًا استشراقيًا ، بينما البداوة ، في نظري ، مرحلة من مراحل التطوّر الاجتماعيّ والاقتصاديّ للمكان ، سواء أحببنا هذا التطوّر أم كرهناه . »

هذا ما يقوله الشاعر والكاتب الأردنيّ أمجد ناصر في كتابه هذا ، حيث يأخذك بقلم شاعريّ متمكّن وعين يقظة في رحلة في ماضي ( أبو ظبي ) وحاضرها ، وفي رؤوس الجبال مازجًا بين التاريخ والحاضر ، المكان الأوّل والمدينة الحديثة ، الاجتماعيّ والحسّ الشعريّ بخلجات الرمل والأعشاب ...

◆

◆◆

ISBN 978-9953-36-102-9